

النَّهْزَانُ الْوَحِيدُ

تأليف

عبد الرحمن بدوي

دار الثقافة

بيروت - لبنان

١٩٧٣

الطبعة الثالثة

الوجود بالزمان

تصدير عام

غاية الموجود أن يجد ذاته وسط الوجود . وهاهنا صورة إجمالية للمذهب
فسرنا فيه الوجود على أساس الزمان ، وحاولنا تحقيق هذه الغاية للإنسان ؟

عبد الرحمن بدوي

أغسطس ١٩٤٣

الواقع والامكان

وجود الإنسان نسيج من الواقع والإمكان ، يحاك على نول الزمان .
فالوجود نوعان ، وكلاهما يطلق بعده معان : وجود مطلق ، ووجود معين .

أما المطلق فيمتاز خصوصاً بخصائص ثلاث (١) : أولاها أن تصويره أعم التصورات ؛ أو كما قال أرسطو (٢) : « هو أكثر الأشياء كلها عموماً وكلية » ؛ وهذه الكلية ليست كلية الجنس ، أعنى أن الوجود ليس جنساً يشمل الموجودات بوصفها خاضعة للتقسيم إلى أجناس أدنى وأنواع ؛ وإنما هي كاية فوق كل جنس مهما كانت درجته في العلو ، ولذا نعت المدرسيون هذا النوع من الحدود بأنه حدود متعالية ، أى تلك التى تتعالى على المقولات الأرسطية وتصلح للحمل على الموجودات كلها بلا استثناء . والعلة فى هذا أن الوجود ليست صفة تحدد التصور أو الماهية ، بمعنى أنها شئ ينضاف إليه فيعينه صفةً كما هى الحال بالنسبة إلى كل حد يدخل تحت المقولات ، وإنما هى ، كما يقول كنت (٣) : « مجرد وضع شئ أو تعيينات فى ذاتها » ، ولذا لا يعدها هو محمولا حقيقياً . ولكن هذا العموم ليس معناه الوضوح ، بل بالعكس : هذا التصور هو أشد التصورات غموضاً وأخفاها ، بالنسبة إلى المعرفة البرهانية التصورية على الأقل .

وهذه الكلية نفسها تستلزم عدم قابلية هذا التصور لأن يحد ، لأن الحد يتم بالجنس القريب والفصل النوعى ، وفكرة الوجود لا تدخل كما رأينا تحت

(١) راجع هيدجر : « الوجود والزمان » ، ص ٣ .

(٢) أرسطو : « ما بعد الطبيعة » م ب ف ٤ ص ١٠٠١ س ٢١ .

(٣) كنت : « نقد العقل المجرد » ، الطبعة ص ٥٩٨ = الطبعة ص ٦٢٦ .

جنس ، ما دامت أعم الأشياء ، وليس لها في ذاتها فصل نوعي ، لأنها غير متعينة أى تعين . وتلك إذن الخاصية الثانية لفكرة الوجود المطلق ، أعنى أنه غير قابل لأن يحد ، وهذا ما لاحظته بسكال أيضاً فقال : « ليس في وسع المرء أن يحاول تعريف الوجود دون أن يقع في الخلف والإحالة : لأننا لا نستطيع أن نحد لفظاً دون أن نبدأ بقولنا : هو ، سواء عبرنا عن ذلك صراحة وإضماراً . وإذن فلتحديد الوجود ، لا بد أن نقول : هو ؛ وبهذا نستخدم المعرف في التعريف (١) » . وهذا يرد في النهاية الى كون ماهية الوجود غير معروفة .

ولكن ثمت من الأشياء ما هو معروف الآتية ، وإن كان غير معروف الماهية . والوجود والزمان تصوران من هذا النوع ، بل هما نموذجاه الأعلى . ونقصد من الآتية هنا ظهور الوجود دون اقتضاح الماهية . وبهذا المعنى يقول أبو البركات البغدادي : « والوجود . . . أظهر من كل ظاهر ، وأخفى من كل خفي ، بجهة وجهة . أما ظهوره فلأن من يشعر بذاته يشعر بوجوده ، وكل من شعر بفعله شعر معه بذاته الفاعلة ووجودها ووجود ما يوجد عنها ويصدر من الفعل . فمن يشعر بذاته يشعر بالوجود ، أعنى وجود ذاته . ومن يشعر بفعله يشعر بالفعل والفاعل ووجود هذا . لا يشك خواص الناس وعوامهم في ذلك ، ولا يخفى عن ضعيفي التصور منهم . وكذلك الزمان : يشعر به كل إنسان ، أو أكثر الناس جملةً ، ويشعر بيومه وأمهه وغده ، وبالجملة ما مضى زمانه ومستقبله ، وبعيده وقريبه ، وإن لم يعرف جوهر الزمان وماهيته . وكذلك الوجود : يشعرون بآنيته ، وإن لم يشعروا بماهيته (٢) » فالوجود إذن يمتاز بخاصة ثالثة هي أنه أظهر الأشياء ، ولكن من ناحية

(١) بسكال : « أفكار ورسائل » طبع برنشفك ، ط ٦ ، باريس سنة ١٩١٢ ، ص ١٦٩ . ويلاحظ أن « هو » تدل على الوجود ، وهذا أظهر في اللغات الأوروبية .
(٢) أبو البركات البغدادي : « العتبر في الحكمة » ، ج ٣ ، ص ٦٣ ، طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند ، سنة ١٣٥٨ هـ = سنة ١٩٣٩ م . أمّا*

آتيته فحسب ، بينا هو أخفاها من جهة ماهيته ، كما رأينا في الخاصية الأولى.

وهذا بعينه مصدر الإشكال في فكرة الوجود . إذ ليس من شأن هذه الخصائص الثلاث أن تقدم لنا عن الوجود فكرة واضحة . ومن هنا رأينا أنها باعثة على إثارة مشكلة الوجود المطلق عند الفلاسفة باستمرار ، منذ أن وضعها الإيليون لأول مرة في صيغتها الفلسفية الواضحة إلى اليوم . وحياها قد انقسم

* كلمة : آتية ، فهي من اصطلاحات الفلاسفة الاسلاميين ، ومعناها كما في « تعريفات » الجرجاني (تحت المادة) : « تحقق الوجود العيني من حيث مرتبته الذاتية » ؛ وتستعمل عادة في مقابل الماهية ، أى أنها ترادف مجرد الوجود في مقابل الماهية ، كما هو في لص أبى البركات ، وكما يرد في أكثر الكتب الاسلامية ، ولندكر على سبيل المثال : « شرح الاشارات » للطوسي ، ففيه يرد : « واعلم أن الزمان ظاهر الآتية ، خفى الماهية » .

= وظاهر أن هذه الكلمة تعريب دقيق لمصدر فعل الكينونة باليونانية *εἶναι* . ومع هذا نرى بعض المؤلفين العرب يحاول أن يشتقها من العربية كما يقول أبو البقاء « في كلياته » (طبع بولاق ، مصر سنة ١٢٨١ ، ط ٢ ، ص ٧٦ ، تحت لفظ : إن) : « إن بالكسر والتشديد ، هى في لغة العرب تفيد التأكيد والقوة في الوجود . ولهذا أطلقت الفلاسفة لفظ الآتية على واجب الوجود لذاته ، لكونه أكمل الموجودات في تأكيد الوجود ، وفي قوة الوجود . وهذا لفظ محدث ليس من كلام العرب » . وهنا نلاحظ أنه يشتقها من : إن ، وعلى هذا ستكون قراءتها إنية بالكسر للهمزة والتشديد للنون ، مع أن الكلمة التي نحن بصدد قراءتها غالباً بالمددة والنون الخفيفة ، وهذا هو الرسم الأقرب إلى الأصل اليونانى . وفضلاً عن هذا فإنه يقول إنها تدل على واجب الوجود بذاته ؛ ولا شك أن هذا كله خلط من المؤلف ، اللهم إلا إذا كنا هنا بازاء كلمة أخرى غير التي نتحدث عنها .

وكان الدكتور طه حسين قد نبهنا إلى إمكان استعمال هذا اللفظ ترجمة للكلمة الألمانية التي سترد هنا مراراً ، كلمة *Dasein* . ونحن لو أخذنا بالتعريف الذى أورده الجرجاني ، كانت الكلمة صالحة فعلاً لترجمة هذه الكلمة الألمانية التي استعصت ترجمتها إلى كل اللغات الأوروبية الأخرى كما أشرنا إلى ذلك من قبل في رسالتنا « مشكلة الموت » ، بشرط أن ننسى أصلها اليونانى ، ونحتفظ بالتعريف الاسلامى ، لأن الأصل اليونانى يناظره في الألمانية *Sein* أى الوجود بمعنى مطلق سواء أكان « هذا الوجود » ، أم « وجود الماهية » .

الفلاسفة قسمين : قسماً يريد إلغائها ، على أساس أن الوجود الحقيقي هو الوجود العيني المتقوم في هذا أو ذاك من الأشياء ذات الكيان المتقوم ؛ وآخر ، على العكس من ذلك ، يؤيد الفكرة ، ويبحث فيها من ناحية إيضاح ما بها من إشكال ، ويذهب إلى حد حسابان الوجود الكلي المطلق هو الوجود الأسمى من حيث المرتبة الوجودية ؛ وفي الأول نشاهد نزعة اسمية ، وفي الثاني نزعة واقعية . وعلى رأس الفريق الثاني الإيليون ، ثم أفلاطون . أما أرسطو فقد تذبذب بين الناحيتين : ففي الطورين الأول والثاني ، وفيهما كان متأثراً بأفلاطون ، أضاف إلى الوجود المطلق وجوداً حقيقياً ، كما هو ظاهر خصوصاً في مقالة البيتا (ف ٤) من كتاب « ما بعد الطبيعة » . وفي العصور الوسطى كان أصحاب النزعة الأفلاطونية من هذا الفريق ، خصوصاً اسكوت اريجين وإكهرت . فإكهرت مثلاً يرى أن الوجود بما هو وجود واحد ومطلق ، بيتا هذا الوجود أو ذاك ، أعني المتعدد الظاهر ، ليس بذى وجود حقيقى (١) . أما في العصر الحديث فأهم من عنى بهذه المشكلة هو هيغل ، ونظراً إلى ما له من أهمية خاصة بالنسبة إلى ما نريد أن نصل إليه ، فإننا نود أن نتحدث عنه في شيء من التفصيل .

وهنا لا بد أن نشير أولاً إلى أن فكرة الوجود هند هيغل قد مرت بدورين مختلفين : دور كانت فيه فكرة خصبة غنية ، وهو الدور الأول ؛ والدور الثاني كانت فيه فقيرة تكاد أن تنحل إلى اللا وجود ، وذلك في الدور الثاني . ويمثل الدور الأول خصوصاً مؤلفات الشباب ؛ والثاني المنطق بكل أجزائه . فرى هيغل يقول أولاً إن فكرة الوجود المطلق أخصب بما لا نهاية له من المرات من بقية المقولات : « هذا الاستقلال ، وهذا الطابع المطلق للوجود ، هذا هو ما يلقاه المرء فيه ؛ فيجب أن يكون ، ولكن لما كان كائناً ، فيجب

(١) مؤلفات إكهرت اللاتينية « طبع هـ . دنفله ، ص ٥٤٠ - ص ٥٤٣ .
محفوظات تاريخ ومراجع عن الكنيسة في العصور الوسطى ، ج ٢ ، سنة ١٨٨٦ .

ألا يكون كونه بالنسبة إلينا ؛ فاستقلال الوجود معناه أنه كائن ، سواء أكان ذلك بالنسبة إلينا أم لم يكن . إن الوجود يجب أن يكون شيئاً مستقلاً عنا تمام الاستقلال ، وفيه لا تقوم الرابطة بيننا وبينه بطريقة ضرورية (١) . وهذا الوجود هو في نهاية الأمر « المطلق » أو « الله » ، أو هو التعريف الميتافيزيقي لله « لأن التعريف الميتافيزيقي لله تعبير عن طبيعة الله في الأفكار بما هي أفكار : والمنطق يشمل كل الأفكار طالما استمرت في صورة الفكر (٢) » .

ولكن هيجل لا يقف عند هذه النزعة الأفلاطونية التي تأثر بها في دور الشباب ، والتي سنراها واضحة في المثالية الألمانية من بعد عند هربرت ؛ بل يتطور صوب النظر إلى هذا الوجود المطلق بوصفه فكرة خاوية . أجل ، إن الوجود الخالص أو المطلق أول المقولات ، أو أول الأشياء ، لأنه من ناحية فكر خالص ، ومن ناحية أخرى مباشرة بالذات ، بسيطة وغير متعينة . هو مباشرة لأن البدء الأول لا يمكن أن يتوسط له شيء ، كما لا يمكن أن يتحدد أو يتعين أكثر مما هو وعلى ما هو عليه . وكل ما نستطيع أن نحدد به الوجود المطلق هو أن نقول إنه الهوية الخالصة أو السوية المطلقة (٣) . فهو لا يدل على شيء بالذات له وجود معين . ومن هنا يمكن أن ينبعث بأنه تجريد صرف .

ولكنه إذا كان تجريداً خالصاً ، فهو واللاوجود سواء ، لأنه سلب خالص ، والسلب هو اللاوجود . وهذا يقضي بنا إلى القول بأن الوجود واللاوجود سيان ، أعني أنه لا مجال للفرقة إذن بينهما (٤) . أجل ، نحن نفرق بينهما ؛ ولكنها تفرقة اسمية لفظية فحسب ، لأن كل تفرقة تتضمن شيئين ، وأن بينهما صفة توجد في الواحد دون الآخر . ولكن الوجود كما

(١) هيجل : « مؤلفات الشباب » طبع هـ . نول ، تينجن سنة ١٩٠٧ ، ص ٣٨٣ .

(٢) هيجل : « المنطق » (دائرة العلوم الفلسفية) ، ف ٧ ، § ٨٥ .

(٣) Absolute Indifferenz

(٤) هيجل : « علم المنطق » ، ك ١ ، « مجموع مؤلفاته » ، ج ٣ ، ص ٧٤ :

« الوجود الخالص واللاوجود الخاص هما إذن شيء واحد » .

رأينا خلوا من كل صفة ، وكذلك اللاوجود ؛ فليس ثمت للفرقة بينهما إذن من سبيل . وفضلا عن هذا فإننا حين نفرق بين شيئين ، فلا بد أن نجد ثمت شيئا مشتركا بينهما يندرجان تحته : فإذا فرقنا بين نوعين ، فإن ثمت شيئا مشتركا بينهما هو الجنس الذى يندرجان معاً تحته . وفى حالة الوجود الخالص واللاوجود الصرف ليس ثمت شيء مشترك يمكن أن تقوم عليه التفرقة ، فلا محل من هذه الناحية كذلك إلى التفرقة بين الاثنين . ونحن قد اعتدنا أن ننظر إلى الوجود على أنه الغنى المطلق ، وإلى اللاوجود على أنه الفقر المطلق ؛ ولكننا لو أمعنا النظر ، فنظرنا إلى العالم ككل ، لا نستطيع إلا أن نقول إن كل شيء موجود ، ولا شيء أكثر من هذا . وفى هذا نحن نهمل كل تعيين وتحديد ، ومعنى هذا فى نهاية الأمر أننا ننظر إلى الوجود نفسه كأنه خاو فقير ، أى هو واللاوجود سواء . وإذا نظرنا من ناحية أخرى إلى اللاوجود فإننا لن نستطيع أن نحدد فيه شيئا ، وكل ما فى وسعنا أن نقوله عنه أن نقول إنه شيء ، أى هو موجود غير معين . وخلاصة هذا كله أننا إذا حاولنا الوصول إلى الوجود المطلق لم نصل إلا إلى اللاوجود ؛ وإذا حاولنا الوصول إلى اللاوجود لم نصل إلا إلى الوجود .

الوجود واللاوجود إذن أفكار خاوية ليست غير تجريدات خالصة من كل مفهوم . فأين الحقيقة فيهما إذن ؟ حقيقتهما وحدة تشملهما ، هى التغير أو الصيرورة . فنحن حين نتحدث عن الوجود المطلق ونقصد من ورائه وجوداً حقيقياً ، إنما نقصد التحدث عن التغير ؛ والتغير هو فى الواقع الفكرة العينية الأولى ، وتبعاً لهذا ، هو التصور الأول ، بالمعنى الذى يستخدم فيه هيجل كلمة التصور بمعناها العالى ، أى بوصفها الكلى العينى أو المتقوم .

فى التغير يرفع التعارض بين الوجود واللاوجود ، هذا التعارض الوهمى ، وننتهى إلى الوحدة ، الوحدة التى يفنى فيها هذا العاملان : عامل الوجود الذى هو لا وجود ، وعامل اللاوجود الذى هو وجود . ونتيجة هذا التغير الوجود

المعين على نحويه : هذا الوجود ، ووجود أى . فهذا الوجود المعين إذن يمتاز بميزتين : أولاً أنه وحدة الوجود واللاوجود ، التى نتخلص فيها من المباشرة القائمة فى هذين ، والتى لا يوجدان فيها إلا كعاملين فانيين ؛ وثانياً أنه لما كانت النتيجة هى رفع التناقض ، فإنه يبدو على هيئة وحدة بسيطة مع نفسه ، بمعنى أنه هو أيضاً وجود ، ولكنه وجود مع سلب أو تحديد أو تعين ؛ أو هو تغير موضوع بصراحة فى صورة أحد عنصريه ، أعنى عنصر الوجود المطلق . وهذه الصفة هى ما ينعته هيكل بنعت الكيف ؛ والوجود المعين على هذه الصورة هو شىء موجود ، أو هو الموجود أو الكائن . والكيف يمكن أن يوصف بأنه حالة مباشرة فى هوية مع الوجود — بعكس الحكم الذى ، وإن كان حالة للموجود ، فإنه ليس فى هوية مباشرة مع الوجود ، وإنما هو حالة سميوية خارجية بالنسبة إليه .

ذلك هو جانب الوجود فى التعيين والتغير . أما جانب اللاوجود فهو فى هذا التعين نفسه ، لأن كل تعين ، كما يقول اسپينوزا (١) ، سلب ، والسلب هو اللاوجود ، كما قلنا من قبل . ذلك أن الوجود المطلق حين يتعين فى التغير يصير ذا حد ، أى يكون فى مقابل شىء مميز عنه ، لأن التعين معناه التحدد ، والتحدد معناه وجود حد ، ووجود الحد يقتضى أن يكون ثمت «آخر» ، وهذا الآخر أو الغير يقوم بإزائه ، وإن كان ذا وظيفة ضرورية فى وجوده ، لأنه لا يقوم تعين دونه . والحد من أجل هذا يتضمن تناقضاً فى ذاته : فهو من ناحية يعين حقيقة الشىء الموجود ، ما دام الشىء الموجود لا يوجد معيناً إلا إذا كان له حد ؛ ومن ناحية أخرى الحد سلب لهذا الشىء ، لأنه يدل على الغيرية أو الآخرية ، فهو وجود وسلب أو لا وجود معاً : ومن هنا نتبين فيه طابع التعارض الديالكتيكى الذى يميز كل ما فى الوجود ، عند هيكل .

وهذا بعينه مصدر التناهى فى الوجود . فالتناهى معناه أن شيئاً قد أفرد عن

الكل وُحِّدَ في مقابله . وعلى هذا في مجرد وجود شيء وجوداً حقيقياً تَضُمَّنُ
للتناهي بالضرورة . بل إن اللامتناهي لا بد له ، من أجل أن يصبح موجوداً
حقاً . أن يخضع نفسه للتحديد الذاتي .

وهذا التناهي يقتضى بدوره نوعاً من اللامتناهي . ذلك أنه إذا كان التعيين
في الوجود يستلزم الحد . والحد يستلزم الغير ، وهذا الغير هو بدوره وجود
معين . وهو بالتالى يستلزم حداً ، وبدوره يستلزم غيراً ، ثم وجوداً آخر ،
وهكذا باستمرار - فإننا نصل إلى سلسلة لا تنتهى من الموجودات المتعينة .
ولكن هذا اللامتناهي ، ليس لامتناهياً حقيقياً ، بل ينعتة هيجل بأنه اللامتناهي
الفاسد أو الباطل ، أو السلبى : لأنه ليس إلا سلب المتناهي ، ولا يلبث
الامتناهي أن ينبثق من جديد كما كان ، ويستمر على هذا النحو باستمرار
دون أن يكون في الوسع القضاء عليه أو التخلص منه أو رفعه . ونحن
بإزاء هذا النوع من اللامتناهي في حالة تكرار فحسب : فنحن نضع حداً
ثم نتجاوزه إلى حد آخر ، وهكذا باستمرار ؛ وهذا كله تغير زائف
وتبادل فاسد . لا يتعدى منطقة المتناهي ، بل يدور دائماً في دائرة من السلب
والنفي المتكرر المفرغ . وليس للفلسفة أن تشغل نفسها بهذا التكرار الخاوى
وإنما الفلسفة الحققة هى تلك التى تشغل دائماً بشيء عيني متقوم حاضراً بأسمى
معانى الحضور .

أما اللامتناهي الحقيقى فهو ذلك الناشئ من اندراج الآخر في الذات ،
بحيث لا يكون الآخر حداً وبالتالى سلباً ، بل جزءاً مكوناً لوجود الذات .
وهذا يتم بالإمساك بطرفى العملية ، دون أن ندع أحدهما يفر وحده من الآخر :
وذلك أن الشيء المتغير يتغير إلى نقيضه ، ولكن هذا النقيض أو الآخر
يتغير أيضاً إلى آخر أو نقيضه ، وهو بهذا عينه يعود إلى الأصل ، وبذا يرتفع
الحد الذى وضع في الجانب الأول من العملية . وما دام الشيء الذى وصلنا
اليه هو بعينه الشيء الذى تغير أولاً ، لأن لكليهما صفة واحدة بالذات
أولاً : وهى أن يكون غيره ، فإن النتيجة هى أن الشيء وهو في طريقه إلى آخر

إنما يلحق بنفسه . وهذا الانتساب إلى الذات في طريق التغير ثم في الآخر ، هو اللامتناهي الحقيقي : أو في صيغة سلبية : ما تغير هو الآخر ، وهو يصير آخر الآخر ، أى يكون هو هو نفسه . فيكون لدينا إذن وجود ، هو نفي النفي ، قد عاد من جديد ؛ وجود كلى مكتف بذاته ، هو ما يسميه هيكل باسم «الوجود الذاتي» . وهذا الوجود الذاتي هو مباشرة ، وإشارة من الذات إلى الذات ، وهو «الوحدة» . ولما كانت هذه الوحدة خالية من كل تميز في ذاتها ، فإنها تنفي الآخر أو الغير عن ذاتها . كما أن هذا الوجود الذاتي هو كيف تام ، وبهذا الاعتبار يتضمن وجوداً مطلقاً مجرداً ، ووجوداً محولاً : فبوصفه وجوداً بسيطاً مطلقاً ، هو إشارة ذاتية ؛ وبوصفه محولاً أو مكيفاً بكيف يكون معيناً . ولكن التعين في هذه الحالة ليس تعيناً متناهياً - أى شيئاً مختلفاً عن آخر - بل لا متناهياً ، لأنه يشتمل على تجزئ ففنى في ذاته . وخلاصة هذا كله أن الوجود الذاتي أو الوجود لذاته قائم بنفسه ، مستقل عن غيره ، متمركز حول كيانه ، وما عداه سوى بالنسبة إليه ؛ وبيننا رأينا الوجود المعين يفسر بغيره ويفهم به ، نرى هذا الوجود لذاته لا يفسر إلا بنفسه ونفسه فحسب ، ومن هنا يبدو خالياً من السلب .

والنموذج الأوضح لهذا الوجود لذاته هو «الأنا» . فنحن نعرف أنفسنا أشياء موجودة مستقلة في البدء عن غيرها من الموجودات ؛ ونشعر بأنفسنا أشياء ثابتة تشير إلى ذاتها باستمرار وبغير نهاية . ففي «الأنا» إذن كل تلك الصفات التي وجدناها في الوجود لذاته : أعنى القيام بالذات ، والإشارة من الذات إلى الذات ، واللاتناهي الحقيقي ؛ وبالجملة ، الوحدة بأخصب معانيها . والواقع أن الوجود لذاته هو الأساس لكل التطورات العليا المعروفة باسم الذاتية أو الشخصية .

ومن هذا كله نرى أننا مررنا في نظرية الوجود عند هيكل بثلاث درجات الأولى درجة الوجود المطلق الخالى من التعين ، والذي هو بالتالى لا وجود ،

فهو كلى مجرد ؛ والثانية درجة الوجود المعين ، ذى الحد ، وبالتالي هو يتضمن الشئ والآخر ، ولكونه ذا حد هو متناه ؛ والثالثة والأخيرة درجة من الوجود هي مزيج من الدرجتين السالفتين فيها جمع بين الكلية والتعين على هيئة الوحدة ، ونفى للحد والتناهي على هيئة الفردية ، وسلب للآخر مع اتخاذ صفة اللامتناهي الحقيقي . والأولى دائرة الهوية ، والثانية دائرة الغيرية والاختلاف ؛ والثالثة دائرة الوجود المدعوم الأساس . وفي الوجود المطلق حرية اللاتعين ، أو حرية القوضى ؛ وفي الوجود المعين ، تسود الضرورة ؛ أما في الوجود لنفسه ، فالحرية حرية تعين بالذات .

ولكن هذه الدرجات ليست درجات في مراتب الوجود مرتبة ترتيباً تصاعدياً ، وإنما تأتلف كلها في وحدة تضمها جميعاً هي وحدة « التصور » : وكل درجة من هذه الدرجات إذن تشتمل في الآن نفسه على الدرجتين الأخرين : « فالكل هو الذى في هوية مع نفسه ؛ بهذا الوصف الصريح وهو أنه يتضمن في الآن نفسه كلا من الجزئى والفردى . وكذلك الجزئى هو المختلف أو الصفة المعينة ، مع هذا الوصف ، وهو أنه في ذاته كلى وفردى . وبالمثل : يجب أن يفهم الفردى على أنه ذات أو موضوع (بالمعنى المنطقى) يشمل الجنس والنوع في داخل ذاته وله وجود جوهرى . وهذا هو الاتحاد الذى لا ينقسم ، الاتحاد الصريح أو المتحقق لوظائف « التصور » في أحوال اختلافها - وهو ما يمكن أن يستمى وضوح « التصور » الذى لا يحدث فيه أى تمييز غموضاً أو انقطاعاً ، ولكنه مُشَفٌّ تمام الشفوف (١) . ومعنى هذا أن لحظات « التصور » لا يمكن أن تستقل ، وهذا يؤدى إلى القول بأن الفردية تشتمل على الكلية واختلاف الجزئية ، كما أن الكلية تشتمل على الفردية واختلاف الجزئية . وهذا على أخطر درجة من الأهمية ، فيما يتصل ببيان فكرة الفردية عند هيجل .

ذلك أن التداخل بين الفردية والكلية على هذا النحو يقصد به أمران :
الأول أن الكلية باشتغالها على الفردية تكتسب صفة العينية والتقوم في الوجود إلى أقصى درجة « لأن الوحدة السلبية مع الذات ، كوصف خالص تام ،
وهي الفردية ، هي بعينها ما يكون الإشارة من ذاتها إلى ذاتها ، أى الكلية » .
ولإيضاح هذا نقول إن الكلية معناها أن التصور في حالة مساواة حرة مع
نفسه في خواصه النوعية ، بينا الفردية معناها الانعكاس الذاتي أو الانعكاس
على الذات للخواص النوعية للكلية في حال من التعيين التام لا يسمح بفقدان
أى شيء من الهوية أو الكلية . فكأنها سترتد في النهاية إلى معنى الكلية ؛
وكل ما هنالك من فارق أننا ننظر إلى الكلية في هذه الحالة من ناحية التعيين
والاختلاف ؛ ولذا قلنا من قبل إن الوحدة جمع بين الكلية والاختلاف
على صورة الجزئية . ولذا كان «التصور» ، مفهوماً على هذا النحو ، عينياً
متقوماً إلى الدرجة العليا ، وليس كما كان يفهم من قبل على أنه مجرد ، مما
كان دائماً هدف نقد فكرة التصور من جانب خصوم كل فلسفة تصورية .
وإنما «التصور» ، عند هيجل في الدور (١) الثانى ، كلى متقوم له من المشاركة
في الوجود بقدر ما للفردى عند أصحاب النزعة الاسمية .

غير أن هذه المزاوجة بين الكلية والفردية قد تمت بالأحرى على حساب
الفردية . وهذا هو الأمر الثانى الذى قصد إليه من ورائها . فالفردية هنا قد
ضاعت وفنيت في كلية «التصور» ، بارتفاعها إلى مرتبة الكلية . أجل ،
قد يصح أن يفسر الارتفاع إلى الكلية على أساس بلوغ الفردية مقام الكلية ،
مما من شأنه أن يؤله الفردية ، يجعلها مثلة للكلى ، كما يقصد إليه في التجربة

(١) استعمل هيجل كلمة «تصور» Begriff في الدور الأول بمعنى فيه قبح .
بينما استعملها ، على العكس من هذا ، في الدور الثانى بهذا المعنى الذى شرحناه هنا أى
بمعنى الكلى المتقوم . فهو في «المذهب الأول» ، بل وفي «ظاهريات العقل» يستعملها
بمعنى التصور المجرد . راجع في هذا : جان فال : «شقاء الضمير في فلسفة هيجل»
ص ١٩٤ ، تعليق ١ ، باريس ، سنة ١٩٢٩ .

الصوفية النازعة إلى الاتحاد بالكل كى يكون المرء هو الكل فى الكل .
ولكن هيجل ، والمثالية الألمانية بوجه عام ، اللهم إلا عند شلنج بشىء
من التأويل ، لا تنحو نحو هذا الاستدلال والتفسير ، بل يرى هيجل أن
الفردية أو الشخصية لا وجود لها إلا داخل الكلية ، كلية « الصورة » أو
« التصور » ؛ والشىء الحقيقى ، بل الوحيد ، هو الكل على هيئة « الصورة »
أو « التصور » . « فالتصور » هو الأول الحقيقى ، والأشياء أشياء بواسطة فعل
« التصور » الكامن فيها والمنتجلى أيضاً بها . والنوات ليست هى التى تنتج
الفكر العالى على الفردية والنافذ فى الوجود ، وإنما هو الفكر أو العقل أو
التصور أو الصورة (والمعنى واحد) هو الأساس فى كل الوجود ، وهو الذى
يتقوم على هيئة النوات والأفراد ، ويقوم فى مشاعرها . وليس الأمر فى هذا
مقصوراً على النوات ، بل يمتد إلى الموضوعات الموجودة فى الخارج أو الوقائع
المستقلة عن الشعور أو الضمير ؛ فهى الأخرى ليست جواهر أو أشياء موجودة
بذاتها قائمة بأعيانها ، بل كل قيامها ووجودها بواسطة « التصور » أو
« الصورة » أو الكلى المطلق ، وما هى إلا تكوينات وارتباطات بين الوظائف
الفكرية الصورية للتصور .

والنتيجة لهذا أن الفردية ، بمعنى الشخصية ، ليست بذات قوام حقيقى ؛ والفرد
بالتالى ، لا يمكن أن يكون مبدأ لوجود حقيقى مستقل بنفسه ، « فالوجود
المفرد ، على هذا الأساس ، لا يكون ما هو حقاً إلا بوصفه مجموعاً كلياً
من الوحدات المفردة : أما إذا قطع من هذا المجموع ، فإن الذات الواحدة
المفردة المتوحدة هى فى الواقع ذات عاجزة غير حقيقية » ؛ « ووحدة الشخص
الحاوية هى ، من أجل هذا ، ومن حيث حقيقتها ، وجود عرضى ، وعملية
ممكنة زائلة غير جوهرية لا تفضى إلى أى بقاء حقيقى ثابت » . وإنما الشخصية
الحقيقية هى تلك المتكونة من مجموع مطلق من الفرديات الذرية المتناثرة
المتجمعة فى آن واحد فى مركز واحد مختلف غريب عنهم . حقاً إن هذا المركز
هو من أحد نواحيه حقيقة مفردة خالصة ثابتة ثبات تماسك شخصية هؤلاء

الذرية ، ولكنه على العكس من خواء فرديتها ، يشتمل على المضمون الكلى ، ومن هنا يجب أن يعد العنصر الحقيقي الجوهرى ؛ فضلا عن أنه فعلية وواقعية مطلقة ، وقوة كلية ، فى مقابل حقيقتها المطلقة المزعومة ، وهى الحقيقة غير الجوهرية من أسامها . وهذا المركز يحسب نفسه حينئذ سيد العالم ، والشخص المطلق ، المشتمل فى داخله على كل وجود ، والذى لا يوجد فى مقابله روح أخرى من نوع أسمى منه . أجل ، إنه شخص : ولكنه الشخص المفرد الأوحد الذى قام يؤكد نفسه فى مقابل الكل . وهذا كله هو ما يكون ويوطد الكلية الظاهرة للشخص الواحد . . . ولكن هذا السيد للعالم ، الشاعر بكونه خلاصة كل القوى الفعلية وجوهرها ، هو الشعور الاسمى بالذات ، الذى يعد نفسه الله الحى (١) .

وواضح كل الوضوح أن الشخصية بهذا المعنى لا تتحقق إلا بالنسبة إلى « الصورة » أو « التصور » أو الكلى المطلق ، أو الله ، أى على وجه العموم بالنسبة إلى الكلى . أما الفردى فلا قيمة له إلا بأن يفنى فى الكل ، أو يخضع للقوانين الكلية للواجب . وبهذا يقضى هيجل على الحرية الفردية ، وبالتالى على الفردية المتحققة فى الوجود عن طريق الحرية . وإنما دور الفرد فى الواقع التاريخى والروحى دور الوسيط والمعبر ؛ هو عضو فى التطور العام للروح المطلقة وهى تعرض نفسها على مر الزمان الأبدى ، أو هو لحظة لن تلبث أن يقضى عليها فى اللحظة التالية من لحظات هذا التطور ، وهى إذن لا تقوم بذاتها فى مقابل الروح المطلقة أو الصورة ، بل تغوص فى أعماقها وتبتلع فى داخلها . وما يبقى هو ما يخلفه الفرد أعنى نشاطه الروحى ، لا هو نفسه . والروح إذن ليست الروح الفردية ، بل الروح المطلقة الكلية ، التى هى جوهر الأرواح الفردية ، وماهيتها . والتى تتطور وتنمى مضمونها خلال

(١) هيجل « ظاهريات الروح » ، باب : الروح ، ج : شرط الحق أو الوضع

هذه الأرواح الفردية . أجل ، / إن هذا الإنماء والتطور يتم خلال الأرواح الفردية ، ولكن هذه لا تقوم بذاتها خلال هذه العملية . وإذا كان هذا التطور يصدر عما للروح المطلقة من حرية وفعل ، فإن الحرية هنا تختلف تمام الاختلاف عن الحرية التي نفهمها عادة ، أى الحرية الشخصية الحقيقية . وإنما الحرية هنا تفهم بالمعنى الأسمى الملىء بالمضمون ، وهو النماء الذاتى والتحقق الذاتى للعقل أو للروح فى كل ميادين نشاطها . فكل ما يصدر عن الروح المطلقة من حضارة ، وكل ما تنتجه من صور للحياة ، دينية وفنية واجتماعية ، كل هذا يحسبه هيجل فعلاً من أفعال هذه الحرية . وظاهر من هذا أن مضمون كل فعل للحرية عقلى . والعقلية هنا معناها أولاً أن هذا الفعل مقود بمنطق التطور الضرورى الذى تسير عليه الروح ، وثانياً أنه خارج عن الزمان ، لأن عملية التطور المنطقى أو الديالكتيك ، وإن كانت تشتمل على نوع من الحركة ، فإن هذه الحركة ليست حركة فزيائية تقتضى الزمان والمكان ، بل حركة عقلية تتم فى مملكة الروح العالية عن مملكة الطبيعة ، وبهذا لا تخضع لمقواتى الزمان والمكان ، ما دام هذان لا ينطبقان إلا فى مملكة الطبيعة أو التجربة الخارجية أو الظواهر كما أثبت ذلك كـنـت .

وهذا هو السر فى أن الزمان عند هيجل لا يقوم بأى دور تقريباً . وكيف يكون له دور فى مذهب يجعل التطور تطوراً منطقياً خالصاً ، هو المرور بخطوات الديالكتيك ، وينظر الى الحقيقة الواقعة على أساس أنها « الروح » أو « الصورة » ، أعنى ما هو بحكم تعريفه خارج عن الزمان ؟! والأمر كذلك بالنسبة إلى المسكان . ولذا يقول هيجل : « ان المكان والزمان تحديدات فقيرة سطحية إلى أعلى درجة ؛ والأشياء بتحصيلها لهذه الشكول لا تستفيد إلا قليلاً جداً ، كما أنها لا تفقد بفقدانها إلا القليل جداً كذلك (١) » . ونراه يضيفهما إلى ميدان الظواهر ، ويحسبهما « من نتاج الخيال والتأمل (٢) » .

(١) هيجل : « مؤلفاته » ، ج : ٢ : ص ٣١٧ .

(٢) « مؤلفاته » : ج ١ ، ص ٦٧ .

وحينما يريد تحديدهما يقول إن كلا منهما «تخرُّجٌ مجرد (١)»، أو هما إمكانيتان «للتضاد المطلق» (٢)، وبعبارة أوضح نقول إن كلاهما كثرة وتعدد، أو خروج عن الذات، أو سيلان، أو كون بالغير باستمرار بمعنى أنه مركب من وحدات متتالية، هي النقطة بالنسبة إلى المكان، وهي الآن بالنسبة إلى الزمان؛ لكن هذه الوحدات على اتصال، لأن النقطة هنا ليس من شأنها أن تفصل في نسيج الواقع المتصل، ولذا يمكن أن يقال عن النقطة هنا إنها «حد» أو «موضع» كما قال كنت (٣)، أعني أنها ليست بذات مقدار، وليست صورة مكانية، مما من شأنه أن يهيء وجود انفصال، وإنما هي بعينها ما يليها وبذا لا يمكن أن تفصل عنها، وإنما تسيل الواحدة في الأخرى. والحال كذلك في وحدة الزمان، أعني الآن، فإن الآتات هي أيضاً مواضع حدود فحسب؛ وليس في الزمان أى انفصال، بل هو اتصال دائم مجرد ضروري (٤).

وإذا كان هذا حال كل من الزمان والمكان، فما صلتهما بالحركة؟ أشرنا منذ قليل إلى أن الحركة عند هيجل تدل خصوصاً على الحركة العقلية الخاصة بالديالكتيك. والواقع أن لدى هيجل نوعين من الحركة: الحركة المنطقية أو حركة الديالكتيك، والحركة الفزيائية أو الطبيعية. ولما كان مذهب هيجل كما رأينا مذهباً منطقياً من ألفه إلى يائه، فمن الطبيعي ألا يكون لهذا النوع الثاني من الحركة مضمون حقيقي في نظره، ولذا ينظر إليها أنها شيء مجرد غير حقيقي، لا يلبث أن «يرتفع» في داخل «التصور»، وبالتالي يفقد مركباته اللابسة ثوبى الزمان والمكان. وفي داخل نفسها، وبغض النظر

(١) abstrakte aussereinander. راجع: «دائرة العلوم الفلسفية»

٢ نشر ج. بولاند، ليدن سنة ١٩٠٦، § ٢٥٤ وما يليه.

(٢) «مؤلفاته»: ج ١، ص ٢٢٤.

(٣) «نقد العقد المجرد»؛ تأمل رقم ١٦٥.

(٤) نسبة إلى «الصورة» Ideel.

عن نسبتها إلى «التصور» أو «الروح» ، نراها لا يمكن أن تفصل عن الزمان والمكان معاً ، فهذان يفترضانها وهي بدورها تفترضهما معاً لا الواحد أو الآخر وحده ، وبغيرها يكونان شيئين مجردين . ولذا يدرس هيجل هذه الأفكار الثلاثة معاً في شيء من التفصيل ، وذلك في الجزء الثاني من «دائرة العلوم الفلسفية» ، الموسوم بعنوان : فلسفة الطبيعة ، في القسم الأول منها ، أعنى في الميكانيكا ، وفي الباب الأول من هذا القسم . ومع هذا فيجب ألا نفسر هذا التداخل بين الأفكار الثلاث ، وخصوصاً بين فكرتي الزمان والمكان ، كما حاول البعض (١) . فكما لاحظ فرنر جنت (٢) بحق ، لا يوجد أدنى صلة بين توحيد هيجل بين الزمان والمكان ، وبين ما يشابه هذا في نظرية النسبية أو عند منكوفسكى . وإنما الأصل في هذا التوحيد أن الزمان والمكان عند هيجل من نوع واحد ، إن لم يكونا في وجودهما شيئاً واحداً ، كما بين ذلك هيدجر (٣) في تحليله لفكرة الزمان عند هيجل .

فعند هيجل أن المكان يتكون من حقيقة الزمان ، حتى إننا لو حللنا فكرة المكان لانتبهنا إلى الكشف عن حقيقة الزمان . ولتحليل فكرة المكان نقول إن الفكرة الموجهة في تعريفه هي فكرة التخرج (٤) الذاتي ، أو فكرة الكثرة المجردة للنقط . فالمكان مكون من الهنا (٥) . «والهنا» في كثرتها هي ما يسمى باسم التخرج ، وهذه الكثرة ليست متميزة إلا في التجريد ، أما في الحقيقة الواقعية فإن المكان متصل ، ولا سبيل للتحدث عن انفصال بين أجزائه أو

(١) مثلاً ، ب. هيمن : «المذهب والمنهج في فلسفة هيجل» . سنة ١٩٢٧ ، ص ٥٤ وما يليها .

(٢) فرنر جنت : «فلسفة الزمان والمكان في القرن التاسع عشر» ، ص ١٨٣ ، بون سنة ١٩٣٠ .

(٣) « الوجود والزمان » : ص ٤٢٨ - ٤٣٣ .

(٤) Aussersichsein

(٥) الهنا بالفتح والتشديد تستعمل للمكان الحسى (كليات أبى البقاء) .

هناواته ؛ وهذا يضمنى على المكان طابع النقطة ، لأن النقطة هى ما لا يقبل الانقسام. فى الخارج الواقعى . أجل ، إننا نقسمه إلى نقط متميزة ، ولكن هذه التميزات هى بعينها من نوع الأشياء المتميزة ؛ ولذا لم يكن ثمت مجال للانفصال . ولكن مجرد تحدثنا عن نقط وكثرة ، يقتضى القول بالسلب أو النفى . ولهذا وعلى الرغم مما قلناه فإن النقطة ، بحسبانها تميز فى المكان شيئاً ، سلب للمكان ، ولكن بمعنى أن هذا السلب يبقى هو نفسه فى المكان ، ما دامت النقطة مكاناً هى الأخرى ، وليست شيئاً مختلفاً عن المكان ، لدرجة أنه من الممكن أن يقال إن المكان نقطة كبيرة كبراً لا متناهيًا . ونستطيع أن نصوغ هذا فى وصف أدق فنقول كما قال هيجل إن المكان هو النقطة ، أخرى من أن يكون النقطة . وهذه النقطة إذن سلب . وهنا يأتى الديالكتيك لكى يرفع هذا السلب . وفى هذا السلب المرفوع أو سلب السلب أو سلب النقطة تصبح النقطة لذاتها ، وبذا تخرج عما هى فيه فى سياق المكان ، فتصير مختلفة عن هذا وعن ذاك ، أى لا تكون بعدُ هذا ، ولم تصر بعدُ ذاك . وهذا معناه أيضاً أنها تتخذ صورة التوالى بدلا من التتالى (١) . والتوالى معناه الزمان فكأن رفع النقطة يؤذن بالخروج عن سكون المكان ، بأن «تتشدد» ضد بقية النقط . وهذا السلب للسلب ، بحسبانها (أى السلب الأخير) نقطية ، هو الزمان عند هيجل . وإذا كان لهذا كله معنى ، فلا يمكن أن يكون ، كما يقول هيدجر ، إلا هذا : وهو أن وضع النقطة نفسها لنفسها هو الآن الذى هو الهنا ، والآن الذى هو الهنا ، وهكذا على التوالى . وكل نقطة حين تصبح لذاتها تصبح الآن الهنا . « والنقطة إذن لها فى الزمان حقيقة » . فلما

(١) فى «رسالة الحدود» لابن سينا (طبع هندية ، مصر سنة ١٩٠٨)
تعريف للتتالى بأنه : « كون الأشياء التى لها وضع ليس بينها شىء آخر من جنسها »
وللتوالى بأنه : « هو كون شىء بعد شىء بالقياس إلى مبدأ محدود » وليس بينهما شىء مما بهما . ويمكن أن يستخلص من هذا أن الأول للمكان ، والثانى للزمان .

كان التفكير في النقطة أو المكان هو في الآن نفسه تفكيراً في الآن والتخرج بين الآتات ، كان المكان هو الزمان .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نحدد طبيعة الزمان . فهو مكون من آتات يرفع كل آن منها الآخر ، ولذا يقول عنه هيجل إنه الوجود الذي ليس بوجود بوصفه موجوداً ؛ وبوصفه غير موجود ، هو موجود ، أى التغشُّير المعائن . ومعناه بعبارة أوضح أنه انتقال من الوجود إلى اللاوجود أو من اللاوجود إلى الوجود ، بمعنى أن وجود الزمان هو الآن بحسبان أن كل آن ليس بعدُ الآن ، أو أن كل آن كان قبل غير حاضر بعد ، أى كان لا وجوداً.

وأبعاد الزمان ثلاثة : الحاضر والمستقبل والماضي . أما الحاضر فيقول عنه هيجل ما قاله عنه من قبل ليبنتس من أنه يحمل في طياته المستقبل ؛ كما ينعته أيضاً بأنه نتيجة الماضي ، وصادر عنه ، كما سيصدر عنه المستقبل أو الحاضر التالي . ولهذا يعد الحاضر أهم لحظات الزمان فيقول : « في وسع المرء أن يقول عن الزمان بالمعنى الإيجابي : إن الحاضر هو وحده الموجود ، أما قبل وبعد فغير موجودين ؛ ولكن الحاضر العيني هو نتيجة الماضي وحامل للمستقبل . والحاضر الحقيقي إذن هو ، بهذا ، الأبدية (١) » .

وكما لاحظ هيدجر (٢) بحق ، لا تخرج نظرية الزمان هذه عند هيجل عما هي عند أرسطو : فكلاهما يرى جوهر الزمان في الآن ، وكلاهما ينظر إلى الآن كحد ، ويفسر الآن على أنه النقطة ؛ وأرسطو يقول عن الآن إنه الشيء المعين أو هذا ، وهيجل ينعت الآن بأنه هذا المطلق ؛ أولهما يربط بين الزمان وبين الكرة ، والثاني يؤكد دائرية الزمان . وأرسطو بدوره لا يخرج بفكرته في الزمان عن فكرة الزمان العامة الشائعة . ومع هذا فإن

(١) « دائرة العلوم الفلسفية » ، ٢٥٩ إلحاق .

(٢) « الوجود والزمان » ، ص ٤٣٢ ، تعليق ٢ .

بينهما في هذه الناحية فارقاً كبيراً من حيث الروح العامة لمذهب كلٍّ . فذهب هيغل كما قلنا عتلى تصورى منطقى ، ولذا لا تلعب فيه الطبيعة ولا الحركة دوراً ظاهراً ، بينما مذهب أرسطو ممزوج بروح طبيعية واضحة ؛ والنتيجة لهذا أنه نظراً إلى ارتباط الزمان بالحركة والطبيعة على النحو الذى بيناه ، فإن الزمان يلعب فى مذهب أرسطو دوراً خطيراً ، ومن هنا كرس له نصيباً وافراً من البحث ، بينما لا تكاد أن تكون له أهمية ظاهرة عند هيغل ، ولذا كاد أن يهمله ، من ناحية الطبيعة .

أما من ناحية الروح ، فقد اضطر هيغل إلى أن يجعل للزمان شيئاً من اعتبار . « ذلك أن الصورة » أو الروح لكى تفض مضمونها على هيئة حضارة أو دين أو فن أو قانون لا بد لها أن تمر فى زمان . وسيرها فى هذا الزمان هو نوع من كفاح الروح ضد نفسها لتوكيد نفسها والعلاء بها فى سبيل التقدم المستمر الماضى قدماً نحو غاية التطور ، ألا وهو وصول الروح إلى تحصيل تصورها الخاص وامتلاكه ، أعنى إظهارها لكل ما تشتمل عليه من مضمون . وهذا السير لا يتم فى تقدمه إلا بالقضاء على هذا الآن ونفيه للوصول إلى آن جديد ينفى بدوره ، وهكذا باستمرار . فالروح فى تقدمها إذن سلب لسلب ، والسلب لسلب هو الزمان ، فالروح والزمان إذن من هذه الناحية متحدان ، والروح بجوهرها إذن فى الزمان . والروح والزمان معاً يكونان التاريخ العام . وما التاريخ بمعناه الأسمى إلا الروح وهى تعرض نفسها فى الزمان ، كما تعرض « الصورة » نفسها على هيئة الطبيعة فى المكان . والزمان بهذا المعنى ليس بعد ذلك الزمان الفزيائى الذى عرفناه من قبل على هيئة تخرج ذاتى وانفصال وفساد ، وإنما هذا الزمان الروحى ، إن صح هذا التعبير ، خصب غنى ، يشتمل فى داخله على كل التركيبات الروحية والتحقيقات الواقعية التى تمت فى الماضى والتى يعلى عليها فى الحاضر ثم المستقبل . وعلى مر الزمان تبلغ الروح كمال واقعيتها . وخلال هذا التطور كله تؤكد الصورة كل معناها وتحقق كل ما فى مضمونها ، وتمتلى شعوراً بذاتها ، وتصبح وجوداً

لما هو بالذات على هيئة وجود لذاته . ولكن هذا لا يتم إلا إذا نظر إليها ككل ، أغنى أن العصور المتطاولة المتوالية في التاريخ لا يمكن أحدها ولا بعضها ولا حتى أكثرها أن يمثل الحقيقة الكلية ، وإنما هذه توجد في حياة الروح منظوراً إليها في كليتها المطلقة .

فالروح تظهر بالضرورة في الزمان ، وتظهر فيه طالما لم تمتلك بعدُ تصوُّرها الخالص ، أى طالما لم تقبض على الزمان . فاذا ما امتلكت تصوُّرها ، قضت على طابع الزمانية فيها ، وصارت وجداناً مفهوماً وفاهماً معاً . ولذا فإن الزمان مصير الروح المفروض عليها ، طالما لم تكن بعد في كمال مع نفسها ، أى طالما كان مفروضاً عليها أن تكشف عما في باطنها ، وأن تمتلئ شعوراً بنفسها . والروح إذن لا بد لها أن تخرج عن ذاتها الباطنة وتفرغ نفسها في الزمان ، ولكنها إنما تفرغ نفسها بنفسها ، والسلب هنا سلب للذات . وفي هذا المعرض المتصل تبدو سلسلة مستمرة من الأشكال الروحية ، ورواق من الصور ، كل صورة منها مُنِحت كل ثروة الروح المطلقة ، وتسير ببطء ، لأن الذات يجب أن تنفذ وتمثل كل هذه الثروة الباطنة في جوهرها . « ولما كان تام هذا يتحقق بمعرفة الروح المطلقة لمهيتها ، وفي فهمها لجوهرها أكمل الفهم ، فإن هذه المعرفة معناها تمركزها بذاتها على ذاتها ونفوذها في باطن نفسها ، وهي حال ترك فيها الروح المطلقة وجودها الخارجى وراء ظهرها ، وتسلم تحققها إلى التذكر . . . فالهدف ، الذى هو المعرفة المطلقة أو الروح عارفة نفسها بوصفها الروح ، يجد طريقه في تذكر الأشكال الروحية كما هي في ذاتها ، وكما تحقق تنظيم مملكتها الروحية . والاحتفاظ بها ، منظوراً إليه من ناحية وجودها الحر على هيئة الإمكان ، هو التاريخ (١) » .

وعلى الآآن بعد هذا العرض لنظرية هيجل في الوجود المطلق أن نتأمل

(١) « ظاهريات الروح » : الفصل الأخير ، الصفحة الأخيرة (ص ٥٦٤

من نشرة لسون ، ج ٣ لىبتسج)

ما فيها بامعان ، لأنها نقطة البدء الضرورية لكل مذهب فى الوجود تلاها ، سواء كان يؤيدها ويتوسع فيها ، أو يرفضها ويقيم ما يضادها ، أو يعلو عليها . والنقط الرئيسية فيها تنحصر فيما يلى :

١- أن الوجود فى مُشاقّة مع نفسه ، ويحتوى فى داخله على عراك وتمزّق باطن ؛ ولكنه عراك ينتهى فى الخطوة التالية ولا يلبث أن يرفع ، ثم يعود من جديد ، وهكذا باستمرار ؛ ولكن النتيجة العامة هى التطور المتقدم للروح المطلقة على مدى الزمان إلى أن تبلغ فى النهاية تمام امتلاكها لتصورها ، وكمال شعورها بذاتها ؛

٢ - أن الشخصية بمعنى الذات المفردة القائمة بنفسها ليست بذات وجود حقيقى ، وإنما وجودها وجود عرضى ، ليس إلا وسيلة لكى تبلغ الروح المطلقة أو « الصورة » كمالها . وهى ليست عضواً حياً حقيقياً فى تطور هذه الروح ، بل أداة من أدوات هذا التطور ومُعبر عليه يمر فحسب . والحرية ليست بالمعنى الحقيقى لدينا ، ألا وهو الإمكانية المطلقة للذات المفردة لأن تقول نعم أو لا ؛ وإنما الحرية هى القدرة التى للروح المطلقة على خلق مظاهر تحقّقها ؛

٣ - أن الروح المطلقة تعرض نفسها فى الزمان كشيء تفرغ مضمونها فيه ، ولا تلبث حين يتم كمال شعورها بذاتها أن تنبذه كبذرة تنبذ القشرة بمجرد بدئها النمو . والزمان تبعاً لهذا شيء فضولى على الروح المطلقة أو غشاء تحل فيه دون أن يكون عنصراً جوهرياً فى تكوينها ، ودون أن يكون له أدنى أثر فى تكييف مضمونها وتحديد مجرى تطورها . ولذا يمكن أن يقال إنه عارض خارجى طارئ لا تحصل الروح بتحصيله شيئاً ذا قيمة لها ، كما أنها لا تخسر شيئاً إن فقدته ، والأحرى بها أن تفقده ، « فإن هدف الطبيعة هو أن تقتل نفسها بنفسها ، وأن تحطم قشرة المباشر المحسوس ، وأن تحرق نفسها

مثل الفونفس ، كى تخرج من هذا التخرج شابة على هيئة الروح (١) .
والتاريخية بوصفها تاريخية لا جوهر حقيقياً لها ، أعنى أن التاريخية المحددة بزمان
ومكان معينين ، والتي توجد فيها المسئولية الفردية الصادرة عن الحرية من
ناحية وعن الوضع الزمانى من ناحية أخرى ، ليس لها معنى فى هذه النظرة ،
لأن الأمر يتوقف كله على منطق التطور العقلى للروح المطلقة ، وهو منطق
يعلو على الزمان المحدد والمكان المعين ، ولا أهمية فيه للحظة التاريخية الراهنة
وإنما الأهمية كلها فى التاريخ العام والتطور الكلى ، منظوراً إليه لا من ناحية
التوالى الزمنى ، بل من ناحية الكلية والوحدة .

تلك هى المقالات الثلاث التى يتضمنها هذا المذهب . فلنأخذ فى امتحان
كل منها .

أما المقالة الأولى ، وهى أن الوجود فى مُشاقَّةٍ مع ذاته ، فصحيحة فى هذا
الجزء العام منها أو المبدأ الرئيسى الذى تقوم عليه . فهذا الوجود ممزق ، التناقض
جوهره ، والتغير قانونه الذى يجرى عليه فى تحققه . والتغير معناه المغايرة ،
والمغايرة أن يصير الشئ غير ذاته ، وهذه الغيرية معناها وجود التضاد فى
طبيعة الوجود . وكما يقول أرسطو إن كل تغير يجرى من ضد إلى ضد . فإذا
كان فى الوجود تغير ، ففيه بالضرورة تضاد ؛ وإذا كان التغير جوهر الوجود
كان التضاد من جوهر الوجود كذلك . وإلا قلنا بالوجود الساكن الذى قال
به الإيليون ، كما يقتضيه مذهبهم فى الوحدة المطلقة . ولكن هذا الوجود
السكن وهم . وليس يجدى هنا فى شئ أن نقول إن التغير هو الوهم ، وإنه
من شأن عالم الظواهر فحسب ، أما عالم الحقائق فعالم ثبات . لأن الحديث
هنا عن هذا الوجود المتحقق ، لا عن وجودٍ مفروض . وفضلاً عن هذا فإن
الوجود ، إن فهم على أن حقيقته الثبات ، فإننا لن ننتهى إلا إلى خواء أو
رتوب تام ، أو على الأقل يكون فى حالة ركود . أعنى أن الإمكانيات فيه

معطلة ، إن جاز لنا حينئذ أن نتحدث عن إمكان ، لأن الإمكان الحقيقي هو ذلك الذى فى مقابل الواقع أو المتحقق أو ما هو بالفعل ، وهما لفظان متضايقان ، فلا معنى إذن للإمكانية دون الواقعية . ولذا جعل أرسطو الفعل قبل القوة ، أو الواقع قبل الإمكان (١) . والواقع يقتضى التغير ، لأنه انتقال مستمر من الذات إلى الغير ، حتى لو كان هذا الغير نفسه فى باطن الذات ، على هيئة الكمون . فالوجود ، على هيئة الواقع ، يستلزم إذن التضاد عنصراً مكوناً لجوهره ، أو كعامل على الأقل فى مجرى تطوره . ومنطق الوجود يجب بالتالى أن يكون جارياً على هذا النحو ، أى على نحو دىالكينيكى . ولذا كان الديالكينيك ، بمعنى السياق المنطقى من الموضوع إلى نقيض الموضوع ، صحيحاً فى التعبير عن حقيقة الوجود . وهو وحده المنطق الوجودى ، لا ذلك المنطق القائم على أساس مبدأ عدم التناقض ، وهو المنطق الارسطالى . فان هذا المنطق منطق مجرد ، منطق فكرى مثالى ، أعنى كالرياضيات لا وجود له فى حقيقة الواقع ، وهيغل بانشائه لمنطق الديالكينيك قد اكتشف اكتشافاً لا يقل فى عظمته عن اكتشاف كنت لنقده .

ولكن آفة هذا الديالكينيك الهيكلية أنه لا يقف عند حد التعارض بين الموضوع ونقيض الموضوع ، بل يميل دائماً إلى رفع هذا التعارض عن طريق مركب الموضوع . وهذا الميل يسير فى خطوات : أولاً أنه يميز أولاً بين المتقابلات الكاذبة أو الزائفة ، وبين المتقابلات الصادقة أو الحققة . فالمتقابلات الكاذبة هى تلك التى لا يمكن أن تدرك عناصر مكونة للتصور على هيئة الكلى ، ولا على أنها تصور وشكول خاصة لهذا التصور ، وإنما هى حدود مصدرها خيالات التجريد ؛ وهى حدود تمزق الحقيقة الواقعية إلى ازدواج : مثل الظاهر والماهية ، الخارج والباطن ، العرض والجوهر ، الأثر والقوة ، المنتهى واللامتناهى ، الكثير والواحد ، المادة والروح وما إلى ذلك . ولو

(١) أرسطو : « ما بعد الطبيعة » م ١٢ ف ٦ ص ١٠٧١ ب س ٢٣ — ٣٠ .

كانت هذه المتقابلات متقابلات حقيقية ، إذن لأثارت مشكلة تركيب المتقابلات ؛ ولكنها ليست كذلك ، ولذا لا يعنى بها الديالكتيك الإيجابى ، بل الديالكتيك السلبي . وهذا الديالكتيك السلبي يقوم على أساس رفضها ، على أساس أنها حدود غير قابلة لأن تعقل . فيلاحظ أولاً أنه ليس من الممكن الأخذ بحدود طرف دون حدود الطرف الآخر ، فلا يصح مثلاً أن نأخذ حدود الظاهر والخارج والعرض والأثر والمتناهى والكثير والمادة ، كما يفعل المذهب المادى ، إذ لا تلبث حدود الطرف الآخر أن تثبت فى الحال ؛ كما لا يمكن أن نأخذ بهذه الحدود وحدها دون الأول كما يفعل المذهب الروحى . وذلك لأن كل زوج من هذه المتقابلات مرتبط كل حد فيه بالآخر كل الارتباط ، إلى حد أن كل زوج مكون فى الواقع من حدين متضايقين : فلا يفهم الظاهر إلا بفهم الماهية ، ولا يدرك المتناهى إلا بالنسبة إلى اللامتناهى . كذلك لا تُعقَل الروح إلا بالمادة ، ولا الواحد إلا بالكثير . وإنما الحقيقة إذن فى الحدين معاً ، لا فى الواحد دون الآخر ؛ ولكنها ليست فى الحدين معاً بمعنى مجموع الحدين ، فمجموع الحدين هو الآخر لا يكون الحقيقة ، وإنما هى فى « التصور » العيى المتقوم الذى يضم كلا الحدين فى وحدة واحدة يفنيان فيها ، وحدة هى مركب جديد كل الوحدة ، ومعنى طريف كل الطرافة بالنسبة إلى مجموع الحدين . وهذا يتم باعطاء معنى جديد خصب لأحد الحدين من شأنه أن يضم فى داخله الحد الآخر كذلك . فالجوهر مثلاً يصبح الذات ؛ والمطلق يتعين روحاً مطلقة أو « صورة » ؛ والروح ليست شيئاً وراء الجسم ، ولكنها هى أيضاً جسم ؛ والواحد ليس من وراء الكثير ، ولكنه أيضاً كثير فى نفس الآن . وبهذا نقضى على كلتا النزعتين : المادية والروحانية ، ونرتفع إلى نزعة هى مركب من الاثنين ، تقوم على فكرة « التصور » أو الروح المطلقة فى تعيينها ونحتق مضمونها .

والخطوة التالية إلى رفع التقابل تتم بواسطة الديالكتيك الإيجابى . فإذا كانت هناك متقابلات كاذبة ، فإن ثمت ، و بالأحرى ، تقابلاً واحداً هو الصادق وهو ذلك الموجود بين الوجود واللاوجود ، وعنه تنفرع بقية

المتقابلات . فهذا التقابل صادق لأنه لا سبيل إلى إنكار وجود الشر والباطل والقبيح واللامعقول والموت إلى جانب وجود مقابلاتها ألا وهى الخير والحق والجميل والمعقول والحياة .

غير أن هيجل لا يقف حتى عند هذه المتقابلات الصادقة كما ينعتها ، بل يستمر فى رفع التقابل ، فيخطو الخطوة الثالثة والأخيرة ، وهى أن يقضى على هذا التقابل الصادق نفسه . ذلك لأنه لا يستطيع أن يقيم جانب اللاوجود بإزاء جانب الوجود ؛ فيندفع ، وقد استهوته فكرة « الرفع » ، إلى إلغاء جانب اللاوجود لحساب جانب الوجود . فيقول : حقاً إن السلب ضرورى فى الوجود ، وهو مصدر الحركة فى السياق المنطقى الديالكتيكى ، بل روح الواقع . فالخلو من الباطل ليس فكراً وليس حقاً . وإنما هو خاو أيضاً من الفكر ، وبالتالي من الحق . والبراءة ليست خاصية الفعل وإنما عدم الفعل لأن الذى يفعل لا بد أن يخطئ ويقع فى الشر ؛ والسيادة الحققة ، والسعادة الإنسانية ، ليست هى النعيم العارى من الألم ، فهذا أقرب ما يكون إلى البساسة ؛ وتاريخ العالم يدلنا على أن هذا النعيم لا وجود له ، إذ حيث يحنى فيه النضال ، « يسدى صفحاته بيضاً » على حد تعبير هيجل . وهيجل ينظر إلى الوجود هذه النظرة الأسبانية إلى حد ما . ولكنه مع هذا لا ينتهى عند هذه النظرة ، وإنما يعود إلى التزعة المتفائلة ، فلا ينظر إلى هذه الأشياء المنتسبة إلى اللاوجود على أنها أشياء إيجابية لها من الحقيقة الوجودية بقدر ما للحدود المنتسبة إلى الوجود . بل يقول إن الواقع الحقيقى دائماً معقول ، ودائماً خير وحق وحياة ، أما اللامعقول والشر والباطل والموت فأشياء غير واقعية ولا حقيقية ، بل هى « سواب » كلها . إنها نفي للواقع والحقيقة ، إنها لا وجود بالمعنى الظاهر لهذا اللفظ ، أى خلو من الوجود . وروح هيجل العامة تنحو هذا النحو المتفائل . وإذا أمكن أن يقال مع الهيغيليين ، وعلى رأسهم كروتشه (١) ، إن هيجل

(١) كروتشه : « مقالة عن هيجل » (أو بعنوانها الأسبق : « ما هو حى وما هو ميت فى فلسفة هيجل ») ص ٤٠ - ٤١ . بارى ، سنة ١٩٢٧ . راجع هذا الفصل الثالث بأكمله ، ففيه عرض جيد لما بيناه هنا .

لم يكن متفائلاً ولا متشائماً ، لأنه كان عَبرَ هذا وذاك ، بحسبان أن التشاؤم نقي للحد الإيجابي في زوج التقابل ، وأن التفائل هو الآخر نقي للحد السلبي - هذا القول الذي يمكن أن يقال في معرض الدفاع فحسب ، لا يمكن أن يثبت إذا ما لا حظنا النزعة الموجهة والفكرة السائدة والروح العامة للمذهب هيكل كله ؛ فهو في هذا المذهب نزاع إلى التفاؤل ، بل وإلى التفاؤل الكامل ، وإن كان تفاؤلاً مؤجلاً إلى أن تنتهي الروح الكلية من إتمام شعورها بذاتها ومعرفتها لنفسها . وإذا كان كروتشه يبرر قوله بأن يتساءل : وأين هو الفيلسوف الذي كان متشائماً أو متفائلاً حتى النهاية ؟ فإن هذا الدفاع لا ينهض لنفي ما قلناه ، وهو أن الروح العامة في مذهب هيكل روح تفاؤل ، والمسألة هنا مسألة فكرة سائدة وميل غالب ، لا مسألة اتجاه خالص من كل ما ينفيه أو حتى يقلل منه . فإن طبيعة الوجود نفسها تقتضي هذه المزاوجة بين هاتين النزعتين المتعارضتين ، ولكن النسبة في الأخذ بالواحدة دون الأخرى تختلف بين الشخص الواحد والآخر ، وهيكل لم يستطع إلا أن يأخذ بجانب بنسبة أكبر مما فعله خاصاً بالجانب الآخر ، أى أنه لم يستطع أن يصل إلى مركب طريف يفنى فيه أحد الطرفين في الآخر فناء عضوياً حقيقياً .

والسر في اتجاه هيكل على هذا النحو هو سيادة فكرة «الرفع» في كل مذهبه ، حتى إنها لتعد اللحظة الرئيسية عنده في كل السير الديالكتيكي . ومن شأن هذه الفكرة أن تميل به دائماً إلى رفع التقابل ، ورفع التقابل يتم دائماً على حساب الحد السلبي ، حد اللاوجود ؛ ولا يجد هيكل في نفسه قدرة على الصبر حتى نهاية الشوط الديالكتيكي ، أو بالأحرى لانهايته ، لذا ينزع دائماً إلى تفضيل جانب الوجود ، وإزالة جانب اللاوجود قدر المستطاع . ولكن في هذا خيانة واضحة لمقتضى الديالكتيك . وهذا ما أخذه عليه أولاً كيركجورد .

فقد أشاد كيركجورد بالديالكتيك إشادة كبرى . إذ رأى أن الوجود

بطبعه دياالكتيك مستمر ، أغنى أنه انتقال من الذات إلى الآخر ، واتحاد وانفصال بين المنتهى واللامتناهى : واتصال بينهما وتماسُّ هو في الآن نفسه احتكاك ومصادمة وصراع . ورأى أن المقولات الرئيسة التي يقول بها : كالبء ، والقلق ، والموت ، والآن ، والوثبة كلها مقولات دياالكتيكية في جوهرها ، بمعنى أنها تتضمن تعارضاً باطناً في داخلها : فالبدء يتضمن النهاية ، والقلق ينطوي على الطمأنينة ، والموت يستلزم الحياة ، والآن نوع من الأبدية ، والوثبة هي في آن واحد الهاوية والفعل الذي يجتازها . ثم إن للدياالكتيك دوراً مهماً هو إثارة القلق والجزع في الروح ، مما يُرْهفها ويعلو بها .

ولكنه لا يفهمه على النحو الذي فهمه هيجل ، بل على نحو آخر فيه نقد شديد للدياالكتيك الهيجلي . فيقول أولاً إن دياالكتيك هيجل دياالكتيك مطرد رتيب متجانس ؛ بينما الدياالكتيك الحقيقي ، دياالكتيك الوجود الحى القلق الذي يتعمق نفسه ويفُضُّ كَلَّ ما فيها ، هو دياالكتيك متقطع غير متجانس ، لأنه مليء بالوثبات ، مكون من لحظات منفصلة متغايرة من حيث الكيف ، كله عزائم ومفاجآت ؛ وليس به انتقال طبيعي مستمر بين درجاته ، بل كل درجة يحصلها المرء إنما يحصلها بنوع من الوثبة والطفرة فيه طابع السر . وفكرة الوثبة هذه هي الفكرة السائدة في كل سياق دياالكتيكي عند كيركجورد ، وفيها تأكيد للانفصال وللامعقول ، أى ما يصاد مذهب هيجل تمام التضاد ، لأن هذا المذهب كما رأينا يقوم كله على أساس أن كل ما هو واقعي حقيقي ، هو معقول ؛ وكل ما هو معقول هو واقعي حقيقي ؛ والتطور عنده متصل . أما كيركجورد فيقول بفكرة الوثبة ، لعدة أسباب لخصها فال (١) بوضوح فقال : إن نظرية الوثبة تجدد مجال تطبيقها : أولاً : في نقد الهيجلية من حيث أن المذهب الهيجلي يريد أن يبدأ دون افتراضات سابقة . ولكن كيركجورد يعترض على هذا قائلاً إنه ليس

(١) جان فال : « دراسات كيركجوردية » ، ص ١٤٥ ، تعليق ١ ، باريس ، سنة ١٩٣٨ . وراجع هذا الفصل بأكمله ، فهو من خير ما كتب في بابه .

من الممكن البدء دون افتراضات إلا إذا قمنا بوثبة ، وفضلاً عن هذا فإنه لا يمكن البدء إطلاقاً دون وثبة . وثانياً : فى نظرية التطور التاريخى ، فهناك وثبة من الإمكان إلى الواقع . وثالثاً : فى نظرية مدارج الحياة ، فإن مدارج الحياة (وهى المدرج الحسى ، والمدرج الأخلاقى ، والمدرج الدينى) لا يفضى الواحد منها إلى الآخر على نحو طبيعى متصل ، بل بنوع من الطفرة من الواحد إلى الآخر . ورابعاً : فى نظرية الخطيئة . وخلاصة هذا كله أن الديالكتيك عند هيغل يسير متصلاً كميّاً ، بينما يسير عند كيركجورد منفصلاً كيفيّاً على هيئة وثبات كيفية .

ثم ينقده خصوصاً فى فكرة « الرفع » ، التى هى فى الواقع المنفذ الواهى فى ديالكتيك هيغل . فالوجود فى حالة توتر مستمر ، ولا سبيل مطلقاً إلى رفع هذا التوتر ، لأنه من جوهر الوجود . والمتناقضات بالنسبة إلى أى موجود لا يمكن أن تنحل ، لأنه لا يستطيع أن يختار الواحد وينبذ الآخر ، بل لا بد له أن يلقى بنفسه فى معترك هذا التناقض ويظل فى حالة توتر مستمر بين الأطراف المتقابلة . وفى هذا التوتر عينه يقوم وجوده . ولو كان هيغل منطقياً مع مذهبه فى التقابل الوجودى لما قال بفكرة الرفع .

ويلاحظ ثالثاً أن الديالكتيك عند هيغل تتكون حدوده من تصورات مجردة ، وبالتالي غير ذاتية ، ولا صلة لها بالشخصية . ومثل هذا الديالكتيك المجرد لا يشارك فى عاطفية الوجود الحى ولا فى ذاتية الكائن المفرد ، ولذا لا ينطبق على الحياة الوجودية بالمعنى الذى يستعمل فلاسفة الوجود والفلاسفة الوجوديون هذا اللفظ . ومن هنا يريد كيركجورد أن يدخل فى هذا التساسل التصورى عند هيغل عنصراً وجدانياً عاطفياً ، خصوصاً أن أهمية الديالكتيك بالنسبة إلى الذات هو فى الارتفاع بتوتها وانفعالها ، وبالتالي شعورها الحى بالوجود ، إلى الدرجة العليا . وهذا واضح إذا نظرنا إلى طبيعة الوجود كما حددناها . فإنه إذا كان الوجود توتراً ، فليس فى وسع الموجود أن يشعر

بالوجود ، أعنى بالتوتر ، دون انفعال وعاطفة ؛ ولذا فإن من يتأمل في الوجود يفكر بأفكار مشبوبة ملتبة ، وعلى هذا فإن عنصر الانفعال والعاطفة لا بد أن يدخل في الديالكتيك الحى الوجودى ، لا الديالكتيك المجرد التصورى الذى نراه عند هيجل .

ذلك نقد كيركجورد للديالكتيك كما يفهمه هيجل . وهو نقد لو تأملناه لوجدناه مقوداً كله بفكرة رئيسية سائدة ، هى فكرة الوجودية . فإن هذه الفكرة تقتضى الذاتية ، والذاتية تقتضى التوتر ، والتوتر يقوم على التفرد والكيفية ، وهذه النواحي الثلاث هى التى منها ينقد كيركجورد الديالكتيك عند هيجل .

وهذا بعينه يفضى بنا إلى نقد المقالة الثانية من مقالات هيجل الثلاث التى أوردناها آنفاً . فإن مصدر الخطأ فيها هو بعينه مصدر الخطأ فى نظرية الديالكتيك لديه ، أعنى فكرة الوجودية . وسواء أكان الخطأ فى المقالة الأولى هو العلة فى ذلك الموجود بالثانية ، أم كان الأمر بالعكس ، فإن النتيجة واحدة وهى : أن ها هنا خطأ فى فهم حقيقة الوجود . ونحن نميل إلى تفضيل الطرف الثانى لهذا الانفصال ، فنقول إن الخطأ فى نظرية هيجل فى الفرد والشخصية هو الأصل فى خطأه فى نظرية الديالكتيك ، لأن الديالكتيك تعبير عن الوجود ، وليس فرضاً يفرض عليه ؛ فالنزعة إلى القول بالكلى ، والكلى العينى المتقوم بوجه أدق ، هو الذى دفع بهيجل إلى سلب الديالكتيك طابع التوتر المستمر والتقابل الذى لا ينحل والتعارض الذى لا يرفع . وأياً ما كان الأمر ، فنظرية الشخصية عند هيجل تقوم على أساس غير صحيح من الناحية الوجودية .

ذلك أن الوجودية (١) الحقيقية ليست تلك التى يفهمها هيجل ، فإن

(١) تستعمل هذه الكلمة فيما يقابل كلمة Existence أو Existenz

وذلك للتمييز بينها وبين كلمة « وجود » العامة « Etre ، Sein » ونقصد بها ما يقصده منها الفلاسفة الوجوديون وخصوصاً كيركجورد : أعنى الشعور بالوجود شعوراً حياً وتحقيق ما فيه .

هذا لا يميز ، أو لا يكاد يميز ، بين الوجودية وبين الفكر ، بل يجعلهما شيئاً واحداً ، شأنه في هذا شأن المثالية الألمانية بوجه عام ، خصوصاً عند فشته . وهذا إنما يتم على حساب الوجود لصالح الفكر ، مما يسلب الوجود تقومه وتحققه الباطن ، ويخلع عليه طابعاً من التجريد ، هذا الطابع الخاص بالفكر . وفي هذا نبذ للوجود وتشبث بالمجرد . وإذا كان هيجل ، والحق يقال ، قد حاول أن يظلم من حدة هذا الإفراط في إفناء الوجود في الفكر ، مما نجد نموذجاً الأعلى عند فشته ، ومال عن طريق فكرة التقوم بالنسبة إلى الكلي إلى أن يضني على الفكر شيئاً من طابع الوجود ؛ - فانه لم يسر في هذه المحاولة إلى نتيجة واضحة فيما يتصل بهذا التوكيد لمعنى الوجود إلى جانب معنى الفكر . ولذا بقي مذهبه في مجموعه مذهباً عقلياً ، الأولوية والأولوية فيه للفكر على الوجود ، ولم يختلف بهذا كثيراً عن مثالية فشته . وهذا أيضاً ما أخذه عليه شلنج ، وإن كان هو الآخر سائراً في نفس الاتجاه إلى حد بعيد لا يميزه من هيجل ولا من فشته كثيراً ؛ فهو يقول : - إن التصور المجرد الخالي ، وهو الذي على نحوه ينظر هيجل إلى الوجود ، ليست به حاجة إلى أن يمتلئ ، لهذا السبب عينه وهو أنه خال . فليس التصور هو الذي يملأ نفسه ، وإنما الفكرة ، أعني أنا ، أنا المتفلسف الذي يمكنني أن أشعر بالحاجة إلى السير من الخالي إلى المملوء (١) . ومعنى هذا أن الشخص المفكر ، بوصفه كائناً موجوداً ، ذو نصيب في هذا الفكر . والوجود الذاتي للفرد العازف إذن لا يفصل عن فكره .

والعلة في أن الفكر يقضى على الوجود هو أن الوجود الحى ، أغنى المشعور به ، نسيج من الأضداد والمتقابلات ، وإذا كان كذلك فان الشعور به لا يتم إلا بمعاناة ما فيه من توتر عن طريق تجربة حية مباشرة ، أى دون أدنى

(١) شلنج : «مجموع مؤلفاته» ج ١٠ ، ص ١٢٦ ، اشتوتجرت وأوجسبرج ،

توسط . ولكن الفكر توسط ، لأنه صورة بين العارف وبين موضوع المعرفة ، وليس معاناة مباشرة ولا معاينة حية . ثم إن الفكر أو العلم يقوم على السكلى ، بينا الوجود وجود فردى شخصى جزئى ؛ ولذا اتسم الفكر بطابع العموم ، واتسم الوجود بطابع التفرد أو الفردانية ، وكان المثل الأعلى للأول الموضوعية ، بينا الذاتية أو الشخصية هى القيمة العليا للوجود الحى المشعور به . والنتيجة لهذا كله أن الفكر مضاد للوجود .

وهنا كانت الثورة الهائلة التى أحدثها أو أنذر بها كيركجورد . فبعد أن كان الفكر هو الذى يضع الوجود ، كما عبر عن ذلك ديكارت فى مقالته المشهورة : أنا أفكر ، فأنا إذن موجود ؛ صار الفكر مضاداً للوجود . وتبعاً لهذا ، فانه كلما زاد الفكر قل الوجود ، وكلما زاد الوجود قل الفكر . ونقصد هنا الفكر بطريقة موضوعية لا طريقة ذاتية ؛ فان هذه من شأنها ، على العكس من ذلك ، أن تزيد فى الشعور بالوجود ، وبالتالى فى الوجود . وإذا نحن بدأنا من الفكر كى نصل إلى الوجود ، لم نصل إلى شيء ، كما برهن على ذلك كنت فى نقده للحجة الوجودية الخاصة بإثبات وجود الله ابتداء من الفكر . ولكننا نستطيع ، على العكس من ذلك ، أن نبلغ الفكر ، إذا ما ابتدأنا من الوجود . وبهذا يكون فى وسعنا أن نحل المشكلة الكبرى التى تحطمت عليها رؤوس الفلاسفة السابقين جميعاً أعنى مشكلة الانتقال من الفكر إلى الوجود . فهو لاء لم يستطيعوا حل المشكلة إلا بالفرار منها ، بأن جعلوا الفكر هو الخالق للوجود كما ادعت المثالية الألمانية ، أو لجأوا إلى سلطة عليا خارجية تضمن لهم هذا الانتقال ، هى الله ؛ وهذا أو ذاك لا يحل المشكلة فى شيء . ولهذا فان الوضع الصحيح لهذه المشكلة هى أن نبدأ بالوجود لكى نصل منه إلى الفكر * كشيء من بين عدة أشياء يتصف بها الشخص الوجودى ، أو الوجود الحى .

والآن فما معنى الوجود ؟

هنا يجب أن نعود إلى نقطة البدء في هذا الفصل ، أى أن نعود إلى تقسيم الوجود إلى نوعين : وجود عام أو مطلق ووجود معين . أما الوجود العام فقد عرفنا نظريته ، خصوصاً عند هيغل ، وانهينا إلى أن هذا الوجود العام ليس وجوداً حقيقياً ، لأنه : إما وجود محددٌ صُرفَ فيه النظر عن كل تعين ولم نصل إليه في الواقع إلا بالتجريد من الواقع ، وإما وجود كلي على هيئة الروح المطلقة أو « الصورة » أو « التصور » . وهذا الوجود ، وإن كان أقرب إلى الواقع من الأول ، وأكثر ميلاً إلى العينية والتقوم ، فانه هو الآخر نوع من التجريد ، إذ فيه يفتى الفرد أو الشخصية في كلي غامض لا نستطيع أن نحده ونعيّنه إلا بواسطة الفرد ، أى أننا سنضطر إلى العود إلى الفرد في نهاية الأمر . كما أن ما تضمنه من معان هي من خصائص الوجود الحقيقي ، قد فهم على نحو يسلبه هذا الطابع ، خصوصاً معنى الحرية ومعنى الانشقاق والتوتر في داخل الوجود . فكأن فكرة السكلي المتقوم عند هيغل لا تزال بعيدة عن حل المشكلة ، وإن سارت في طريق هذا الحل خطوة أو خطوات .

وإنما يتم الحل الحقيقي بنقد فكرة السكلي ، والقول بالجزئى أو الفرد . فالوجودية معناها الفردية ؛ والفردية معناها الذاتية ؛ والذاتية معناها الحرية ؛ والحرية معناها وجود الإمكانية .

ولبيان هذا نقول إن الوجود المعين ينقسم إلى ثلاثة أقسام : وجود الموضوع ، ووجود الذات ، والوجود في ذاته . أما وجود الموضوع فنقصد به وجود الموضوعات الخارجية عن الذات العارفة أى وجود الأشياء في الزمان والمكان ، سواء أكانت هذه الأشياء روحية أم مادية ، واقعية محسوسة أم مثالية ذهنية . والخاصية الرئيسية لهذه الأشياء ولهذا النوع من الوجود أنه وجود أدوات ، أى أشياء يحيل بعضها إلى بعض ويستخدم بعضها لبعض ؛ ثم إنه وجود ليس يعرف ذاته . وعلى العكس من ذلك نجد الوجود الثانى ، أعنى وجود الذات

أو الأنا : فإن الأصل فيه أنه يعرف ذاته ، وقيمته الكبرى في هذه المعرفة الذاتية الباطنة ، التي يكون فيها الأنا في علاقة ونسبة مع نفسه ، وهذا يميزه أيضاً من الخاصية الأولى لوجود الموضوع ، فإن الإحالة في حالة هذا الوجود من موضوع إلى موضوع آخر غير نفسه ، بينا الإحالة في حالة وجود الذات إلى نفسها ، وهي إحالة لا تتسم بسمّة الأداة كما في الموضوعات ، بل بسمّة التوتّر الحى والكلية الخصبية التي تحاول أن تفض مضمونها بواسطة الايغال المستمر في الاستبطان الذاتي . ولا يجوز أن يقال هنا : إننى في حالة الاستبطان أو المعرفة الذاتية أجعل من ذاتى موضوعاً ؛ صحيح أنها موضوع لذاتى أيضاً ، ولكنه موضوع على كل حال . نقول إن هذا القول غير جائز ، لأننى في هذه الحالة لا أكون ذاتى بالمعنى الوجودى ، وإنما أكون موضوعاً للمعرفة ، لا للوجود ، لا يكاد أن يفرق فى شيء عن أى موضوع آخر . وفى هذا سقوط للذات فى الواقع ، كما أشرنا إلى هذا من قبل ، لأن فيه نقصاً للوجودية بسبب هذا التوسط الصادر عن العلم والفكر . والنتيجة لهذا إذن أن وجود الذات وجود يمتاز بأنه وجود شاعر بوجوده ، بينا وجود الموضوع وجود يحيل إلى وجود غيره ، دون أن يحيل إلى وجود نفسه .

ونحن سمينا الوجود الأول وجود موضوع لأنه وجود بالنسبة إلى ذات ؛ أما إذا صرفنا النظر عن هذه النسبة ، فإن هذا الوجود يسمى الوجود فى ذاته . وهذا الوجود فى ذاته ، أو ما يسمى أحياناً باسم الشيء فى ذاته خصوصاً كما يفهمه كنت ، لا يمكن معرفته كما هو فى ذاته ؛ وبما هو فى ذاته ؛ هو س مجهولة ، افترضها كنت افراضاً لا يبرزه حتى منطق مذهبه (١) . ولذا نبذها حتى أتباعه أنفسهم ؛ وأحسن ما يمكن أن يقال عنها إنها فرض محدد قصد به إلى وقف المعرفة الإنسانية عند جد معلوم ، ليس عليها أن تتجاوزه . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن هذه الفكرة وما يناظرها

(١) راجع كتابنا : « شوبنهاور » ، ص ٦٣ ، ص ٧٢ . القاهرة ، سنة ١٩٤٢ .

من وجود ينتسبان بالأحرى إلى نظرية المعرفة ، لا إلى نظرية الوجود ، وهذا يكفيننا مؤونة البحث في قيمتها هنا بالتفصيل ، فلندعها ونظرية المعرفة تفعل بها ماتشاء.

بقيت بعد هذا فكرتا وجود الموضوع ووجود الذات . فهل نرد الواحد إلى الآخر كما تفعل المثالية برد الموضوع إلى الذات ، أو المادية بردها الذات إلى الموضوع ؟ كلا ، ليس لنا أن نفعل هذا أو ذاك . ذلك لأننا إذا رددنا الواحد إلى الآخر ، لم نستطع أن نفهم الواحد ولا الآخر . فوجود الذات لا يمكن أن يفهم مستقلا عن عالم من الموضوعات فيه تحقق الذات إمكانياتها عن طريق الفعل وممارسة الأدوات ، بل لا بد لها أن تظهر في عالم تبذل فيه حريتها وتنتقل فيه ماهيتها من الإمكان إلى الواقع . أجل ! إن هذا سيؤدي إلى سقوطها ، ولكنه سقوط ضروري ليس فيه معنى القدح ، أو على كل حال لا بد أن يكون ، وإلا بقيت إمكانية معلقة على هيئة وجودية ممكنة . والإمكانية المعلقة لا معنى لها إذا ظلت على هذا النحو من التعاق دون أن يكون ثمت تحقق أو ابتداء تحقق ، كما أشرنا إلى هذا من قبل . وما دام التحقق لا يتم إلا في العالم ، عالم الموضوعات ، فإن الذات لا بد أن توجد في العالم . فالوجود — في — العالم إذن صفة ضرورية لا بد أن يتصف بها الوجود الممكن ، أو الماهية الذاتية ، كما بين لنا ذلك هيدجر . وبالمثل لا يمكن أن نرد وجود الذات إلى وجود الموضوع ونشتق ذاك من هذا ، لأن في هذا قضاء على الذاتية ، إذ متصبح الذات موضوعاً من جملة الموضوعات في العالم ، وفي هذا إلغاء لجوهرها ، أى إلغاء لها . ولك أن تسأل بعد هذا : ولماذا لا نعدّها موضوعاً من الموضوعات في العالم ؟ أو ليست الذات الواحدة في مقابل ذوات أخرى لا تقل عنها ؟ أو لسنا نضع هذه الذات ، لا كذات كلية واحدة ، بل كذوات عدة ، وإلا وقعنا فيما أردنا تجنبه ، أعنى الكلي المطلق عند هيجل ؟

والجواب عن هذه الأسئلة يستدعى البحث في معنى الذات التي نقصدها هنا .

أما الذات فهي الأنا المريد : فالشعور بالذات يتم في هذا القول : أنا أريد . ولكي يجد المرء ذاته ، فعليه أن ينشدها في فعل الإرادة ، لا في الفكر بوصفه فكراً ، أعني الفكر حالة لاعلمية . ومن هنا كان الخطأ في مقالة ديكرت ، كما أشرنا إلى هذا من قبل . فإن الفكر فكراً لا يمكن مطلقاً أن يؤدي إلى الوجود ، وبالتالي إلى إثبات وجود ذات ، اللهم إلا إذا فهمنا الفكر هنا بمعنى فعل الفكر . فهذا وحده يمكن إنقاذ مقالة ديكرت . ولكنه إنقاذ لا يمكن أن يفيد في شيء ، أعني ديكرت ، لأننا سنكون هنا في الواقع بازاء مصادرة على المطلوب الأول ، أو على الأقل بازاء تحصيل حاصل . لأن معنى هذه المقالة سيكون في هذه الحالة على هذا النحو : أنا ، أنا الذات المفكرة ، موجود . ولن نكون حينئذ بازاء انتقال من الفكر إلى الوجود ، بل انتقال من الذات إلى الوجود ، أو — والمعنى واحد — من الذات إلى الذات ، أو من الوجود إلى الوجود ، أي أننا هنا بازاء تحصيل حاصل . فكان ديكرت إذن بهذه المقالة التي طنطن بها حتى أصم الآذان لم يقل شيئاً . ولذا نجد بعضاً من أنصار ديكرت يحاول أن يصوغها في هذه العبارة : أنا ، أنا المفكر ، فأنا إذن موجود . ولكن هذا خروج عما قصد إليه ديكرت ، ألا وهو أن ينتقل من الفكر إلى الوجود ، وقول بما نذهب إليه هنا وهو أن الشعور بالذات يأتي بواسطة الإرادة أو الفعل ، لأن الأمر سيرتد حينئذ إلى فعل الفكر بوصفه فعلاً إرادياً ، بعد أن كان يقصد به الفكر كحالة . ول هؤلاء الأنصار أن يصوغوا قول ديكرت في الصيغة التي تسهويهم ، ولكن بشرط ألا يخرجوا بها عن المعنى الذي رمى إليه . وهم هنا قد جاءوا بعكس ما قال ، فان شاءوا أن يصوغوها على هذا النحو فلهم ما يشاءون ، لكن بشرط ألا يزعموا أن هذا هو مذهب ديكرت .

ولذا كان مين دى بيران مصيباً كل الإصابة حين نقد مقالة ديكرت على أساس فكرة الإرادة . فاستبدل بهذه المقالة مقالة تضادها ، هي : « أنا أريد ، أنا أفعل ، فأنا إذن موجود » (١) . وقال : « إذا كان ديكرت قد اعتقد أنه وضع المبدأ لكل علم ، والحقيقة الأولى البينة بنفسها ، بأن قال : « أنا أفكر ، فأنا إذن شيء أوجوهر يفكر » — فإننا نقول خيراً من هذا . وبطريقة حاسمة ، معتمدين على بينة الحس الباطن التي لا تقبل الاتهام : أنا أفعل ، وأريد ، أو أفكر في ذاتي في الفعل ، إذن أنا علة ، إذن أنا موجود ، أو أوجد حقاً على صورة علة أو قوة » (٢) . ثم يربط الإرادة بالحرية . لأنه حيث لا توجد حرية ، فلا إرادة ولا فعل ؛ فإذا قلنا بالإرادة ، فلا بد أن نقول بالحرية . ولا معنى بعد هذا لوضع الحرية موضع التساؤل والإشكال : « إن وضع الحرية موضع الإشكال والمسألة معناه وضع الشعور بالوجود . أو بالأنا ، وهما لا يفرقان عنها في شيء إطلاقاً ، موضع الإشكال كذلك . وكل سؤال عن هذه الواقعة الأولية يصير عبثاً ، لهذا عينه : وهو أن نجعل منها مسألة ومشكلة . إن الحرية ، أو فكرة الحرية ، إذا أخذت كما هي في ينبوعها الحقيقي ، ليست شيئاً آخر غير الشعور نفسه بفعلنا أو بقدرتنا على الفعل وعلى خلو المجهود المكوّن للأنا » (٣) . وعلى هذا فالشعور بالذات لا يتم ، في نظر مين دى بيران ، إلا بممارسة النفس لقوتها الخاصة ، ممارسة حرة خالصة من كل قيد من قيود الضرورة أو المصير أو أية قوة خارجية من قوى الطبيعة .

فالشعور بالذات هو الشعور بالأنا المرید . ولما كانت الإرادة تقتضى الحرية ولا تقوم إلا بها ، فالشعور بالذات يقتضى الشعور بالحرية . ومن هنا فإن الذات والإرادة والحرية معان متشابكة يؤيد بعضها بعضاً . إن لم يتم

(١) مؤلفات « مين دى بيران » ، نشرة كوزان ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

(٢) « مؤلفات مين دى بيران غير المنشورة » ، نشرها ارنست نافي ، ج ٣ ،

ص ٤٠٩ — ص ٤١٠ . (٣) المرجع نفسه : ج ١ ، ص ٢٨٤ .

مقامه . ولهذا فإن الشعور بالذات يزداد بمقدار ما يزداد الشعور بالحرية ، وبالتالي بالمسؤولية . والذات الحققة ، الذات البكر التي تستمد وجودها من ينبوع الصافي للوجود الحقيقي ، هي الذات الحرة إلى أقصى درجات الحرية ، الحاملة لمسئوليتها بكل ما تتضمنه من خطر أو قلق أو تضحية ؛ والحرية إذن هي رمز الألوهية في الإنسان ، والمعنى الأعلى لكل وجود إنسانى .

ولكن الحرية تقتضى الإمكانية ، لأن الحرية تتضمن الاختيار ، وكل اختيار هو اختيار بين ممكنات . فإذا كان جوهر الذات هو الحرية ، فهايتها تقوم إذن في الإمكانية . ولكن الإمكانية هنا ليست إمكانية مطلقة بمعنى أنها خالصة من كل تحقق ، بل لا بد لها أن تتحقق ، وإلا لما كانت خليفة باسم الإمكانية ، كما قلنا ذلك من قبل مراراً . ومعنى تحققها أن تختار من بين الممكنات ، حتى إذا ما تم الاختيار ، انتقلت الذات من حالة الحرية إلى حالة الضرورة . ولهذا يقول كيركجورد : « إن الحرية دياكتيك لمقولتين : هما الإمكان والضرورة » (١) . والضرورة هنا هي التحقق للإمكانية على هيئة : وجود - في - العالم . ومن هذه الناحية إذن نثبت أيضاً ما قلناه من قبل من أن الذات لا بد أن توجد بين موضوعات ، على صورة : وجود - في - العالم .

نحن إذن بازاء نوعين من الذات ، أو بالأحرى من وجود الذات : ذات مريدة حرة لا تحتوى غير إمكانيات لم تتحقق بعد ، وذات قد اختارت فتحقق بعض إمكانياتها وهي في طريقها إلى تحقيق الكل ، وهذا التحقق يتم في وسط أشياء . ووجود الذات على النحو الأول هو ما يسمى باسم الوجود

(١) كيركجورد : « المرض حتى الموت » ، الترجمة الفرنسية لكونود فرلوف وجان جاتو (بعنوان : « مقالة في اليأس ») ، ص ٨٧ ، باريس سنة ١٩٣٩ .

الذاتي الممكن ، ولما كانت هذه الإمكانيات جوهر الذات وماهيتها ، فيمكن أن تسمى باسم الوجود الماهوى (١) . فالوجود الماهوى هو الوجود الذاتي على صورة إمكانيات ذاتية لم تتحقق كلها بعد ، أو لم يتحقق منها شيء . وهو وجود يمتاز خصوصاً بالحرية المطلقة ، الحرية التي تريد اللامتناهى على نحو لا نهائى ، على حشد تعبير كيركجورد الجميل . والصلة فيه ليست صلة بين ذات وذوات أخرى ، أو بين ذات وأشياء فى العالم وإنما هى صلة بين الذات وبين نفسها ، ومن هنا لا يمكن أن تكون موضوعاً . أما فى حالة وجود الموضوع ، فإن الصلة هى بين الشيء أو الذات وبين شيء أو ذوات أخرى .

وفكرة الصلة هنا أو الرابطة هى الفكرة الرئيسية المميزة فى هذا التقسيم لأنواع الوجود ، وعلى أساسها إذن نستطيع أن نقسم الوجود كما فعل يسبرز (٢) إلى ثلاثة أقسام ، ونقصد بالوجود هنا وجود الذات : وجود الذات على هيئة الآنية التجريبية ، ووجود الذات كشعور بمعنى عام ، ووجود الذات كوجود ماهوى . أما الوجود الأول فهو وجود فى العالم بين أشياء على هيئة هذا الجسم ، أو هذا الفرد ، مع شعور غير محدد بذاتى فى مرآة قيمتى فى نظير البيئة المحيطة . ولكنى حين أنظر إلى نفسى ذاتاً فى مقابل ، أو إلى جوار ، ذوات أخرى شاعرة بنفسها كشعور ذاتى بنفسها ، إلى درجة أن الواحدة تقوم مقام الأخرى ، لكن لا بمعنى أن كل ذات هى بعينها الأخرى ، لكن بمعنى الذاتية على وجه الإطلاق — فإن وجود الذات هنا هو الوجود كشعور بمعنى عام ، أو هو الذاتية إطلاقاً . وكل شعور يكون فى هذه الحالة مشاركاً فى هذا الشعور المطلق ، بالقدر الذى يكون به مدركاً من الموضوعات الخارجية ما يدركه كل شعور آخر لذات أخرى .

(١) Existenz بالمعنى الذى لهذا اللفظ فى فلسفة الوجود عند هيدجرويسبرز.

(٢) كارل يسبرز: « فلسفة » ج ١ ، ص ١٣ - ١٥ ، برلين ١٩٣٢

والصلة هنا إذن صلة بين ذات وذوات أخرى ، بينما كانت في حالة الوجود الأول صلة بين ذات وموضوع في الواقع التجريبي . ولكن حينما تصبح الصلة بين الذات وبين نفسها ، تكون في حالة الوجود الماهوي . وبذا نستطيع الإجابة عن الأسئلة التي وضعناها من قبل ، فنقول : إننا لانستطيع أن نعدّ الذات موضوعاً من الموضوعات في العالم إلا بالمعنى الأول للوجود الذاتي . وعن السؤال الثاني نستطيع أن نجيب قائلين : أجل ، إن الذات الواحدة في مقابل ذوات أخرى ، ولكن هذا ليس الوجود الحقيقي للذات الحقيقية ؛ وإنما الوجود الحقيقي هو الوجود الماهوي ، لأن الصلة فيه بين الذات وبين نفسها ، وليس في هذا إذن شيء من التشويه لها أو النقص من قدرها ، أو الخلط بينها وبين الأشياء الأخرى من ذوات أو أدوات . وهذه الذات إذن ستكون ، لا كلية كما يزعم هيغل ، بل فردية إلى أقصى حدود الفردية ، وإن شئت فقل إنها الفردية المطلقة . وبهذا يتم الجواب عن السؤال الثالث والأخير .

وهذه الفردية المطلقة أو هذا الأنا هو الوجود الأصيل ؛ أو هو الأصل الذي أصدر عنه في كل أفكارى وأفعالى ، أو كما يقول يسبرز ، « إن هذا الوجود الماهوي هو ما هو على صلة بذاته » (١) ، أو كما يقول كيركجورد : « إن الأنا هو صلة تتصل بنفسها ؛ أو بعبارة أخرى ، إنه ، في الصلة ، الاتجاه الباطن لهذه الصلة ؛ والأنا ليس هو الصلة ، ولكنه عود الصلة على نفسها ... وفي الصلة بين حدين ، الصلة تدخل عاملاً ثانياً على هيئة وحدة سلبية . والحدان على اتصال بالصلة ، وكلٌّ يوجد من حيث صلته بالصلة ، فتلاً بالنسبة إلى النفس ، الصلة بين النفس وبين الجسم ليست إلا صلة فحسب . ولكن إذا كانت الصلة ، على العكس من ذلك ، على اتصال بنفسها ، فإن هذه الصلة الأخيرة حد ثالث إيجابى ، ونكون هنا

بازاء الأنا » (١) . أعنى أن الصلة بين الذات ونفسها ليست صلة سلبية ، بل صلة إيجابية فيها تكون الذات في حالة امتلاك لنفسها وشعور بذاتها ، على نحو مقارب لما يقوله هيجل عن الروح الكلية .

هذه الصلة الذاتية هي الصلة العليا التي تتصف بها الذات في حالة صفائها وبكارتها ، وفيها تكون وحيدة مع نفسها ومع مسئوليتها الهائلة ، شاعرة بأن لها معنى لا نهائياً شعوراً يصدر إليها من كون حريتها مطلقة ، وهي حالة تقرب من تلك التي نشدها كبار الصوفية وعبرت عنها القديسة تريزا الآبلية فقالت : « أنا وحدى مع الله وحده » ؛ وهو قول لو ترجم إلى لغة الفلسفة لكان معناه تماماً : أنا وحدى مع ذاتي وحدها . وهذا ما قاله كيركجورد أيضاً حين جعل الحد الثالث في الصلة بين الذات ونفسها هو الله ، لأن الله ليس ثمت إلا من أجل الفرد . فكأن الذات في حالة الوجود الماهوى إذن في عزلة كاملة ، قد غلق من دونها كل باب وكل نافذة لا تفتح على ذاتها ، لأن أى اختلاط مع الذوات الأخرى أو مع الأشياء في العالم فيه تدنيس لها ، وتعكير لصفائها ، وفض لبكارتها . والوجود الحقيقى إذن هو الوجود الذاتى ؛ أما الوجود الموضوعى ، أعنى الوجود بين الموضوعات ، والحياة على غرار الموضوعات ، فوجود زائف . هو وجود تشتت وضلال وتزييف للذات الحققة ، لأننى لا أكون فيه مالِكاً لذاتى ، بقدر ما تكون الأشياء مالكة لى . ماذا أقول ! بل إننى أكون فيه مَلِكاً للموضوعات ، فانياً فيها فاقدأ بهذا ذاتى فيها ومن بينها . وفى هذا يقوم سقوطها .

فالسقوط إذن يأتى بانتقال الذات من حالة الوجود الماهوى أو الممكن ، إلى حالة الوجود العينى المتحقق فى العالم ، وهو المسمى باسم الآنية (٢) .

(١) كيركجورد : الكتاب نفسه ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) راجع ما قلناه من قبل ص ٥ ، تعليق - عن هذا اللفظ وإمكان استعماله ترجمة للكلمة Dasein ولذا فمن الآن فصاعداً سنستعملها ترجمة لهذا اللفظ ،

وفيه يكون المرء في حالة : وجود — في — العالم بين أشياء أو موضوعات . وجوهر الموضوع الإحالة على هيئة أداة تحيل إلى غيرها كوسيلة لها . وسأكون كذات في العالم إذن موضوعاً ، وبالتالي أداة . ومن هنا أولاً ، أى بوصفى أداة كأى موضوع آخر ، تسقط قيمة الذات بوصفها ذاتاً . وفضلاً عن هذا فإن الذات بين الذوات الأخرى في العالم لا تستطيع إلا أن تفتى فيها ، ومن هذه الذوات الأخرى يتكون كائن هائل مجرد هو المسمى باسم « الناس » : وحينئذ لا أفكر إلا كما يفكر « الناس » ، ولا أعمل إلا وفق ما يرضيه « الناس » ، وسيكون « الناس » في هذه الحالة مصدر التقويم والفكر والفعل ، وبالتالي مصدر الوجود . وبذا تفقد الذات صلتها الحقيقية ، أعنى صلتها بنفسها ، وتصبح صلتها مع الغير ، وهم في هذه الحالة الناس ، ثم الأشياء . ولما كانت الصلة بالذات هى الحقيقية وحدها ، فإن هذا الاتصال بالغير وبالأشياء سقوط للذات . وهو سقوط يتدرج تبعاً لكيف الغير وكمه . فإذا كان مع أكبر عدد من « الناس » ، فإنه يكون إذن في أكبر حال من السقوط من حيث الكم ؛ وإذا كان مع الأشياء أكثر مما مع الناس ، كان السقوط أشنع من حيث كيف . ولما كان كيف أعلى من الكم ، فإن هذا السقوط الثانى أشنع من الأول . والنتيجة لهذا أن الشرف في رتبة الوجود يتناسب تناسباً عكسياً مع الاتصال بالغير أو بالأشياء ؛ أو ، على حد تعبير جبريل (١) مارسل ، كلما زاد الملك نقص الوجود . وتحليل هذا السقوط يكون الجزء الرئيسى من كتاب « الوجود والزمان » لهدجر ، وبخاصة في الفصل الرابع من القسم الأول (بنود : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧) .

ولكن هذا السقوط ضرورى كما قلنا ، لأن الوجود الممكن لا بد أن يتحقق على هيئة الآتية ؛ وذلك بأن يعلو على نفسه ، وبنوع من التصميم والعزم

(١) راجع كتابيه : « يوميات ميتافيزيقية » ، ط ٢ ، سنة ١٩٣٥ ؛ و« الملك والوجود » ، ١٩٣٨ . وراجع مقاله في هذا المعنى في كتابه : « من الابداء إلى النداء » ، ص ٥٥ — ٨٠ .

يحقق شيئاً من إمكانياته في العالم بين الذوات الأخرى ووسط الأشياء والموضوعات . ولعل هذه الضرورة هي العلة في أن هيدجر لا يريد أن يفهم من هذا السقوط أى معنى من معانى القدر ، ولا يربطه بأية صلة من صلات التقويم . فيقول إن السقوط لا يتضمن أى تقويم سلبى . وإنما كل ما يدل عليه هو أن « الآنية هي أولاً وبالذات في « العالم » المثير للهم فإن سقوط الآنية يجب ألا يفهم على أنه « انحدار » من « حالة أصلية » أسمى وأظهر ، إذ ليست لنا عن هذا أية تجربة من الناحية الوجودية ، كما أننا لا نملك عنه من الناحية الوجودية أية إمكانية أو دليل للتفسير (١) . ومع هذا فإن هذا الإيضاح من جانب هيدجر غير مقنع ، لأنه يجعل السقوط هنا سقوطاً وسط الناس والابتدال اليومي ، وفي هذا من غير شك انحدار للذات الحقيقية . والسبب في هذا الإيضاح هو في أغلب الظن حرص هيدجر الدائم على تجنب كل تقويم ، لأن البحث الذى هو بصدد بحث وجودى ، وليس بحثاً تقويمياً . وما من شك في أنه مصيب في هذا التمييز بين الميدانين ، فإن الأحكام التقويمية إذا أقحمت في الأحكام الوجودية أفسدتها . لذا وجب الحرص على مراعاة التمييز بين كلا النوعين من الأحكام .

والمهم في كل ما قلنا حتى الآن عن وجود الذات ، أن نفهم أن ثمت وجودين : وجوداً للذات على هيئة إمكان ، ووجوداً لها على هيئة واقع . ويتم الانتقال من الإمكان إلى الواقع بفضل الحرية . فبواسطة الحرية التي للذات الممكنة تختار الذات بعضاً من أوجه الممكن وتحققه عن طريق الإرادة وهذا التحقق العيني يتم في العالم ، ويسمى حينئذ بالآنية . وهذه الآنية نوع

(١) هيدجر : « الوجود والزمان » ، ص ١٧٥ - ص ١٧٦ . وهنا يلاحظ أن من الواجب أن يفرق بين الناحية الوجودية والناحية الوجودية : فالأولى ontisch هي المتصلة بالكائن الموجود وتنظر إليه من الناحية الواقعية ؛ أما الثانية ontologisch فهي المتصلة بالوجود ، وتنظر خصوصاً من ناحية العلو أو الامكان . راجع رسالتنا : « مشكلة الموت » ، ص ٦٧ - ص ٦٨ ، تعليق (مخطوطة) .

من التفسير والفهم ، كما يقول هيدجر ، للوجود الممكن أو الوجود الماهوى . والآنية مطبوعة على هذا التفسير للوجود الممكن أعنى عرض ما فيه ، لأن فى هذا كيفية وجودها ، أى أنها لا تتم إلا على هذا النحو ، وإلا لما كان ثمت تحقق ، وبالتالي لم تكن ثمت آنية . والمصدر الذى عنه تصدر الآنية فى تفسيرها للوجود الممكن هو الزمان . ولهذا فإن كل محاولة لفهم الوجود عامة والآنية بوجه خاص بغير الزمان محاولة مخففة : فالزمان هو العنصر الأساسى فى تكوين الآنية ، وهو العامل الأسمى فى انتقال الوجود الممكن إلى حالة الآنية ، والزمانية حالة جوهرية للوجود المتحقق أى الآنية . وعلى هذا فلا بد لنا ، كما نفسر حقيقة الوجود عموماً ، أن نلجأ إلى الزمان فنفسر الوجود من ناحيته ، وسنرى حينئذ أن الزمان يمكن أن يفسر به الطابع الأسمى للوجود ، ولكل ما فى الوجود .

وعدم تفسير الوجود على أساس الزمان هو العلة فى إخفاق ما قال به الفلاسفة من مذاهب فى الوجود حتى الآن . والذين حاولوا منهم إدخال الزمان - إلى حد ما - فى تفسيرهم لبعض أنحاء الوجود ، لم يفهموا الزمان بمعناه الحقيقى ، بل كانت لديهم عنه فكرة : إما مبتذلة زائفة ، وإما ناقصة . ولذا لم يستطيعوا الإفادة منه ، وذهبت جهودهم فى إدراك معنى الوجود دون طائل . نقول هذا عنهم جميعاً ، ولانستثنى أحداً ، ابتداءً من أرسطو - أول من غنى به فى شئ من التفصيل - حتى برجسون الذى سعى جهده لحمل مذهبه فى الوجود يقوم عليه .

ذلك أنهم فهموا الزمانية بمعنى الوجود « فى الزمان » ، ووفقاً لهذا قسموه أقساماً : فقسم من الوجود يخضع للزمان ويجرى فيه كأحداث الطبيعة والتاريخ ؛ وقسم لا يخضع له ولا يرتبط به كالنسب الرياضية ؛ وكل هذا فى داخل الوجود الطبيعى أو هذا الوجود . ثم قسموه قسمة ثنائية أخرى إلى وجود فى الزمان ، هو هذا الوجود الثانى ، ووجود فوق

الزمان هو الوجود الأزلى الأبدى ؛ بينهما هوة قال البعض ليس من الممكن عبورها ، وحاول البعض الآخر أن يجتازها بسلسلة من المتوسطات . وساعد على إيجاد هذه التفرقة الأخيرة خصوصاً نزوع الفلاسفة السابقين إلى التخلص من التغير ونشدان الثبات ، منذ أن أثار المشكلة هيرقليطس والإيليون بوجه خاص ، أو بعبارة أخرى حاولوا التخلص من هم الزمان ، ومن قانون التغير الناشئ عنه أو العكس ، أى الخلاص من التغير بالتخلص من مصدره ، وهو الزمان .

فإذا كانوا قد قصدوا من وراء هذه التفرقة الخلاص من هم الزمان بالتمنى والرجاء ، فلهم وما يبتغون ، فإن لكل أن يتمنى ما يشاء : لكن على أن يفهم على أنه أمنية ومطمح ، ينتسب إذن إلى ميدان الأخلاق ، لا إلى ميدان علم الوجود وتفسيره كما هو فى تركيبه . ولكنهم ويا للأسف قد قبلوا الأمانى حقائق ، فراحوا يسعون إلى استبعاد الزمان من تفسير الوجود ومعناه قدر المستطاع ؛ وفى هذا كانوا متأثرين من غير شك : إما بنزعة دينية صوفية أسطورية ، كما هى الحال لدى أفلاطون وأفلوطين وأوغسطين ؛ أو بنزعة عقلية تجريدية تصورية ، كما نجدها خصوصاً عند أرسطو وكنت وهيغل .

إنما الوضع الصحيح - عندنا - أن نفهم الوجود على أنه زمانى فى جوهره وبطبيعته ؛ وتبعاً لهذا فإن كل ما يتصف بصفة الوجود لا بد أن يتصف بالزمانية . وليس معنى الزمانية مجرد الوجود « فى الزمان » - وكأن الزمان إطار يحول فيه الوجود أو إناء يحتويه كما ينظر عادة إلى المكان فيخلط بين الزمان والمكان . بل فضلاً عن هذا فإن ما يدعونه « فوق الزمان » أو « خارج الزمان » هو أيضاً زمانى ، وزمانى بالمعنى الإيجابى . وصفة الزمانية إذن تطبع نفسها على كل موجود وتشيع فيه روحه الحقيقية ؛ وهى المقوم الجوهرى لماهية الوجود ، والفاعل فى تحديد معناه والصورة التى على نحوها يبدو .

وتفسير الوجود على هذا النحو فيه ثورة لا تقل فى عنفها وخطرها نتائجها عن تلك التى قام بها كوبرنيكس فى علم الفلك . فإذا كان كنت قد نعت مذهب النقصى بأنه ثورة كوبرنيكية فى نظرية المعرفة ، ففى وسعنا أن ننعت هذا التفسير بأنه ثورة كوبرنيكية فى علم الوجود .

الزمان اللاوجودى

القاعدة الذهبية لكل نقد سليم أن يقوم على مبدأ واحد . أما أن يضرب المرء المذاهب بعضها ببعض ، فما أيسره من عمل ، خصوصاً فى الفلسفة حيث لا يوجد مذهب إلا وله ما يضاده ! ولكنه عمل فاسد بقدر ماهو يسير ؛ وفى اللجوء إليه خيانة وتناقض ونزوع إلى المرء السلبى ، دون رغبة فى تحصيل إيجابى . فالمذهب الحق وحدة عضوية تُخلق دفعة واحدة وترتبط على نحو لا يتيسر معه فصل عضو عن الكائن إلا بالقضاء عليه كله . فليس على الناقد بعد هذا إلا أن يأخذه كله أو يرفضه كله . ومن هنا أخفق كل مذهب توفيقى أو تلفيقى ، أى كل مذهب يأخذ جزءاً ويترك آخر ، أو ينقذ الجزئيات منعزلة دون ربط لها بمركز الوحدة باستمرار .

والدراسة النقدية التاريخية إذن لا بد أن تكون من وجهة نظر واحدة ، فتعارض المذاهب كلها بمذهب واحد ، لا بمذاهب عدة ومبادئ مختلفة . وكل ما يطلب إلى الناقد هنا هو أن يكون أميناً فى العرض للمذهب الخصم ، وله بعد أن ينقده كما يشاء .

ونحن نعتنئ التفسير الجديد للوجود على أساس الزمان بأنه ثورة . وكل ثورة تبدأ بهدم الأوضاع السابقة ، وفى ميدان الفكر بنقد نظريات السالفين فى ميدان معين بالذات . فعلينا إذن أن ننقد ، عارضين ، ما قاله الفلاسفة من قبل فى الزمان . وغرضنا من هذا النقد ليس سلبياً كله ، بل هو إيجابى فى أهم نتائجه ، وذلك أن يكون النقد أداة لاستخلاص المشاكل والشكوك التى يتضمنها موضوع النظر ، ثم لوضعه بعد فى الوضع الصحيح ، المؤدى إلى تحقيق الغاية ، وهى عندنا هنا تفسير الوجود على أساس الزمان .

والمذاهب التي وضعها السالفون في الزمان يمكن أن ترد في النهاية إلى ثلاثة رئيسية : المذهب الطبيعي ويمثله أرسطو الذي حلل الزمان تحليلًا يمكن أن يعد الصورة العليا للزمان ، والوجود المرتبط به ، عند الأوائل ، نعى اليونان ؛ والمذهب التقدي أو المتصل بنظرية المعرفة ، وهو الذي أقامه كنت وسار عليه من تأثروه حتى نهاية القرن الماضي ؛ ثم المذهب الحيوي الذي فصله برجسون . هذا في داخل ميدان الفلسفة الضيق . وهناك في الفزياء مذهبان : المذهب المطلق ويمثله نيوتن ، والمذهب النسبي ويمثله اينشتين .

أما مذهب أرسطو (١) فأوضح صيغة خلفتها لنا النظرة اليونانية . وفضله في التعبير بطريقة مفصلة شاملة دقيقة عما قاله السابقون ، وفي إثارة الإشكالات والشكوك المتصلة بالزمان كما هي عادته في كل أبحاثه ، مما من شأنه أن يجعل أرسطو يثبت آراء ووجهات نظر كثيراً ما تكون خصبة قابلة للنمو في تيارات جديدة من بعد ؛ وإن كان هو لم يتعمقها ولم يستخلص كل نتائجها ، بل ظل دائماً يدور في نطاق الروح القديمة (أي اليونانية).

فالتعريف الذي يقدمه لنا أرسطو في الزمان ، وهو أن « الزمان مقدار الحركة من جهة المتقدم والمتأخر » (« السماع الطبيعي » : ٢١٩ ب ، س ٢) يشبه كثيراً التعريف الذي قال به من قبل أرخوطاس الترتي ، الفيثاغوري المعاصر لأفلاطون ، والذي أورده لنا سنبلقيوس في شرحه على كتاب « المقولات » لأرسطو (٢) . وهذا التعريف هو أن « الزمان مقدار الحركة

(١) العرض الشامل لنظريته في الزمان قد وضعه في « السماع الطبيعي » م ٤ ف ١٠ ، ص ٢١٧ ب س ٢٩ — ف ١٤ ، ص ٢٣٤ س ١٧ ؛ يضاف إليه مواضع متفرقة في « ما بعد الطبيعة » و « النفس » و « التذكر » ، ثم المقالات الأربع الأخيرة من « السماع الطبيعي » أيضاً .

(٢) سنبلقيوس : « شرح المقولات لأرسطو » ، ص ٣٥٠ — ص ٣٥١ ، نشرة كارل كليفلش ، برلين سنة ١٩٠٧ . وراجع ترجمة هذه الفقرة إلى الفرنسية ؛ وشرحها في كتاب يميز دوهم : « نظام العالم من أفلاطون إلى كوبرنيك » : ج ١ ص ٨٠ باريس سنة ١٩١٣ .

معلومة ؛ وهو أيضاً على وجه العموم المدة الخاصة بطبيعة الكون .
ويشرح سنبلقيوس هذا التعريف فيقول : إن كل الحركات في العالم لها
علة أولى أو محرك أول . وهذا المحرك الأول قد قال عنه أرسطو إنه غير
متحرك ؛ أما أفلاطون فقال على العكس من ذلك إنه متحرك ، لأنه النفس
الكلية ، وهي حية ، وإذن متحركة بذاتها . ويبدو من كلام سنبلقيوس
أن رأى أرخوطاس هو رأى أفلاطون ، وتبعاً لهذا فإن أرخوطاس
يرى إذن أن المحرك الأول هو النفس الكلية أو نفس العالم . وهي متحركة
بذاتها في ذاتها ، وعن حركتها تصدر بقية ما في العالم من حركات . والحركة
الأولى إذن هي حركة النفس الكلية بذاتها في ذاتها ، أى حركتها الباطنة .
وعن هذه تصدر حركة ثانية خارجها ، هي الحركة العامة للكون ، وهاتان
الحركتان . وأولاهما علة الثانية ، تحدثان معاً ؛ ولذا فإن علينا أن ننظر إليهما على
أنهما حركتان ذاتا دور واحد . وعن هذه الحركة الثانية تصدر بقية الحركات
الجزئية في العالم : من حركات دورية دائرية للأفلاك وحركات الكون
والفساد في العالم السفلى . والزمان عند أرخوطاس يتعين بواسطة هذه الحركة
الثانية ، أعنى الحركة العامة للكون . ووحدة الزمان هي المدة التي لكل
دور من أدوار هذه الحركة ، وتلك هي ما عناه بقوله : المدة الخاصة بطبيعة
الكون . والزمان الفاصل بين حادثين هو المقدار الناتج عن حساب الدورات
أو كسور الدورة التي للحركة العامة للكون ، مما يتم بين هذين الحادثين .
لما كانت الحركة العامة للكون تحدث مع الحركة الباطنة للنفس الكلية ،
فإن في وسعنا أن نقول أيضاً إن الزمان هو مقدار دورات هذه الحركة الأخيرة .

ثم يعنى سنبلقيوس بإظهار الفارق بين هذا التعريف وبين تعريف أرسطو
والرواقيين على الرغم مما يبدو من أن تعريف أرخوطاس يضم تعريف هؤلاء ،
نظراً إلى أن أرسطو قد عرف الزمان بأنه مقدار الحركة ، وزينون الرواقى
عرفه بأنه ليس إلا مدة كل حركة ، بينما عرفه كريسفوس بأنه مدة حركة
الكون . فيقول إن تعريف أرخوطاس ليس تعريفاً جامعاً بين هذه التعريفات

الثلاثة (التأخرة عنه) ؛ « وإنما هو تعريف قائم بذاته له معناه المستقل عن أقوال الفلاسفة الآخرين . فهو لا يقول أولاً إن الزمان مقدار كل حركة ، كما سيقول أرسطو فيما بعد ، وإنما هو مقدار حركة معلومة معينة ؛ أى ليس مقدار واحد من الأجسام الجزئية في العالم ، مثل حركة السماء أو الشمس أو أية حركة أخرى منسوبة خاصة إلى واحد من المتحركات الجزئية . وإلا ، فإنه لو كانت الحال على ذا النحو ، لما أمكن أن يُعدَّ الزمان مبدأ ، ولن يكون خليقاً بأن يعد ، من حيث أصله ، من بين الموجودات الأولى . وإنما يقصد أرخوطاس بهذا القول يقيناً حركة أولية أصلية تكون علة بقية الحركات . . . ويبدو إذن أن مؤلفنا (أى أرخوطاس) يقصد بهذا القول الحركة الجوهرية للنفس (الكلية) ، أى صدور العقول التي هي من حيث جوهرها في مرتبة أدنى منها ، ونحوّل هذه العقول بعضها إلى بعض . فهذه الحركة هي تلك الحركة المعلومة التي يؤكد ارتباطها بالزمان ، وهو يقول عن المقدار الذي يقيس هذه الحركة إنه هو المحدث للكون ، أى أنه يصنع الموجودات الكائنة في العالم ؛ وهذا المقدار هو أيضاً الذي يعين الانتقالات والتحولات أو التغيرات بواسطة صدورات العقول المتولدة عنه . وهو هو الزمان الخصب في أعماله . . . ويبدو أنه ينظر إلى الزمان كأنه ناشئ في آن واحد عن الحركة الأولى ، أعني تلك الباقية في باطن النفس ، وعن تلك الناشئة عن هذه ؛ وإلى هذه الحركة الأخيرة تنتسب كل حركة أخرى وتقارن . وبها تقاس ؛ ولا بد في الواقع من أن يكون المقياس قابلاً لأن يوضع فوق الشيء المقيس ، وفي الآن نفسه . أن يقوم بالنسبة إليه بدور المبدأ له » .

وهذا التعريف الذي قال به أرخوطاس ليس هو أول من وضعه أو قال به ؛ وإنما هو تعريف نجد معناه وأصوله لدى المدارس الفيثاغورية ، وغيرها من المدارس القديمة التي يحددها لنا سنبلقيوس بالدقة حين يقول في الموضع عينه : « وأقوال الأقدمين تتفق مع التعريف الذي قال به أرخوطاس ؛

فبعضهم يعرف الزمان ، كما يدل عليه هذا اللفظ نفسه ، بأنه دورة معينة تقوم بها النفس الكلية حول العقل ؛ وبعض آخر يربطه بالحركات الدورية للنفس (الكلية) وعقلها الخاص ؛ ونفر ثالث يربطه بالدورات الدائرية للكواكب . والصيغة الفيثاغورية تضم معاً كل هذه التعريفات ؛ فإن المدة العامة للطبيعة الكلية تشتمل في داخلها ، بوجه عام ، على كل الطبائع ؛ وتمتد إليها جميعاً بلا استثناء » (ص ٣٥١ ؛ وراجع أيضاً « شروح كتب الطبيعة لأرسطو » له أيضاً ، في النشرة عنها : ص ٧٨٦) .

واللمحات البارزة في هذا التعريف الذى نستطيع إذن أن نقول عنه إنه التعريف العام الشائع عند اليونانيين قبل أرسطو ، هى : أولاً : ارتباط الزمان بالحركة . ثانياً : أنه مقدار الحركة وليس الحركة نفسها . ثالثاً : أنه ، ولو أنه مقدار الحركة ومقياسها ، فإنه فى الآن نفسه يقاس هو ذاته بالحركة . رابعاً : أن هذه الحركة التى يقاس بها هى الحركة العامة للكون . خامساً : أنه مصدر الكون والفساد ، وهو بالتالى قوة فاعلة وليس شيئاً سلبياً . سادساً : أنه ليس متوقفاً ولا مرتبطاً بالنفس الإنسانية ، وإن كان مرتبطاً بنفس حية هى النفس الكلية . وليس لنا أن نزعم هنا أن النفس الكلية يمكن أن تفسر أسطورياً على أنها النفس الإنسانية مرفوعة إلى درجة أقوى ، نظراً إلى أن الكون فى نظر الروح اليونانية عامة كائن حى أكبر . ومن هنا لا يمكن إلا أن يقال إن نظرية الروح اليونانية عامة إلى الزمان نظرية موضوعية ، لا ذاتية ، كما سنرى فى العصر الحديث ، ابتداء من كنت على وجه الخصوص . كما يلاحظ سابعاً : أن الزمان قد نظر إليه هنا نظرية كمية ، أعنى أنه مقدار راتب متصل ثابت المدة ؛ وأنه إلى جانب هذا يمر فى دورات دورية ، كل منها تكون مدة هى ما سيسميه أفلاطون باسم السنة الكاملة *τέλειος ένιαυτος* ، أو ما سيسمى فيما بعد باسم السنة الكبرى الأفلاطونية . والكون على هذا الأساس يمر فى حياته المتصلة بدورات متعاقبة ، قال عنها الفيثاغوريون إنها متساوية فى كل شىء تماماً إلى درجة أنه ليس من الممكن

التمييز بينها ، وليس ثمت من وسيلة لوضعها في عصور مختلفة ، وبالتالي للقول بأنها متعاقبة متوالية ؛ فإن الأزمنة التي يكونها كل منها ليس في الواقع إلا زمناً واحداً ، هو زمن إحداها . ولكن بعضاً من الفلاسفة الطبيعيين الأقدمين قد حاول أن يقدر مقدار كل دورة ، « فمنهم من قال إن السنة الكبرى مكونة من مدة قدرها سنوات ثمان ؛ وبعض آخر جعلوها مكونة من تسع وخمسين سنة ؛ وهيرقليطس جعلها مكونة من ثمانى عشرة ألف سنة شمسية ؛ وذيوجانس يقدرها بخميس وستين وثلاث مائة سنة كل منها تساوى سنة هيرقليطس ؛ الخ (١) » .

والمهم في هذا كله أن الزمان كان في نظرهم مكوناً من دورات متعاقبة في الزمان المستمر . ويبدو أن هذه الفكرة قد أتت إليهم من النظر في الكائنات الحيوانية والإنسان بوجه خاص ، حين رأوا كلا منها يعطى مدة معينة محدودة بين الميلاد والموت . وقد يضاف إلى هذا أيضاً تأثيرهم بأفكار شرقية هندية تشابه هذه الفكرة إلى حد بعيد (٢) . وعلى كل حال فإنها الفكرة الشائعة السائدة لدى التفكير اليوناني كله . ويحاول أرسطو أن يفسر القول بها على أساس فلسفي صادر عن طبيعة الحركة الدائرية ، فيقول إن حركة النقطة الدائرية المنتظمة هي خير وحدة للقياس ، نظراً إلى أنها أسهل الحركات في التقدير إذ « لا الاستحالة ولا الزيادة ولا الكون ممكن » أن يكون منتظماً . ولكن النقطة يمكن أن تكون كذلك . وهذا هو السبب في أن الزمان قد نظر إليه على أنه حركة الفلك : فهذا لأن أنواع التغير الأخرى تقاس بالنقطة . والزمان بهذه الحركة (أى الدائرية) . ومن هنا ، فإن الفكرة

(١) كتاب « الآراء الطبيعية » (هكذا يرد اسمه في الكتب العربية . كما في « الفهرست » لابن النديم ص ٢٥٤ س ٦ ، وفي ابن القفطي تحت لفظ فلوطرخس — راجع في هذا كله بول كروس : « جابر بن حيان » ، ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٩ ، القاهرة ١٩٤٢) المنسوب إلى فلوطرخس . ك ٢ ، ف ٣٢ = ص ١٤١ من نشرتنا للترجمة العربية القديمة لقسطنطين لوقا ؛ في كتابنا « في النفس » ، القاهرة سنة ١٩٥٤ .

(٢) راجع : دوهم ، الكتاب المذكور . ص ٦٧ — ٧٠ .

الشائعة القائلة بأن الشئون الإنسانية تكون دائرة ، تنطبق أيضاً على بقية الأشياء ذات الحركة الطبيعية ، والكون والفساد . وهذا لأن كل هذه الأشياء تتميز بالزمان وتبدأ وتنتهى وكأنها على صورة دورة ؛ والزمان نفسه ينظر إليه على أنه دائرة . والسبب فى هذا النظر على هذا النحو أن الزمان هو مقياس ذلك النوع من النقلة ، وهو بدوره يقاس بها هو نفسه ؛ حتى إن القول بأن الأشياء الحادثة تكون دوراً هو القول بأن تمت دائرة للزمان ، وهذا معناه أنه مقيس بالحركة الدائرية (١) .

وهذه الفكرة قد عنى أفلاطون بتوكيدها فى نظريته فى الزمان . ولا عجب فقد تأثر بأرخوطاس منذ مقابله له وهو فى رحلته الأولى ، كما تأثر بالفيثاغورية عموماً فى هذه الناحية ، فضلاً عن أنها كانت الفكرة السائدة كما قلنا . فنحن نراه فى « الجمهورية » (الكتاب الثامن ، ص ٥٤٦) يشير إليها ؛ ومن بعد فى « طيمائوس » (٣٨ - ٣٩) عرضها بكل وضوح معنياً خصوصاً بفكرة السنة الكاملة أو السنة الكبرى ، وهى الفكرة التى أثارت من حولها الكثير من الجدل ، خصوصاً فى عهد الأفلاطونية المحدثة ، ومعناها المدة لكل دورة من دورات الزمان . وإلى جانب هذا ، لا يكاد أفلاطون أن يختلف مع أرخوطاس فى تعريف الزمان ، وإن كان لم يعن به عنايته بالمكان ولم يضعه فى مرتبة مساوية له . فعنده أن الزمان مظهر من مظاهر النظام فى العالم ، بينما المكان إطار موجود بالضرورة منذ الأزل ، مستقل عن الصانع ، أى أنه غير مخلوق ، بعكس الزمان ، وهو شرط ضرورى سابق على فعل الصانع ، وعامل ثالث يضاف إلى الوجود والضرورة ، ولولاه لما استطاع الصانع أن يحدث النظام الظاهر فى العالم . أما ما يتصل بأزلية الزمان عند أفلاطون ، فالرأى حول هذا مختلف أشد الاختلاف . فالبعض يقول ، ويؤيده فى هذا أرسط ، إن الزمان عند أفلاطون ليس أزلياً لأنه مخلوق ، وقد صنعه الصانع

مع السموات ؛ فإن أرسطو ينص صراحة على أن « جميع المفكرين متفقون ،
 ما عدا فرداً واحداً ، على أن الزمان لم يكن له بدء في الوجود بل كان لايزال
 باستمرار . . . أما أفلاطون فهو وحده الذى جعل للزمان بدءاً ، لأنه يقول
 إنه جاء إلى الوجود مع الكون ، وهو يجعل لهذا (أى للسكون) بدءاً (١) »
 وأرسطو يشير هنا خصوصاً إلى ما قاله أفلاطون في « طيماوس » (٣٨ب) :
 « إن الزمان قد جاء إلى الوجود مع السماء ، من أجل أنه لما كانا قد جاءا
 إلى الوجود معاً ، فإنهما يمكن أن ينحلا معاً ، إذا أمكن أن يحدث مطلقاً
 هذا الانحلال ؛ وقد صنع على مثال الطبيعة الباقية على الدوام ، كى يكون
 مشابهاً للنموذج قدر المستطاع ؛ لأن النموذج (أى الموجود الحى ، أو الله)
 موجود منذ الأزل وإلى الأبد ، بينما السماء كانت وهى كائنة ؛ وستكون
 دائمة خلال كل الزمان » . ولكن أتباع أفلاطون لا يأخذون بما يريد
 أرسطو أن يفهمه هنا ، ويقولون إن أفلاطون يستخدم هنا لغة « الأسطورة »
 وأنه في الواقع قد نظر إلى العالم المرنى وإلى الزمان على أنهما أزليان . ونحن
 نميل إلى هذا التفسير الأخير ، ونرى أن قول أفلاطون « إن الزمان قد جاء
 إلى الوجود مع السماء » معناه أن الواحد لا يوجد دون الآخر ، نظراً إلى أن
 الزمان متوقف على الحركة كما قلنا من قبل ، ولا نرى في هذا القول أى
 دليل على أن أفلاطون قد قصد إلى القول بأن الزمان ليس أزلياً (٢) .
 وواقع الأمر في المسألة كلها أن الزمان على نموذج الموجود الحى أو الله ،
 والله أزلى أبدي . ولكن لما كان النموذج أعلى من الشيء الذى هو نموذج
 له ، فإنه لم يكن من المستطاع أن يعطى طابع الأزلية « بكل معناه وتمامه »

(١) أرسطو: «السماع الطبيعى» ، م ٨ ص ٢٥٥ ب ، س ١٦ - ٢٠ .

(٢) راجع رأينا في هذه المسألة بالتفصيل في كتابنا : «أفلاطون» ، ص ١٩١-

١٩٢ ، والتعليق رقم ٣٢ القاهرة ، سنة ١٩٤٣ . وراجع كذلك : يوحنا
 النحوى : « في قديم العالم » ، (٦ : ١٣) ؛ وب. كنسورينوس : « اليوم الميلادى »

، ن ٤ : ٣ .

لهذا الشيء المخلوق ، أعني بالنسبة إلى الصانع ، فلذا كان الزمان أزلياً ، ولكن بدرجة أقل في المعنى من أزلية الله . ونظن نحن أن مصدر الخلط الذي وقع فيه أرسطو ومن بعده المؤرخون الكثيرون في الأجيال التالية حتى اليوم هو أنهم لم ينتبهوا إلى هذه الكلمة : « بكل معناه وتامه » (٣٧ د) ، وهي هنا الكلمة الخامسة . والمقصود منها أنه ليس من الممكن أن تطلق كلمة الأزلية بمعنى واحد على النموذج ، أي الله ، وعلى الزمان المنتسب إلى العالم . أما كلمة الخلق المستعملة هنا فيجب ألا تفهم إطلاقاً بالمعنى الديني ، أو كما تفهمها الآن تحت تأثير هذا المعنى ، فإنه معنى لم يدر بخلد أي فيلسوف يوناني . فضلاً عن أن الخلق ، حتى بالمعنى الديني ، لا يتضمن بالضرورة عدم أزلية الزمان ، كما برهن على ذلك الفلاسفة المدرسيون من مسلمين ومسيحيين . وفضلاً عن هذا كله ، فهاذا قال أفلاطون في تحديده للزمان ؟ لقد قال : « ولكن الله فكر في أن يحقق نوعاً من الصورة المتحركة للسرمدية ؛ ففي نفس الآن الذي وضع فيه نظاماً في السماء ، جعل من السرمدية ، الباقية ثابتة في الوحدة ، صورة سرمدية تسير تبعاً للمقدار — وهذا ما سميناه باسم الزمان » . فهو يقول هنا : صورة سرمدية *αἰώνιον εἶνόντα* ، وهذا قول صريح في أن هذه الصورة السائرة وفقاً للمقدار صورة سرمدية (١) وهذا هو الموضع الحاسم الذي اعتمد عليه أنصار التفسير الذي نقول به هنا ،

(١) الواقع أن المترجمين قد اتفقت أكثريةهم أو قل كل المحققين منهم على وجوب ترجمة الكلمة المشار إليها هنا كما فعلنا ، أي : « صورة سرمدية » (أنظر جوت Jowett ، ج ٢ ص ٥٣١ ؛ آرتشر — هند ، طياوس أفلاطون ، في الموضع المذكور من النص ؛ البير ريفو ، فركرولي ، في الموضع المذكور) . وحاول البعض اصلاح النص ، كما فعل كوفوق (نظريات الزمان والمكان في الفلسفة اليونانية حتى أرسطو ، في « سنويات مدرسة المعلمين العليا » في بيزا ج ١٢ ص ١٦٢ ، تعليق ١) حين ترجمها « صورة الأبدية » ، ولكنه اصلاح غير مستقيم كما لاحظ موندولفو (اللامتناهي عند اليونان ص ٤٢ ، تعليق ٢) لأنه يجعل الصفة *αἰώνιος* تكراراً لا معنى له للكلمة *αἰώνος* المذكورة قبل ؛ وكما فعل أيضاً كورنفورد ، حين أراد أن يستبدل بها ، وعلى سبيل الاقتراح فحسب ، الكلمة : *ἀέραν εἶν.* أي صورة تسيل باستمرار ؛ ولكن لا شيء يبرر هذا التغير (كورنفورد : « كونييات أفلاطون » ص ٩٨ ، تعليق ، لندن ، سنة ١٩٣٧) . وراجع أيضاً كلاماً مهماً في هذا الصدد في كتاب استيفاني : « أفلاطون » ، ج ٢ ، ص ٣٥١ ، بادوفا سنة ١٩٣٥ .

فإذا أضيف إلى ما قلناه سابقاً ، تأيد بصورة يقينية ، أو أقرب ما يكون إلى اليقين ، ما ذهبنا إليه من تفسير .

الزمان عند أفلاطون إذن هو « الصورة السرمدية السائرة تبعاً للمقدار ، للسرمدية الباقية في الوحدة » . أما قوله : « الصورة » فعناه أن الزمان مشابه لنموذج هو الموجود الحى الأزلئ الأبدى الباقى . وهذه الصورة سرمدية كما قلنا ، لأن ما يحاكى السرمدى لا بد أن يكون سرمدياً مثله ؛ فن الثابت اليقيني عندنا إذن أن الزمان أزلى أبدي . ولكن المشكلة هى فى فهم معنى السرمدية هنا . أنفهمها كما يفهمها رجل كأرسطو مثلاً ، بمعنى السرمدية الأفقية ، أعنى عدم التناهى من ناحية الماضى ومن ناحية المستقبل فى خط واحد مستمر لا يعود على نفسه ، أو نفهمها بمعنى العود الدائم لدورة واحدة؟ واضح مما قلناه من قبل عن قول أفلاطون بالدورات وبالسنة الكبرى أن التفسير الذى يجب أن يؤخذ به . وعلى هذا نقول : إن الصورة المتحركة للسرمدية سرمدية بمعنى أنها تسير على شكل دائرى مع الحركة الكاملة للكواكب ، وفى نهاية كل دورة من دوراتها المعينة مقداراً وعدداً — أعنى اليوم والشهر ، والسنة ، والسنة الكبرى — نقول إنها تحقق فى نهاية كل دورة تلك الوحدة التى تبقى بها السرمدية الحقيقية ثابتة . وهكذا نرى أن أجزاء الزمان تدور إذن حول نفسها — بدلا من أن تسير فى خط مستقيم كما هى الحال عند أرسطو — ، — مكوّنة دورة مقفلة لا تلبث من جديد أن تفتح فى شكل دورة أخرى ، فيها أجزاء الزمان غير تلك التى كانت فى الدورة السابقة . وبهذا يقدم لنا أفلاطون صورة للتاريخ ، لا على شكل تطور مستمر فى الزمان اللانهاى ، كما نراه مثلاً عند هيجل ، ولكن على هيئة عود أبدي للدورات مقفلة فى كل منها ذكرياتها وأمانها الخاصة ، على حد تعبير استيفانينى ، لكى تتجدد الإنسانية بعد الانحلال ، أمام تجارب جديدة وآمال أخرى ؛ وهى صورة عبرت عنها أسطورة محاورة « السياسى » وأسطورة الأطلنطيد . ولو أنها مع ذلك صورة ليست تاريخية

بالمعنى المفهوم لدينا اليوم من التاريخ ، أعنى التطور المستمر فى الزمان
اللانهاى ؛ لأنها فى الواقع تتضمن أن كل دورة تشابه الدورة السابقة عليها
ولا تبدى جديداً غير الذى كان ، وفى هذا التكرار المستمر والرتوب المتصل
نوع من الشعور بالسكون ، وهو الشعور المميز للروح اليونانية فى كل مظاهر
نشاطها ، كما لا حظ ذلك اشبنجلر بحق .

أما قوله : السائرة تبعاً للمقدار ، فعناه أن الزمان له أجزاء وصور .
أما أجزاؤه فهى الأيام والليالى والشهور والأعوام ؛ وهى تقاس بحركة
الشمس والقمر وبقيّة الكواكب السبعة التى يسميها أفلاطون من أجل هذا
باسم آلات الزمان (« طيماوس » : ٣٨ ج ، ٤١ هـ ، ٤٢ هـ) . أما صور
الزمان فهى « ما كان » و « ما سيكون » ؛ ومن الخطأ أن نعزوهم إلى الجوهر
السرمدى . وإنما الجوهر السرمدى حاضر باستمرار ، أو « كائن » فحسب .
كما أنه من الخطأ أيضاً أن نستعمل هذا الحاضر أو صورة ماهو « كائن » لما هو
متغير متحول من الماضى إلى المستقبل على الدوام . فن الماضى والمستقبل إذن
تتكون الصورة المتحركة للسرمدية . أما الحاضر فلحظة غير معقولة ، لأنها
تفترض البقاء ، ولو أقصر مدة ، فيما ليس بكائن إطلاقاً ، بل فى تغير مستمر
أبدأ (« طيماوس » : ٣٨ ب) ولأنها تجعل من الآن شيئاً محدداً ، مع أنه
ليس فى ذاته بشئ ؛ لأنه عبارة عن النقطة التى ينتقل عندها الماضى إلى
المستقبل ؛ أو كما سيقول أرسطو فيما بعد ، هو حد متوهم بين الماضى
والمستقبل . وفى « برمنيدس » (١٥٦ ، هـ - هـ) يقدم لنا تعريفاً للآن فيقول :
« إن الآن هو نقطة ابتداء تغيرين متعاكسين . وذلك لأن التغير لا يصدر عن
السكون الذى لا يزال ساكناً ؛ كما أن النقلة لا تبدأ من الحركة التى لا تزال
متحركة ؛ وإنما الأخرى أن يقال إن هذه الطبيعة الغريبة التى للآن ، القائمة
فى الفترة ما بين الحركة والسكون ، خارجة عن كل زمان ، هى بعينها
نقطة الوصول ونقطة البدء لتغير المتحرك الذى ينتقل إلى السكون ، ولغير
المتحرك أو الساكن الذى ينتقل إلى الحركة . . . كذلك الواحد : نظراً إلى

أنه متحرك وساكن معاً ، يجب أن يتغير من أجل الوصول إلى إحدى هاتين الحالتين ومن أجل الوصول إلى الأخرى : فهذا الشرط وحده يمكنه في الواقع أن يحققهما ، الواحدة والأخرى . ولكنه وهو يجري هذا التغير إنما يتغير في الآن ؛ وأثناء تغيره ، لا يمكن أن يكون في أى زمن ، كما لا يمكن أن يكون متحركاً ولا ساكناً . ومعنى هذا أن الآن عار عن الحركة وعن السكون معاً ؛ وإذا كان كذلك فهو خارج عن الزمان ؛ ولما كان هكذا ، فإن الصور في الآن . والتغير بالنسبة إلى الصور أو الأنواع ليس متوالياً كالتغير بالنسبة إلى المحسوسات ، ولكنه ساكن ، إن صح هذا التعبير الذى يبدو تناقضاً في الحدود ، ثابت خارج عن الزمان . ولنظرية الآن هذه أهمية كبرى في تاريخ الأفلاطونية ، لأنها أثارت أكبر الجدل في القرون التالية حول التقابل بين السرمدية (*aión*) والزمان (*χρόνος*) مما نجده في أحد صور في الأفلاطونية الحديثة ، كما نجده كذلك من بعد — وكصدى لهذه — في الفلسفة الإسلامية في المناقشات التى أثارت حول الفارق بين الدهر — وهذه الكلمة ترجمة للكلمة (*aión*) التى ترجمناها هنا بالسرمدية — وبين الزمان ؛ أو بين الزمان المطلق والزمان المحصور .

وفكرة الآن هذه هى تقريباً تلك التى نجدها عند أرسطو . فالتشابه هنا واضح خصوصاً في نقطتين : الأولى أن الآن ليس جزءاً من الزمان ، والثانية أنه لا يوجد في الآن سكون ولا حركة .

وهذا يفضى بنا إلى التحدث عن نظرية أرسطو في الزمان . وفيها نرى كل العناصر السابقة قد التأمت فكونت عرضاً شاملاً لنظرية الزمان ، كان له الأثر الحاسم في تطورها في القرون التالية ولا يزال هذا الأثر حتى اليوم ، لأن النظريات التى تلها لم تزل تجرى — إلى حد كبير — في سياقها ، وتقوم على مفترضاها ومقدماتها . وسنجد إذن في هذا العرض كل تلك اللمحات التى تبينها من قبل في نظرية الزمان عند أرخوطاس والفيثاغوريين عامة ، ثم عند أفلاطون .

فأرسطو يبدأ بأن يربط الزمان بالحركة على نحو يماثل ما فعله السابقون . ولكن الفارق بينهم وبينه واضح في المنهج : فأرسطو تبعاً لمنهجه القائم على البدء بالمحسوس للارتفاع منه إلى المعقول - بعكس منهج السابقين وخصوصاً أفلاطون - ، يبدأ من أى متحرك كان ، لا من النفس الكلية ، ويقول إن الزمان لا يوجد دون الحركة ، أو التغير بوجه عام ، فإننا لا نشعر بتغير في نفسنا ، أو حين لا ندرك أى تغير ، لا يبدو لنا أن تمت زمانا قد مر ، وهذا كان شعور هؤلاء الذين تقص عنهم الأسطورة أنهم كانوا نائمين في كهف سرديس عند الأبطال ؛ وهم بهذا إنما يربطون اللحظة السابقة على نومهم مباشرة باللحظة التي استيقظوا فيها ولا يجعلون منها في الواقع غير لحظة واحدة مستبعدتين الفترة التي مرت بينهما ، لأنها خالية من الإحساس . فإذا كنا إذن لا نشعر بالزمان إلا حين يكون تمت تغير ، ولا نعين زمانا إلا إذا شعرنا بتغير ، فمن الواضح إذن أن الزمان لا يقوم بغير الحركة .

ولكن هذا ليس معناه أن الزمان هو الحركة لأن الحركة أو التغير لشيء ، إنما هو في الشيء نفسه وحده ، أو حيث يكون الشيء المتحرك أو المتغير بعينه ، بينما الزمان في كل مكان ، وفي كل الأشياء ، أو بعبارة أخرى : الزمان لا يخضع للحركات الجزئية ، وإنما هو عام . ولكن ما معنى هذا القول الذي يدلى به أرسطو هنا ؟ أو ليس معناه في الواقع أن الزمان ، إذا كان مرتبطاً بالحركة ، فهو مرتبط بحركة عامة ؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو ، أفليس في هذا عوداً إلى ما قاله أفلاطون وأرخوطاس والسابقون بوجه عام ، من أن الزمان يقاس بحركة عامة هي عند هؤلاء حركة النفس الكلية في خارجها أو الحركة العامة للكون ؟ بلى ، وسيضطّر أرسطو في نهاية الأمر إلى القول بهذا تماماً ، على الرغم من أنه يصوغ النتيجة في صيغة فيها احتمال فيقول : « ولذا يبدو أن الزمان حركة الفلك ؛ فالواقع أن بقية الحركات تقاس بهذه الحركة نفسها ، والزمان هو الآخر مقيس بها » ، (« السماع الطبيعي » ، ص ٢٢٣ ب ، ٢١ - ٢٣) . ولكن لا نتعجل هذه

النتيجة ، فسنعود إلى تفصيلها بعد قليل . والذي يجب أن نلاحظه هنا إذن أن أرسطو يقيم برهانه على أن الحركة ليست الزمان أو أن الزمان ليس الحركة على أساس أن الزمان كلي عام ، ولا يتوقف إذن على المتحركات الجزئية ؛ في هذا البرهان يفترض مقدماً تلك النتيجة . وليس في الوسع إذن أن نغفل بعدُ هذا الاعتبار .

ويضيف إلى هذا البرهان برهاناً آخر هو أن « كل تغير إما أسرع وإما أبطأ ، بينما الزمان ليس كذلك ؛ لأن البطء والسرعة يحددان الزمان : فالسريع هو المتحرك كثيراً في وقت قليل ، والبطيء هو المتحرك قليلاً في وقت كثير ؛ ولكن الزمان لا يحدد بالزمان ، سواء على أساس أنه كم وعلى أساس أنه كيف » (« السماع الطبيعي » ص ٢١٨ ب ، ١٣ - ١٨) . ومعنى هذا البرهان الثاني أن الزمان منتظم راتب ، ولذا تقاس به الحركة التي هي ليست بمنتظمة ولا راتبة . وواضح أنه يقوم على نفس المقدمات التي قام عليها البرهان السابق ، أعني أنه إذا كان الزمان مرتبطاً بالحركة أو مقدارها ، فلا بد أن تكون هذه الحركة منتظمة راتبة ، وليس غير حركة الفلك أو الحركة العامة للكون هي التي ينطبق عليها هذا الوصف . فكأننا نعود هنا أيضاً إلى ما قاله أرخوطاس وأفلاطون .

والنتيجة لهذا كله إذن أن الزمان ليس الحركة نفسها كما أنه لا يوجد بغير الحركة (الموضع نفسه ، ١٢١٩ ، ١) ، أي أنه لا بد أن يكون من جنس الحركة (١٢١٩ ، ٩ - ١٠) . ولكن على أي نحو ؟

هنا نجد أرسطو يربط الزمان بالمكان فيقول إن الحركة خاضعة للمقدار السمي ، وكل مقدار كمي متصل ، فالحركة إذن متصلة . فإذا كان الزمان سائراً وفقاً للحركة ، فهو إذن متصل مثلها . ونحن نميز في المتحرك بين نقطة بدء ونقطة وصول ، أي نفرق بين متقدم ومتأخر في المكان . والحركة كما قلنا خاضعة للمكان : فإذاً نستطيع أن نميز فيها بين متقدم ومتأخر .

وإذا كان الزمان خاضعاً للحركة ، فكأن الزمان إذن فيه هذه الصلة بين متقدم ومتأخر . وعلى هذا « فلنأخذ نعرف الزمان حين نحدد الحركة بتقسيمها إلى متقدم ومتأخر ؛ ونقول إن زماناً قد مر ، حينما نشعر بوجود متقدم ومتأخر في الحركة » (٢١٩ ، ٢٢ - ٢٥) . وهذا الشعور لا يتم إلا إذا ميزنا بين هذين الحدين : المتقدم والمتأخر ، وكأن ثمت فترة بينهما . أما إذا لم نميز بينهما ، وجعلناهما آناً بالمعنى الدقيق ، أى بمعنى أن الآن نهاية المتقدم وبداية المتأخر ، فإنه لا يبدو لنا أن ثمت زماناً قد مر ، لأنه لم تحدث حركة . والنتيجة النهائية لهذا إذن تعريف الزمان بأنه : « مقدار الحركة من جهة المتقدم والمتأخر » (٢١٩ ب ، ٢) .

ويشرح أرسطو هذا التعريف فيقول : « إن الزمان ليس إذن حركة ، ولكنه لا يقوم إلا من جهة أن الحركة تتضمن المقدار (أو العدد) . والدليل على هذا أن العدد يسمح لنا بالتمييز بين الأكثر والأقل ، والزمان يسمح بالتمييز بين الأكثر والأقل في الحركة ؛ فالزمان إذن نوع من العدد . ولكن العدد يفهم بمعنيين : فهناك العدد بمعنى المعدود والقابل للعد ، وهناك العدد كوسيلة للعد . ووسيلة العد والشئ المعدود متمايزان » (٢١٩ ب ، ٢ - ٩) وهذه التفرقة يمكن أن تصاغ على نحو حديث بأن نقول إن ثمت نوعين من العدد : عدداً موضوعياً ، هو الأشياء القابلة لأن تعد ، وعدداً ذاتياً هو الفكرة التي يكونها العقل وبها يعد الأشياء القابلة للعد . وأهمية هذه التفرقة في أن فكرة الآن تقوم عليها .

فالآن هو المتقدم والمتأخر بوصفه قابلاً لأن يعد ، أى بحسبانه موضوعاً ، وهو بهذا الاعتبار يظل كما هو واحداً . فإن الآن يماثل الشئ المنتقل ، والشئ المنتقل يظل ، بوصفه موضوعاً ، كما هو واحداً ، أما من حيث تعريفه وماهيته ، فإنه مختلف . ولذا « حسب السوفسطائيون أن كوريسكس في اللوقيون مختلف عن كوريسكس في السوق ؛ وهذا لأنه هنا تارة ، وهناك

أخرى . والمتنقل ينظره الآن ، كما ينظر الزمان الحركة ، لأن المتنقل يسمح لنا بمعرفة المتقدم والمتأخر في الحركة » (٢١٩ ب ، ٢٠ - ٢٣) ؛ وخلاصة هذا أن الآن يمكن أن ينظر إليه من ناحيتين : ناحية موضوعه ، وهو من هذه الناحية واحد ؛ ومن ناحية ماهيته ، وهو هنا مختلف . فهو مختلف ، لأن الآن السابق ليس هو بعينه الآن اللاحق ، وهو هو نفسه لأن الموضوع واحد وهو الآن : وفي هذا مصدر الإشكال في فكرة الآن . ولذا يعنى أرسطو بأن يبرز هذا الإشكال أو الشك في مستهل حديثه عن الزمان فيقول : « والآن ، الذى يبدو أنه يحد الماضى والمستقبل ، هل هو يبقى واحداً كما هو ، أو هو جديد باستمرار ؟ ليس من اليسير حل هذا الإشكال » (٢١٨ ، ٨ - ١٠) .

وحقيقة الأمر في هذه المسألة هي أن الزمان له ناحيتان : ناحية الاتصال ، وناحية الانفصال . ولكننا قلنا من ناحية أخرى إننا لا نستطيع الشعور بالزمان إلا إذا ميزنا في الحركة بين متقدم ومتأخر . وبالتالي في الزمان . فلبكى نشعر بالزمان إذن لا بد من أن ننظر إليه على أنه كم منفصل . وهذا معنى التفرقة السابقة بين عدد قابل للعد أو عدد موضوعى ، وبين عدد هو وسيلة للعد أو عدد ذاتى ، فالعدد القابل للعد هو الزمان بوصفه متصلاً . والعدد كوسيلة للعد هو الزمان بحسبانه منفصلاً . والآن يتصف أيضاً بهاتين الصفتين : فهو من ناحية موضوعه واحد ، أى يمكن إذن أن يكون متصلاً . لأنه في هذه الحالة قطعة من الزمان أولى من أن يكون حداً بين الماضى والمستقبل . وهذه القطعة ، كأي مقدار ، قابلة إذن لأن تنقسم باستمرار ، وفيها دائماً جزء من الماضى وجزء من المستقبل . أما من حيث ماهيته : فإنه كما قلنا مختلف ؛ وهو في هذه الحالة حد بين الماضى والمستقبل . أعنى الحد الذى مضى الماضى إليه . وليس من ناحيته بعدُ مستقبلاً . وأيضاً الحد الذى منه يبدأ المستقبل . وليس بعدُ شيء من الماضى من هذه الناحية ؛ والآن بهذا

المعنى إذن «حد الزمان» (١٢٢٢ ، ١٢) وهذا الحد إذن وحدة بمعنى أنه غير قابل للقسمة ، لأنه لا يتضمن أى مقدار . وهو فى الواقع حد بالقوة لا بالفعل ، لأنه لو كان بالفعل لكانت الأجزاء (الماضى والمستقبل) الذى هو مشترك بينها متماسة متلاصقة ، والأمر ليس كذلك لأن الزمان يجرى ويسيل باستمرار . فالآن بهذا المعنى الثانى إذن غير قابل للقسمة . ولكنه يقسم الزمان ، بالقوة طبعاً : وبحسبانه يقسمه ، هو دائماً مختلف ، بينما قد رأينا بالمعنى الأول واحداً بعينه ، لأنه لا يقسم الزمان على هذا الاعتبار ، بل يربط بين أجزائه المفترضة . كما هى الحال بالنسبة إلى الخطوط الرياضية : فنحن نرى أن النقطة ليست واحدة حينما نقسم الخط ، فهى إذن من حيث التعريف مختلفة ؛ ولكننا حينما ننظر إليها بوصفها تقوم بوظيفة الربط فى الخط المتصل ، فإنها واحدة . « وعلى هذا فإن الآن من ناحية يقسم الزمان بالقوة ؛ ومن ناحية أخرى يحد جزئيه ويوحد بينهما » (١٢٢٢ ، ١٧ - ١٩) .

والآن بالمعنى الحقيقى فى نظر أرسطو هو الآن بالمعنى الثانى ، لأنه غير قابل للقسمة ، ولأنه وسيلة لحد الزمان . وواضح ما هنا من صلة بين نظرية الآن عند أرسطو ، ونظرية الآن عند أفلاطون : فكلاهما . كما قلنا من قبل ، يرى أن الآن ليس جزءاً من الزمان . رأينا ذلك من قبل عند أفلاطون ، ونراه الآن عند أرسطو حين يقول بصراحة : « إن الآن ليس جزءاً لأن الجزء مقياس للكل ، والكل لا بد أن يكون مركباً من أجزاء ، بينما يبدو أن الزمان ليس مركباً من آتات » (١٢١٨ ، ٦ - ٨) ، وهذا كما رأينا لأن الآن بالمعنى الثانى لا ينقسم ، ولا يمكن أن يتركب ما ينقسم مما لا ينقسم . وفضلاً عن هذا نجد أرسطو يعنى ببيان أن الآن لا يوجد فيه حركة ولا سكون ، كما قال بهذا أفلاطون أيضاً . فيقول إنه « لو أمكن أن تكون فى الآن حركة ، لأمكن أن توجد فيه حركة أسرع أو أبطأ . فلنفرض أن ص هى الآن ، ولتكن الحركة الأسرع تشمل المسافة ا د

في ص . فإذا شتمل الحركة الأبطأ مسافة أو مقداراً أقل في ص نفسها ،
ولتكن هذه المسافة ج . ولكن لما كانت الأبطأ شتمل ج في كل ص ،
فإن الأسرع شتمل هذه المسافة في أقل من ص . ولكن هذا معناه تقسيم
الآن ، وقد رأينا أنه غير قابل للقسم . فالحركة في الآن إذن مستحيلة .
وبالمثل لا يمكن أن يوجد في الآن سكoon أو توقف ، لأن الشيء . . .
يكون في حالة سكoon إذا كان قابلاً بطبعه لهذه الحركة أو تلك ، ولكنه في
هذا الزمن المعين والمكان المعين (ولو أنه لا يزال محتفظاً بقدرته الطبيعية على
مثل هذه الحركة) ليس متحركاً بالفعل . وعلى هذا (كما برهننا منذ قليل)
فانه إذا لم يكن لشيء قدرة على التحرك في الآن ، فلا يمكن أن يقال عن
شيء إذن إنه ساكن فيه » (« السماع الطبيعي » ، م ٦ ف ٣ ، ٢٣٤ ، ١ ،
٢٥ — ٣٤) . وفضلاً عن هذا فإن الآن كما قلنا حد بين زمانين ، فإذا أمكن
شيئاً أن يتحرك في الآن أو أن يسكن فيه ، فإن الشيء الواحد المتحرك في
الآن سيكون متحركاً وساكناً معاً : متحركاً بوصفه في نهاية أحد الزمانين ،
وساكناً بوصفه عند بداية الآخر . وهذا خلف واضح . والنتيجة النهائية
لهذا إذن أن الحركة والسكoon غير ممكنتين في الآن . ولكن كل حركة لا
بد أن تتم في زمان . فإذا كان الزمان مركباً من آتات ، والآن كما قلنا
لا يقبل أن يوجد فيه حركة ، فكيف تتم الحركة إذن في الزمان ؟

وقد عرض أبو البركات البغدادي (١) هذه الاشكالات التي أثّرت حول
الآن بكل وضوح وقوة ، ولذا يحسن بنا أن ننقل هنا بعضاً مما قاله . قال :
« وقد سمي الحد المعتبر المميز له في الوجود آناً . وقيل إن الآن فصل بين
الزمانين (في نسخة : فنقول) أما بالطبع فبين الماضي والمستقبل ، وأما
بالعرض فبين أي زمانين عينتهما ، فهو في امتداد الزمان كالنقطة في الخط .
وقيل إن الآن هو الذي يوجد من الزمان ، ولا يوجد زمان ألبته ، أي لا يقر

(١) أبو البركات البغدادي : « المعتبر في الحكمة » ، ج ٢ ، ص ٧٨ —

منه شيء يتجدد بآئين ، بل الموجود آن على التتالي . وهو ما لا ينقسم من الزمان . كما أن النقطة من الخط مالا تنقسم ، بل هي بداية ونهاية (قارن بهذا ما يقوله أرسطو : « السماع الطبيعي » ، ١٢١٨ ، ٨ - ٣٠) .

« ولم يرض بهذا الرأي المدققون . قالوا : لأن الزمان منقسم ، ولو كان مجموع آئات ، لقد كان يجتمع مما لا ينقسم ما ينقسم . وهذا محال . فدخول الزمان في الوجود دخول ما هو في السيلان . وإذا أردت أن تمثله بمثل رأس إبرة دقيق يخط به خط ، فكل ما يلقاه من الخطوط فيه إنما هو نقطة . فهو يلاقى نقطة بعد نقطة ، لكنه لا يَقَرُّ على نقطة ، بل يتحرك : فأى موضع وقفته . كان نقطة ، وفي أى موضع حركته ، تنوهم النقطة نوهماً ، ولا تجدها واحدة بعد أخرى . فهكذا تتصور الآن في الزمان . واستمرار الزمان على الوجود كاستمرار خيط تجره على حد سيف بالعَرَض ، ويُفَرَضُ حدُّ السيف كالوجود ، والخيط كالزمان ، فكله يأتى حد السيف ؛ لكن لا يلقى منه إلا حداً بعد حد ، ونقطة بعد نقطة ، ولا يَقَرُّ على نقطة ، بل يتصل في اجتيازها . فكذا يستمر الزمان . . .

« والزمان يلقى الموجود بالآن ، فلولاً الآن لما دخل الزمان في الوجود على الوجه الذى دخله . وليس دخوله بأن يتلو آنا ، بل بأن يستمر منجرّاً على الاتصال ، ففى التفت إليه ملتفت ، أو اعتبره معتبر ، أو وقته موقت ، وجد الداخل الوجود منه هو آن ، لا زمان . فأما أن الآئات لا تتتالي حتى يكون منها الزمان ، فكما لا تتتالي النقط فيكون منها خط ، لأنها ما لا تنقسم ، ومجموع ما لا ينقسم ينقسم (وهو هنا الخط) ، فهكذا يتصور الزمان في وجوده وتصوره .

« ومن الناس من رد هذا القول واستشعنه (وفي نسخة: استبشعنه) بأن قال : كيف يقال عن الزمان الذى لا يتصور وجود شيء إلا فيه إنه لا وجود له ؟ بل وله وجود أسبق وأحق من وجود كل ما يوجد فيه ، وذاته باقية

لا تتغير ، وذلك هو الدهر . وإنما تبدله وتغيره بالنسبة إلى المتبدلات المتغيرات ، كما تمثلنا به من حركة الخيط على حدة السيف ، ولولا تبدل أحوال الموجودات عليه وبالنسبة إليه ، لقد كان يكون دواماً سرمداً واحداً لا يعلم هو ولا شيء منه .

وهذا النص وثيقة من أحسن الوثائق التي سجلت النقاش الذي دار حول فكرة الزمان وصلته بالآن، خصوصاً في الأوساط الأفلاطونية المحدثة والمثالية المعاصرة لها والتالية عليها مباشرة . وليس المجال الآن مجال إبراز المدلول التاريخي لهذه الوثيقة الهامة كصورة صادقة للأفكار التي وصلت إلى العالم الإسلامي متعلقة بالزمان وما أثير حوله من مشاكل هي أصداء لمناقشات الأوساط الآتفة الذكر - فهذا بحث تاريخي لعننا أن نقوم به يوماً قريباً في بحث مستقل (١) . ونحن هنا لسنا بصدد العرض التاريخي ، بل العرض النقدي الخالص ، أي أن الذي يعيننا هنا هو تحليل الأفكار التي تفي بغرضنا في هذا البحث ، ألا وهو تحليل فكرة الزمان وصلته بالوجود . لذا لا يعيننا هنا إلا أن نستخلص الفكرة الرئيسية في هذه المناقشات . فنقول إن أهم ما في ذا النص عبارتان : الأولى قوله : « وقيل إن الآن هو الذي يوجد من الزمان » ولا يوجد زمان ألبتة ، أي لا يقر منه شيء يتجدد بآنين ، بل الموجود آن بعد آن على التتالي ، والرد عليها من جانب هؤلاء الذين نعتهم هنا « بالمدققين » الذين لم يوافقوا على هذا القول : « لأن الزمان منقسم ، ولو كان مجموع آنات ، لقد كان يجتمع مما لا ينقسم ما ينقسم ؛ وهذا محال . فدخول الزمان في الوجود دخول ما هو في السيالان » . ثم

(١) راجع في هذا موقفاً : سلمون بينس : « مذهب الجوهر الفرد في الاسلام » ، ص ٤٩ - ٥٦ ، برلين سنة ١٩٣٦ ؛ ومقال ت. دي بور في « دائرة المعارف الاسلامية » تحت مادة : زمان ؛ وبول كروس : « جابر بن حيان » ص ١٤٢ - ص ١٤٣ ، تعليق رقم ٤ القاهرة ، سنة ١٩٤٢ . وراجع قبل هذا : دوهم « نظام العالم من أفلاطون إلى كوينيك » : ج ١ ، ص ٢٧١ - ص ٢٧٥ .

قوله : « كيف يقال عن الزمان الذى لا يتصور وجود شيء إلا فيه إنه لا وجود له ؟ بل له وجود أسبق وأحق من وجود كل ما يوجد فيه ، وذاته باقية لا تتغير ، وذلك هو الدهر » ، وهذه هى العبارة الثانية التى نريد هنا إبراز معناها .

أما العبارة الأولى والرد عليها فيثيران مشكلة الاتصال والانفصال فى الزمان ، واجتماع الزمان المتصل من آنات منفصلة غير قابلة للقسمة ، وهى المشكلة التى رأينا أرسطو يعرضها فى بدء بحثه كإشكال أو شك يَرِدُ على فكرة الزمان (١٢١٨ ، ٦ - ٣٠) ؛ وعرفنا كيف أن أرسطو قد ترك المشكلة من غير حل واضح ، ولخص فى النهاية رأيه بطريقة عامة سلبية فقال فيما يتعلق بالصلة بين الآن والزمان : « فالآن إذن بوصفه حداً ليس هو الزمان ، وإنما هو عرض ؛ وبوصف أنه يعد ، هو عدد ؛ وذلك لأن الحدود لا تنسب إلى الأشياء التى هى حدود لها ؛ وعلى العكس ، فإن عدد هذه الخيول ، العشرة ، يوجد خارجها » (١٢٢٠ ، ٢١ - ٢٤) . ومعنى هذا فى نهاية الأمر أن الآن لا يوجد فى الزمان بمثابة جزء منه ، بل يوجد خارجه . ويمكن أن نفسر « خارجه » هنا على نحوين : فإما أن يقصد بهذا ما يقصده أفلاطون من أن الآن خارج الزمان ، ومعنى هذا أنه ينتسب إلى وجود أبدي أزلى يشابه وجود الأشياء السرمدية ؛ ونكون بهذا التفسير فى جو أفلاطونى خالص . وإما أن نفسر هذا القول بمعنى أن الآن بوصفه وسيلة العد ، كما قلنا من قبل ، يوجد خارج أجزاء الزمان المعدودة ، أعنى فى النفس العادة ؛ وتبعاً لهذا التفسير الثانى سنقول إن الزمان ، بحسبان أن وحدة العد فيه هى الآن (راجع : ١٢٢٠ ، ٤) لا يقوم إلا فى النفس ، وبهذا نفسر الآن على أنه تصور ذهنى وهى مجرد ، أو على نطاق أوسع ، فنقول إن وجود الزمان متوقف على وجود النفس ، ونكون بذلك قد حللنا المسألة حلاً مثالياً .

ونحن نرى أرسطو في الواقع يدور حول هذا التفسير الثاني مراراً عدة ، ثم يثيره بشكل صريح فيقول : « إن تمت مشكلة محيرة ، ألا وهى : هل الزمان يمكن أن يوجد دون النفس أو لا يمكن ؟ وذلك لأنه إذا لم يكن تمت شئ بعد ، لن يكون تمت معدود ، وبالتالي لن يكون تمت عدد ؛ لأن العدد هو ما يعدّ ، أو ما يمكن أن يعد . ولكن إذا لم يكن تمت شئ يستطيع بطبعه أن يعد إلا النفس ، وفى النفس ، العقل ، فإنه لا يمكن أن يوجد زمان حينئذ بغير النفس ، اللهم إلا ما هو موضوع الزمان ، كما يقول المرء مثلاً إن الحركة يمكن أن تكون دون النفس » . ويجب عن هذا الشك بإجابة غير واضحة كل الوضوح فيقول مباشرة : « إن المتقدم والمتأخر فى الحركة ، ومن حيث أنه قابل لأن يعدّ ، يكون الزمان » (٢٢٣ ، ٢١ - ٢٩) . وهذه الإجابة معناها أن الزمان يمكن أن يوجد دون النفس . والواقع أن من الواجب أن نحسب هذه هى الإجابة الحقيقية التى أدلى بها أرسطو ، وأن التفسيرات التى حاول بها بعض المؤرخين أن يقربوا فيها بين أرسطو وبين المثاليين المحدثين ، مثل كَنت خصوصاً ، لا تقوم على أساس صحيح . وما كان ينتظر من أرسطو أن يقول غير هذا ، لأنه لم يكن على حالٍ من الذاتية تسمح له بالقول بأن الزمان لا وجود له إلا بالنفس ، وبالتالي ، فى النفس (١) .

فلماذا ترجح ، بل ثبت ، لدينا إذن أن التفسير الثاني لا يمكن الأخذ به بهذا المعنى المثالى الواضح ، فإنه لم يَبْقَ لدينا إذن غير التفسير الأول للآن ، وهو أن الآن خارج الزمان .

وهذا التفسير يقودنا إلى مسألة الوجود فى الزمان ، وهى مسألة يختلف الحل فيها تبعاً للأشياء التى نتحدث عن وجودها فى الزمان ، فأولاً يلاحظ

(١) راجع رأيتنا فى هذه المسألة وما أثير حولها فى كتابنا : أرسطو ص ٢٢٠ -

ص ٢٢١ ، القاهرة سنة ١٩٤٣ . وراجع كذلك تسلر : « فلسفة اليونانيين » ط ٣ (سنة ١٨٧٩) ص ٤٠١ ، وما يليها .

بالنسبة إلى الحركة أن الحركة تقاس بالزمان ، وأن الزمان هو الآخر يقاس بالحركة ، لأن كلا منهما يحدد الآخر ؛ والوجود في الزمان بالنسبة إلى الحركة إذن معناه أن تكون الحركة مقيسة بالزمان ، سواء في ذاتها وفي وجودها ، لأن الوجود والماهية شيء واحد بالنسبة إلى الحركة وإلى كل موجود في تغير وحركة ، كما لا حظ الاسكندر الأفروديسي^(١) . أما بالنسبة إلى بقية الأشياء ، غير الحركة ، فإن الوجود في الزمان معناه « أن تكون هذه الأشياء مقيسة في وجودها تحت تأثير الزمان . فالوجود في الزمان يمكن أن يفهم على نحوين : الأول الوجود حين يجري الزمان ، والثاني الوجود على النحو الذي نقول به إن بعض الأشياء في العدد ؛ فهذا معناه أن الشيء جزء أو شيء متأثر بالعدد ، وعلى وجه العموم أنه بعض من العدد ؛ أو أن هذا الشيء في عدد . فلما كان الزمان عدداً ، فإن الآن والمتقدم وكل ما هو من هذا القبيل هو في الزمان ، مثل ما الوحدة والفرد والزوج في العدد ؛ فهذا في الواقع بعض من العدد ، وذلك بعض من الزمان ؛ وبالمعنى الثاني ، الأشياء في الزمان كما في العدد . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإنها مشمولة بالعدد كالأشياء التي في المكان ، فإنها مشمولة بالمكان . ومن هذا يرى أن الوجود في الزمان ليس معناه الوجود مع الزمان ، كما أن الوجود في الحركة وفي المكان ليس معناه الوجود حالما يكون المكان والحركة موجودين وإلا فإنه إذا كان الوجود معناه هذا ، فإن كل الأشياء ستكون في أي شيء كان ، فالسماء مثلاً في حبة التبر ، لأن حبة التبر توجد مع السماء » (٢٢١) ، (٨ — ٢٢) . فالوجود في الزمان بالنسبة إلى هذه الأشياء إذن يشابه الوجود في العدد ، أو الوجود في المكان ، أي بمعنى أن الزمان يشمل في داخله هذه الأشياء كما يشمل المكان الأشياء المتمكنة فيه .

(١) كما أورد ذلك سنبلقيوس في شرحه على « السماع الطبيعي » لأرسطو ،

ص ٧٣ س ٢٩ ، نشرة هـ . ديلز — برلين سنة ١٨٨٢ ، سنة ١٨٨٥ .

ولهذا فإن الأشياء السرمدية ليست في الزمان ، لأن الزمان لا يشملها ولا يقيس وجودها . والدليل على هذا أن الزمان ليس له أى أثر فيها ، وما هذا إلا لأنها ليست فيه (٢٢١ ب ، ٣ - ٧) .

وكذلك الحال أيضاً في اللاموجودات ، ويقصد بها أرسطو النسب الرياضية خصوصاً ، مثل قابلية قياس القطر مع الضلع . فهذه أيضاً كالأشياء السرمدية ليست في الزمان ، لأنها لا تتضمن حركة أو سكوناً .

والنتيجة لهذا إذن هي أن كل ما هو خاضع للكون والفساد ، وعلى العموم كل ما يوجد تارة ولا يوجد أخرى هو بالضرورة في الزمان ، لأن ثمت زمناً أكبر يفوق وجودها (٢٢١ ب ، ٢٨ - ٣١) . أما ما لا يخضع للحركة ، فلا يوجد في الزمان ، وهذا واضح من كون الزمان مرتبطاً بالحركة على النحو الذى رأيناه ، فحيث لا حركة لا زمان . ففى أى شيء يوجد إذن ؟ لا بد أن نقول إنه يوجد في الآن .

ولكن هذا كله لا يحل المسألة في شيء . فقد بقيت فكرة « الآن » غامضة كل الغموض ، وفكر أرسطو عنها متردد بين أن يجعل الوجود الحقيقي للزمان في الآن ، وبين أن يدع الآن خارج الزمان . ولكنه إلى الوضع الأول أقرب ؛ وهذا ما هو معبر عنه في نص أبى البركات في قوله : « إن الآن هو الذى يوجد من الزمان ، ولا يوجد زمان البتة ، أى لا يقر منه شيء يتجدد بآنين ، بل الموجود آن بعد آن على التتالى » ، وفي شرحه له من بعد حين يقول : « والزمان يلقي الموجود بالآن ، فلولاً الآن لما دخل الزمان في الوجود على الوجه الذى دخله » . إذ يظهر أن هذا القول لا بد أن يكون أبو البركات قد أخذه عن بعض الشراح المشائين . وعلى كل حال ، فإن أرسطو كان يرى أن الزمان يستمد وجوده الحقيقي من الآن ، وذلك لأن الآن هو الحاضر ، والحاضر هو وحده الموجود ، بينما الماضى كان وليس بعد ، والمستقبل لم يأت بعد . فالحل إذن للإشكال الأول الذى عرضه في

أول حديثه عن الزمان ، حين قال إنه يبدو أن الزمان لا يوجد مطلقاً ، أو على الأقل ليس له إلا وجود ناقص غامض ، وذلك لسببين : الأول أنه كان ولم يُعَدَّ بعدُ ، كما أنه سيكون وليس بعدُ ، فهو إذن مكون من لا موجودات ، وما هو كذلك لا يشارك في الجوهر ، وبالتالي في الوجود ؛ والثاني ، وهو سبب يرتد إلى الأول في نهاية الأمر ، أن وجود أى شيء قابل للقسمه يستلزم بالضرورة وجود كل أو بعض أجزائه ، بينما نرى أن أجزاء الزمان بعضها كان ، والأخرى ستكون ، ولا جزء منه حاضر موجود ؛ ومع هذا فإن الزمان شيء قابل للقسمه — نقول إن هذا الإشكال لا يمكن أن يحل على أساس جعل فكرة الآن هي الفكرة الرئيسية في فهم طبيعة الزمان ، وهذا لا يتم إلا بالنظر إلى الزمان على أنه مكون من آتات متوالية ، وذلك أن كل آن حاضر ، وما هو حاضر موجود ، فالزمان سيكون إذن ، على أساس أنه مركب من آتات ، موجوداً . فإذا كان لنا إذن أن نقول بأن الزمان موجود ، فلا مناص من النظر إليه على أنه مركب من آتات متتالية ، وهذا ما عبر عنه كلام أبي البركات بدقة ووضوح في قوله : « الزمان يلقى الموجود بالآن ، فلولا الآن لما دخل الزمان في الوجود على الوجه الذي دخله » . لأنه لولا الآن لما كان ثمت حضور ، وإذا لم يكن حضور ، فلا وجود ، وبهذا لا يدخل الزمان في الوجود إلا بواسطة الآن ، أو بعبارة أخرى على صورة الحاضر .

حقاً إن الآن بهذا المعنى مثير لكثير من الإشكال كما رأينا من قبل ؛ ولكن ليس في الوسع أن يُتصور حقاً إلا على هذا الأساس ، إذا شئنا أن نضيف إلى الزمان وجوداً . وهذا ما فطن له أفلاطون وأشار إليه بوضوح ، دون أن يتلفع بالتردد والغموض كما فعل أرسطو . فقال ، كما قلنا آنفاً ، إن الحاضر ، أو الآن ، لحظة غير معقولة ، لأنها تفترض البقاء ، ولو أقصر مدة ، فيما ليس بكائن إطلاقاً ، بل في تغيير مستمر أبداً (« طيماوس » ، ٣٨ ب) ؛ وتجعل من الآن شيئاً محدداً ، مع أنه ليس في ذاته بشيء . والحق

أن أفلاطون كان في هذه الناحية - إن لم يكن في كل النواحي - أجراً من أرسطو كثيراً ، فواجه مشكلة الآن بوضوح وشجاعة ، وأعلن أنه لحظة غير معقولة ، ولكنها وحدها الحقيقية : والجوهر السرمدي والواحد والصور توجد هي وكل ما هو أزلي أبدي فيها ؛ بل الوجود الحقيقي لا يقوم إلا بها والحق أيضاً أن أرسطو ، على الرغم من تفصيله للمسائل التي تتضمنها مشكلة الزمان ، وعلى الرغم من الأبحاث الظاهرية الدقيقة التي قام بها حول هذه الأفكار المشتملة في فكرة الزمان: مثل « في الحال » أو « حالا » و « ذات يوم » ، « وعما قليل » ، « وحديثاً » و « فجأة » ، نقول إنه على الرغم من هذا ، فإن أرسطو ترك مشكلة رئيسية جداً في الزمان هي مشكلة الآنات المكونة لوجوده من حيث حقيقة كل ، وأنها أهم من الآخر ، أو بالأحرى أيها الأصيل : المستقبل أم الماضي أم الحاضر .

وقد تكون المسألة في عدم الاهتمام بهذه المشكلة أنها مسألة قد فرغ منها وليست مشكلة ، فرغ منها على نحو ما بينه أفلاطون من أن الحاضر هو اللحظة الرئيسية الأصلية في الزمان . وهي فعلاً مسألة لا تحتاج إلى بحث بالنسبة إلى الروح اليونانية كلها . فإن نظرة هذه الروح إلى الزمان كان من شأنها أن تجعل من الحاضر الآن الأصيل في الزمان ؛ فهي روح مرتبطة باللحظة الحاضرة قد ألهمت الجسم المنعزل والآن الحاضر ، وكما يقول اشبنجر : « إن الوجود القديم (أي اليوناني) . . . كان محصوراً بأسره في اللحظة الحاضرة . ولم يكن ثمة شيء يدفع به في الماضي والمستقبل . . . والروح القديمة يعوزها العضو الخالص بالتاريخ ، أعني الذاكرة . . . يعوزها الزمان » (١) ، أعني الزمان بآناته الثلاثة ، وخصوصاً المستقبل . والموجود الحقيقي عند هذه الروح هو الحاضر ، ولذا فإنها في تفسيرها للوجود لم تراع غير الآن الحاضر ، ضاربة صفحاً عن المستقبل والماضي .

(١) اشبنجر : « انحلال الغرب » ج ١ ، ص ١٧٢ ، منشئ سنة ١٩٣١ .

وهذا ما لاحظته هيدجر (١) على فكرة الزمان عند اليونان، وعند أرسطو بوجه خاص ، فقال : « إن من الممكن أن نبين أن هذا التحليل للزمان (الذى قام به أرسطو) مقود بفهم الوجود — غير مشعور به في علميته — على أساس أن الوجود حاضر مستمر ؛ وتبعاً لهذا ، فإنه يعرف وجود الزمان بواسطة «الآن» ، أى بواسطة هذا الطابع من الزمان الذى يجعل منه دائماً حاضراً ، وهذا هو الوجود الحقيقى بالمعنى القديم » (٢) . وفى موضع آخر أورد تعريف أرسطو وشرحه بأن قال : (الزمان هو «المعدود» ، أى ما هو مشار إليه فى حضرة العقرب السائر أو «الظل») ، أى أن الزمان هو العدد المقروء فى كل لحظة حاضرة يمر بها العقرب السائر فى الساعات العادية أو الظل فى المزولة ؛ كما أن هذا التعريف يتحدث عن « حضور التحرك فى حركته : «الآن هنا، الآن هنا، الخ» ؛ فالمعدود هو الآنات. وهذه تظهر فى « كل آن على شكل «حالا- ليس - بعد» و «حالا- ليس بعد- حاضراً» . ونحن نسمى هذا الزمان العالمى «المرئى» فى الساعات على هذا النحو باسم الزمان الآتى (٣) » ، أى أن الزمان الارستطالى على هذا التعريف هو الزمان الطبيعى ، زمان الساعات ، المكون من آنات متوالية ، كل آن منها يكون حاضراً ، والزمان تبعاً لهذا مكون من حاضرات متوالية .

وعن هذه الفكرة فى الزمان صدرت أيضاً فكرة السرمدية . فقد رأينا كيف أن أفلاطون نظر إلى الجواهر السرمدى على أنه حاضر باستمرار ، أو « كائن » خالص ؛ ثم كيف جعل السرمدية توجد فى الآن . وهذا يمكن أن يفسر على أساس أن الآن ، كما قلنا ، ليست فيه حركة ، ولا سكون بمعنى انعدام الحركة ، بل فيه ثبات مستمر ، أو حضور مستمر ليس فيه انتقال إلى مستقبل أو صدور عن ماض . فالآن الحاضر هو الآن الخالى من

(١) هيدجر : « كنت ومشكلة ما بعد الطبيعة » ، § ٤٤ ، فرنكفورت على

المين ، سنة ١٩٣٤ .

(٢) هيدجر : « الوجود والزمان » ، ص ٤٢١ - ص ٤٢٢ .

كل حركة ، وبالتالي من كل أجزاء الزمان الدالة على الحركة : وهى المتقدم والمتأخر ، أو الماضى والمستقبل ؛ والسرمدية هى الحضور الدائم ، بمعنى الثبات وانعدام الحركة والتغير ، والسكون بالمعنى المفهوم عادة . فمن الطبيعى إذن أن يقال إن السرمدية فى الآن . وإذا كان الزمان مكوناً من آتات متوالية . فالوجود الحقيقى فيه وجود حاضر باستمرار ، ما دام موجوداً فى الآن . وهذا فى الواقع ما تنبه إليه زينون الإيسلى فى حجة السهم وحجة الملعب على وجه التخصيص . ولم يستطع أرسطو فى رده عليه أن يجتاز هذه العقبة الكأداء ، أعنى الآن . وطالما كنا نقسم الزمان إلى آتات متوالية ، فحجج زينون ستظل قائمة على الدوام لن ينال منها أى نقد . وهذا ما أجاد فهمه أفلاطون فى محاوره « برمنيدس » (١٥٤ - ١٥٧ ب) . فإذا كنا نريد أن نتخلص من نتائج هذه الحجج ، فليس أمامنا إلا أن نرفض أولاً هذا الافتراض الأصيل ، وهو أن الزمان مكون من آتات متوالية (١) .

أما إذا أبقينا عليه ، فليس أمامنا إلا أحد أمرين : فإما أن ننكر الحركة ، وهذا ما أثبتته زينون بحججه وأراداه الإيليون ، واضطر أفلاطون إلى الأخذ بشئ منه ؛ وإما أن نفسر الحركة تفسيراً آخر ليس من شأنه أن يفترض بالضرورة وجود الزمان بالمعنى العادى . وهذا الوضع الثانى هو ما اختارته الأفلاطونية الحديثة .

فقد فرق هؤلاء بين نوعين من الزمان : زمان طبيعى *φυσικὸν χρόνον* ، وهو الذى عناه أرسطو فى تعريفه ودافع عنه المشائيون ؛ وليس فى الواقع إلا أثراً من آثار الزمان الثانى ، أعنى الزمان الأصيل الحقيقى الأول *πρωτον χρόνον* . وأول من لفت النظر بوضوح إلى هذا الزمان الأصيل هو أفلوطين . فنحن نعرف أن العالم المعقول عند أفلوطين يتكون من ثلاثة جواهر أو

(١) راجع كتابنا : « ربيع الفكر اليونانى » ، ص ١٧٣ - ص ١٨١ ، ص ٢٦٢ -

أقانيم : هى الواحد ، والعقل ، والنفس الكلية ، أما الأول والثانى فثابتان مطلق الثبات ، سرمديان ، باقيان على حالهما باستمرار يحيطان ولكن حياتهما ستكون دائم . أو بعبارة أدق ، نقول إن الأول الواحد لا يتحرك ولا يتغير على وجه الإطلاق ، بينا العقل ، الصادر عن الأول ، يقوم بعملية هى عملية تعقله للأول الواحد ولنفسه ، مما من شأنه أن يصدر عنه الأقسام الثالث ، أعنى النفس الكلية . وعملية التعقل هذه ، هى بالضرورة حركة ؛ ولكنها حركة من نوع يختلف عن الحركة عند أرسطو وعند الجمهور ، إذ هى حركة لا تتضمن أى تغير ، حركة معقولة لا حركة طبيعية . ومع هذا فإننا لم نصل بعد إلى الزمان . وإنما الزمان الأول أو الأصيل يوجد فى الأقسام الثالث ، أعنى النفس الكلية . فإن هذه تتصف بالحياة ، وبالتالي بالتغير الدائم ، ونقصد بالحياة هنا الحياة بالمعنى العادى المفهوم ، وهذه الحياة تيار مستمر فيه انتقال متصل بين حال وحال ؛ وتلك هى حركة النفس الكلية . فللنفس الكلية إذن حياة هى تغير دائم من حال إلى حال ، ومن فعل إلى فعل ؛ وهى مماثلة لتلك الحياة العليا الموجودة فى الأول الواحد وفى العقل . وهذه الحياة التى للنفس الكلية هى التى تكون الزمان الأصيل . ولما كانت محاكاة للحياة العليا ، وهذه سرمدية ، فإن الزمان الأول أو الأصيل محاكاة وصورة للسرمدية : فهذا الزمان يحاكي الكلية الحاضرة ، والمعية الدائمة ، واللائهائى الحاضر بالفعل ، التى هى من شأن الأول والعقل . « والزمان يحاكيها لأنه يريد دائماً أن ينضاف نماء جديد إليه . فهذا النحو من الوجود هنا (أى فى النفس الكلية) يحاكي ذلك الموجود فى أعلى (أى فى الواحد والعقل) . فلنتجنب إذن أن نبحث عن الزمان خارج النفس الكلية ، كما علينا أن نتجنب نشدان السرمدية خارج الموجود الأكمل (١) » . وإذا كان الأمر على ذا النحو ، فليس لنا إذن أن ننشد الزمان فى النفس الجزئية الخاصة بكل فرد . وفى هذا يقول أفلوطين : « هل الزمان فينا ؟ أم هو بالأحرى

(١) أفلوطين : « التساعات » الثالثة ، م ، ٧ ، ف ، ١ .

في تلك النفس الكلية ، الباقية على حالها في كل شيء ، والتي تضم وحدها كل النفوس ؟ ولهذا فإن الزمان لا يتفتت» (١) ، أى لا توجد أزمنة مختلفة ، بل زمان واحد فحسب .

ويفصل تلميذه فورفوريوس هذه النظرية فيقول إن العقل يتعقل دفعة واحدة ، والأشياء كلها حاضرة فيه معاً دائماً ؛ ومثل هذه المعرفة ليس فيها انتقال . أما النفس فتتعقل على درجات وتسلسل ؛ بأن تنتقل من تصور إلى تصور آخر ، وبذا تغير دائماً من تصوراتها ، والأشياء لا توجد فيها دفعة واحدة حاضرة بالفعل ، بل توجد فيها على صورة سلاسل من التصورات التي يتلو بعضها بعضاً . ومن هنا فإنها في حركة ، حركة باطنة مع ذلك ، لأن الأشياء التي تتألى فيها ليست أشياء صادرة عن الخارج وتعود إلى الخارج ، بل هي تصورات باقية في داخلها باستمرار ، تتأملها النفس واحدة بعد أخرى ، وهي بهذا تتحرك حركة دائرية فيها عَوْدٌ على نفسها باستمرار « فهي شبيهة بنبوع لا يفيض في الخارج ، بل يصبُّ في داخله باستمرار ، على شكل دورى ، الماء الذى فيه » (٢) . وهذه الحركة هي المكوّنة للزمان . والزمان عند فورفوريوس لا ينفصل عن النفس الكلية ، كما أن السرمدية لا تنفصل عن العقل . وهذا الزمان يمكن أن ينظر إليه على أنه ذو دورات ، كدورات الكواكب المختلفة ، غير أن هذه تحاكي تلك وتلتئم في داخلها ؛ وكل دورة من دورات النفس الكلية تكوّن السنة الكبرى .

ذلك هو الزمان الأصيل عند أفلوطين وتلميذه : فهو حياة النفس الكلية سواء ، وهو تبعاً لهذا معقول يكاد أن لا ينتسب في شيء إلى المحسوس

(١) المرجع السالف ، ف ١٢ .

(٢) فورفوريوس : « أسباب بلوغ العقولات » *πρός τα νοήτá ἀφορμή*

ف ٤٤ . وراجع في هذا كله : دوهم : الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٢٤٦ -

بعكس الزمان الطبيعي الذي قال به أرسطو وتلاميذه من المشائين ، حين نشدوه في الحركات والتغيرات الجارية في العالم المحسوس . وفي هذا نرى بوضوح عوداً إلى ما قاله أرخوطاس الترنقي ومن بعده أفلاطون . وصفة المعقولة هذه هي المميز الحقيقي الوحيد تقريباً بين فكر أرسطو وفكر هؤلاء ؛ فإن أرسطو هو الآخر قد قال بزمان كلي .

ذلك أنه تساءل في آخر بحثه في الزمان (« السماع الطبيعي » ، ١٢٢٣ ، ٢٩ - ١٢٢٤ ، ٢) عن الحركة التي يعدها الزمان « فقال : هل هو عدد لأية حركة كانت ؟ وأجاب بالسلب ، لأنه رأى أن الزمان يجري فيه كل نوع من أنواع الحركة . وإذا كان كذلك فإنه ليس عدد واحد واحد منها ، بل عدد الحركة المتصلة ؛ وفضلاً عن هذا فإنه لو كان هناك زمان خاص بكل حركة ، لكانت هناك أزمنة عدة ، ولوجدت معاً أزمنة متساوية ، ولكن الزمان واحد في كل حال . فلا بد من البحث عن حركة أولى تكون المقياس لكل الحركات ، وبها يقاس الزمان ؛ ولما كان الزمان متصلاً ، فلا بد أن تكون متصلة ، والحركة الوحيدة المتصلة هي الحركة الدائرية على نحو النقطة ، وهذه الحركة الدائرية المنتظمة هي حركة الفلك ، وعلى هذا فإن الحركة التي يعدها الزمان هي إذن حركة الفلك . بل لا يكتفى أرسطو بهذا ، بل يقول - وإن كان هنا يتصنع الشك ، وهو تصنع زائف من غير شك - إن هذا الزمان على هيئة دورة ، « ويبدو أنه نوع من الدائرة » (٢٢٣ ب ، ٢٩) . ومعنى هذا بصريح العبارة أن أرسطو انتهى إلى ما انتهى إليه أرخوطاس وأفلاطون من قبل ، من أن هناك زماناً كلياً عاماً هو الحركة العامة للكون أو حركة الفلك . ولا يجدى في إنقاذه من هذا كل هذا اللف والدوران والشك المصطنع الذي يلجأ إليه هنا . خصوصاً إذا لاحظنا ما أشرنا إليه في بدء شرحنا لمعنى الزمان عند أرسطو ، من أن المقدمات التي يسوقها تفترض هذا المذهب افتراضاً ، مذهب الزمان الكلي المقيس

بحركة الفلك . ولذا نجد أكثر الشراح ، وعلى رأسهم ثامسطيوس (١) ، يرى أن الحركة التي يعدها الزمان هي الحركة العامة للكون . والفارق الوحيد بين أرسطو وبين هؤلاء هو أن أرسطو قال بصراحة ووضح إن الزمان « عدد » أو « مقدار » هذه الحركة ؛ أما هم فلم يذكروا كلمة « عدد » بصراحة ، فيما عدا أرخوطاس كما رأينا . وبهذا المعنى وحده يمكن أن نفهم حركة اللوم الساخر التي أبداه أرسطو ضد خطأ هؤلاء الذين زعموا أن الزمان هو حركة الكون ، والآخرين الذين ادعوا أنه الفلك بعينه « (٢١٨ ، ٣٤ - ٢١٨ ب ، ١) ؛ وإن كنا لا نفهم على وجه التدقيق من هم هؤلاء الذين عناهم بهذا القول ، ولماذا لم يذكر رأى أرخوطاس ، مع أنه رأى كراهه بالدقة ، إذا كان ما أورده لنا عنه سنبليقيوس صحيحاً ؛ وعلى كل حال ، فهذا أيضاً لا يبرر لهجة الاستخفاف التي استعمالها أرسطو هنا حين نعت رأى هؤلاء « بأنه من السذاجة بحيث لا يحتاج المرء إلى بيان ما فيه من إحالة وبطلان » (٢١٨ ب ، ٨ - ٩) .

وعلى كل حال ، فإن المميز الرئيسي بين نظرية أرسطو في الزمان ونظرية الأفلاطونيين هو كما قلنا طابع المعقولة الذي يضيفه هؤلاء إلى الزمان . فالزمان كما رأينا ، خصوصاً عند أفلوطين وتلميذه فورفوريوس ، ينتسب إلى العالم المعقول ، ولا ينفصل عن الأقنوم الثالث فيه ، أعني النفس ، وبالتالي يتصف بما يتصف به من معقولة ؛ وهم بهذا يضعونه في النظام الترتيبي للماهيات المعقولة غير الحسية . أما أرسطو فقد ربطه بحركة الفلك ، أى ربطه بما هو محسوس ، فهو بالتالي زمان حسي ، لا زمان عقلي أو معقول . وبهذا المعنى يجب أن نفهم تلك التفرقة التي وضعها الأفلاطونية المحدثه وأشرنا إليها منذ حين : أعني التفرقة بين زمان طبيعي هو زمان تلاميذ أرسطو ، وزمان أول

(١) ثامسطيوس : « تلخيص السماع الطبيعي لأرسطو » ، نشرة هينرش شنكل ، برلين سنة ١٨٩٠ ، م ٤٩ ، ف ١٩ ، ص ١٦٣ . وراجع دوهم : الكتاب المذكور ، ج ١ ص ١٨٦ - ص ١٨٧ .

أو أصيل هو الزمان الموجود في النفس الكلية ، والذي هو في الواقع علة الزمان الطبيعي .

وليس المجال هنا مجال متابعة هذه التفرقة في تطورها عند بقية رجال الأفلاطونية المحدثة ، مما وجد له صدى واسعاً في العالم القديم المحتضر وفي الحضارة العربية كلها بوجه عام . وإنما نجتزئ هنا ببيان الخطوط الرئيسية التي سارت فيها عند إيامبليخوس وأبرقلس ودمسقيوس . فنقول إن إيامبليخوس قد غالى في تقديره هذه التفرقة ، فلم يكتف بجعل الزمان في النفس الكلية ، كما اقتصر عليه أفلوطين وفورفوريوس ، بل جعله العلة المهيئة لحياة النفس وحركتها ، وجعله صادراً مباشرة عن العقل كالنفس الكلية سواء بسواء .

ذلك أن أفلوطين قد أخذ من قبل على أرسطو تعريفه للزمان بأنه مقدار الحركة ، وقال على العكس من هذا إن الحركة هي مقياس الزمان ، ويقصد بالزمان هنا الزمان الظاهر المرتبط بالحركة الدائرية للفلك المحيط . فجاء إيامبليخوس وأخذ على هذا التعريف أيضاً أن العدد هنا ليس العدد الصناعي الصادر من خارج ، كما يخیل إلى أرسطو . وإنما العدد في تعريف الزمان « يسبق هذا التغير في نظام العالم (١) » ، أعنى من هذا أن الزمان أسبق من الحركة . ويرهن على هذا بقوله : « إن الزمان لا يحدث تبعاً للترتيب الطبيعي لأفعالنا ، كما يزعم البعض ؛ بل بالعكس ، الزمان هو المبدأ الذي بحسبه ترتب أفعالنا ، إذ ليس من الممكن حقاً أن نقارن في أفعالنا بين حالة سابقة وأخرى تالية ، إذا لم يكن الزمان موجوداً بذاته قبل ؛ فإنه إذن يرجع إلى ترتيب الأفعال » (٢) أعنى من هذا إذن أن الزمان يسبق كل تغير ، لأن التغير لا بد أن يجرى تبعاً للزمان ، ومن هنا فإننا إذا نظرنا إلى النفس الكلية ذاتها ، وجدنا أنها في أفعالها لا بد إذن أن تكون مسبوقة بالزمان ،

(١) أورده سنبليوس في شرحه على « السماع الطبيعي » لأرسطو ، النشرة

المذكورة ص ٧٨٦ . (٢) المرجع السالف : ص ٧٩٣ .

أى يمكن أن يقال إن الزمان يسبق النفس الكلية هي الأخرى . ويقول إيامبليخوس : حقاً إننا على اتفاق مع الفلاسفة الآخرين في القول بأن تمت نظاماً للزمان ، ولكنه ليس نظاماً منظماً ، بل هو نظام منظم ، أى أنه ليس نظاماً خاضعاً لأشياء سابقة عليه منتظم هو تبعاً لها ، بل الأشياء الأخرى هي التي تنتظم تبعاً له ، وهو أقدم منها ، وهو النظام الكلى المتحقق بأكمله في مجموع المخلوقات الصادرة عن الصانع ، والصانع قد أوجده (على هيئة الصدور طبعاً) في نفس الوقت الذى أوجد فيه السماء ، وهو بهذا قد وُجد قبل حياة النفس الكلية ، لأن حياتها تجري في ترتيب الأصل فيه هو الزمان ؛ والنفس الكلية تحيا في الزمان وتتحرك فيه .

والسرمدية عنده هي الآن الحاضر (*τὸ νῦν*) ، والعقل يحيا بها ؛ كذلك تحيا النفس في حاضر غير قابل للقسمه ، أى في آن ، محاكية بذلك الآن الحاضر في سرمدية العقل الذى صدر عنه . ويرى إيامبليخوس أن السرمدية هي المقياس الكلى للموجودات الحقيقية ، بينما ينظر إلى الزمان القائم بذاته على أنه جوهر يقيس الكون والفساد ، إذ يقيس أولاً الكون الخاص بالنفس الكلية ، وبعد هذا الكون ، ما يصدر عنه ؛ ويلى هذا الزمان الطبيعى ، الموجود في نفس المرتبة التى فيها الحركة ، والذى ليس له جوهر قائم بذاته ، لأن الوجود الذى له عبارة عن أنه كائن وحادث باستمرار . والآن الحاضر غير المنقسم ينتسب إلى السكون ، فهو نوع من السكون والثبات ، وقيس حركة دائمة ، وهو العلة المولدة للزمان .

والسرمدية هي الأخرى جوهر قائم بذاته كالزمان ، وبالأحرى . فالأفلاطونيون المحدثون يميلون دائماً إلى رفع هذه المعتمولات إلى مرتبة الجواهر القائمة بذاتها . وهم هنا ، ومن أجل هذا ، يميزون بين السرمدية وبين الأشياء المشاركة في السرمدية ، أى الكائنات السرمدية ؛ كما ميزوا من قبل بين الزمان وبين الأشياء المترمنة أو المشاركة في الزمان . وهذا أوضح ما يكون

لدى أبقلس . فهو يقول في كتاب الربوبية : « قبل كل الأشياء السرمدية ، توجد السرمدية أو الدهر (*δ Αἰών*) ؛ وقبل كل الأشياء الزمانية » يقوم الزمان . ذلك أنه على وجه العموم ، الأشياء المشاركة توجد قبلها الأشياء التي تقبلها الأولى بالمشاركة ؛ وقبل هذه الأشياء المأخوذة بالمشاركة توجد تلك العارية عن كل مشاركة . فمن الواضح إذن أن ثمت فارقاً بين الكائن السرمدي ، وبين السرمدية القائمة في هذا الكائن السرمدي ، ثم بين السرمدية في ذاتها : فالأول يلعب دور ما هو مشارك ، والثانية دور ما هو مأخوذ أو مقبول بالمشاركة ، والثالثة دور ما هو خال من كل مشاركة . وبالمثل ، يختلف الشيء المتزامن أو الزماني ، لأنه مشارك ، عن الزمان القائم بهذا الشيء المتزامن ، لأنه مأخوذ بالمشاركة ، وقبل هذا يوجد الزمان الخالي من كل مشاركة . وكل واحد من هذين الشئين الخاليين من كل مشاركة ، أعني السرمدية في ذاتها والزمان (بالمعنى الثالث) ، موجود بالطريقة عينها وعلى نحو واحد كلي في الكائنات (المشاركة فيه) ، وعلى العكس من هذا نجد (أن الزمان أو السرمدية) المأخوذة بالمشاركة ليست واحدة إلا في كل موجود يتقبلها (أو يتقبله) . وثمة عدد كبير من الكائنات السرمدية ، وعدد كبير من الكائنات الزمانية ، وفي كل منها توجد السرمدية (أو الزمان) بالمشاركة ؛ وفيها الزمان منقسم ، ولكن ذلك (الزمان الخالي من المشاركة) غير قابل لأن ينقسم ، والزمان الواحد سابق على هذه الأزمنة المتعددة . فكأنه يوجد إذن ، من ناحية سرمدية السرمديات ، ومن ناحية أخرى ، زمان الأزمنة ؛ وهما أساساً (السرمديات والأزمنة) المأخوذة بالمشاركة (١) .

والأشياء المتزامنة تنقسم بدورها إلى قسمين : فبعضها يوجد في مدة محدودة من الزمان ؛ والبعض الآخر وجد على الدوام ، وليس لوجودها بدء ولا نهاية . ولكن هذا النوع الأخير ليس في مرتبة الكائنات السرمدية ،

(١) أبقلس : « الربوبية أو عناصر الثاؤلوجيا » ، ف ٥٣ . نشرة فرمان ديدو ، باريس سنة ١٨٥٥ ، ص : سط .

لأنه خاضع للتغير ، بينما الجواهر السرمدية باقية على حالها أبداً ؛ وإنما يقترب كلا النوعين من ناحية هذه الديمومة . ومن هنا فإن ثمت نوعين من السرمدية ، إحداهما سرمدية السرمدية أو الدهر ، وهي سرمدية ثابتة لا تتغير ؛ والأخرى سرمدية في الزمان ، ولكنها خاضعة للتغير ، وفي كونٍ باستمرار ؛ والأولى لها وجود مشتمل على نفسه مجموعهُ يكون وحدة ؛ والثانية تمتد وتنتشر على مدى الزمان ؛ الأولى تامة بذاتها ؛ والثانية مركبة من أجزاء متخارجة ، أى أن كل جزء خارج الجزء الذى يسبقه أو يليه . وهذه السرمدية في الزمان هي تلك الناشئة عن الحركة الدورية ، وفيها يعود الشيء من جديد دائماً إلى الحال التى بدأ منها ، وهكذا أبداً .

والواقع أن الفلسفة القديمة لم تدرك السرمدية إلا على هذين النحويين ، كما لا حظ دوهم بحق (٢) : النحو الأول هو النظر إليها على أنها ديمومة ما هو ثابت لا يتغير أبداً ، بل يظل على حاله باستمرار ؛ والثاني ديمومة ما هو دورى ، أى ما يمر دائماً بدور واحد وعلى حال واحدة . ولم تنظر إليها على نحو ديمومة شيء يتغير وهو يتجه صوب حد ، مقترباً دائماً من هذا الحد دون أن يصل إليه ، أى الديمومة التى ليست على صورة دائرة تتكرر باستمرار ، بل على صورة القطع الزائد ، الذى يقترب دائماً من الخط المقارب دون أن يصير خطاً واحداً .

وبهذا التصوير لتطور الكون في الزمان اللانهائى تختلف الفلسفة القديمة عن النظريات العلمية الحديثة اختلافاً لا سبيل إلى إزالته ، كما يقول دوهم في الموضع نفسه : سواء أكانت الصورة التى يقول بها علم القوة الحرارية الذى لا يسمح بالمرور بحالة بعينها مرتين ، نظراً إلى تناقص الطاقة باستمرار تبعاً للقانون الثانى من قوانين هذا العلم ؛ أم الصورة التى يضعها مذهب التطور

(١) دوهم : « نظام العالم من أفلاطون إلى كوبرنيك » ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

الذى ينظر إلى الأشياء وكأنها تسير في تقدم مستمر نحو غاية معلومة ، دون أن يكون في وسعها أن تبلغها أبداً .

ونستطيع نحن أن نفسر هذا الاختلاف على أساس المنهج الحضارى بأن نقول إن فكرة المتناهى كانت الفكرة السائدة عند اليونانيين ، أما اللاتناهى فقد كانت فكرته غريبة عن الروح اليونانية ، وهى لم تأت الفكر الإنسانى إلا لدى فيلون والمسيحية لأول مرة . ونقصد باللاتناهى هنا ما لا ينقطع ، بل يسير في خط مستمر لا يعود على نفسه أبداً . ولذا كانت الروح اليونانية تنظر إلى الأشياء على أنها لا بد أن تكون متناهية ، تامة في نفسها ، مقفلة على ذاتها ، ففي هذا الكمال . وتبعاً لهذا أتت بنظرتها في الكون : فهي تريد أن تتصوره مُقفلاً على نفسه ، وهذا يفسر لنا كيف ألمت دائماً إلى حسابان المكان غير متناه . أما فيما يتصل بالزمان ، فقد رأت ضرورة القول سرمديته ، فكان عليها حينئذ أن توفق بين السرمدية وبين النهائية ، فلم تجد خيراً من فكرة الدورة : ففيها في آن واحد توكيدٌ للنهائية ، من حيث أن كل دورة مقفلة على نفسها ، كما أن فيها من ناحية أخرى توكيداً للسرمدية ، لأن هذه الدورة في تكرار مستمر ، على هيئة عودٍ سرمدى . ولذا نستطيع بوجه عام أن نقول إن السرمدية التى تصورتها هذه الروح كانت ، إذا نظر إليها من ناحية الحركة والتغير ، عوداً مستمراً لدورة متكررة . وعلى العكس من هذا نجد الروح الفالوستية أو الروح الأوربية : فهذه الروح ، بتأثير المسيحية من غير شك ، قد قالت بشرف اللاتناهى على المتناهى ، واللاتناهى عندها هو الخط المستمر المفتوح باستمرار الذى لا تتكرر فيه لحظة مرتين ، بل يسير كضلع القطع الزائد إلى اللانهاية . وعلى هذا النحو تصورت الكون ، وتصورت السرمدية ، من حيث الحركة .

وهذا بدوره أثر في تقدير قيمة آتات الزمان الثلاثة بعضها بالنسبة إلى بعض . فالتصور الأول ، أعنى اليونانى ، من شأنه أن يجعل للآن الحاضر السيادة

على الآئين الآخرين لأنه يمثل الكلية والوحدة والوجود المقفل التام المغلق على نفسه ، بينما التصور الثانى يميل إلى جعل السيادة لأحد الآئين الآخرين على الآن الحاضر . والمسيحية قد حسبت حساباً للآئين معاً : ففكرة الخطيئة تحسب حساباً للآن الماضى ، وفكرة الخلاص للآن المستقبل . والروح الأوربية ، أو الفاوستية كما يسميها اشبنجلر ، اتجهت الاتجاهين تبعاً لميلها إلى هذا الجانب أو ذاك الآخر : فالذين همهم فكرة الخطيئة أكثر من فكرة الخلاص ، حسبوا الآن السائد هو الآن الماضى ، والذين شغلهم مسألة الخلاص ، جعلوا الأولوية والأولوية معاً للآن المستقبل . وكيركجورد على رأس هؤلاء الآخرين ؛ وفى إثره سار أصحاب فلسفة الوجود ، خصوصاً هيدجر .

والآن :

فلنأتنا إذا رجعنا البصر ككرة إلى ما قلناه فى هذا التحليل لفكرة الزمان عند أرسطو خاصة والفلاسفة اليونانيين عامة ، رأينا أنها مرتبطة كل الارتباط بفكرتهم فى الوجود . فالوجود عندهم فى الثبات أكثر منه فى التغير ، ولذا حاولوا دائماً أن يسلبوا الزمان طابع السيلاان والتغير الدائم ، بأن قالوا بالآن الذى لا توجد فيه حركة وجعلوه المكون الأصلى للزمان ، على الرغم مما أثاره هذا التصوير من إشكال فى فهم طبيعة الزمان . ثم لما زاد هذا الإشكال حدة ، جاءت الأفلاطونية المحدثة فحاولت إزالته ، بأن فرقّت بين نوعين من الزمان : أصيل ، وثانوى مشتق . والأصيل الحقيقى هو السرمدى المكون من آنات ليس فيها أدنى تغير ، بل تصوروا الزمان خالياً من الحركة غير مرتبط بها ، مشابهاً للسرمدية قدر المستطاع ؛ أو ليس صورة منها ومحاكاة لها ؟ والشخص الوحيد الذى نستطيع أن نستثنيه من بين هؤلاء الفلاسفة اليونانيين أجمعين ، هو ديمقوروس . فقد تعمق معنى الزمان الجارى المتغير باستمرار ، بعد أن فرق بين ثلاثة أشياء : بين السرمدية الثابتة الواحدة أبداً ، والزمان السائل باستمرار ، الذى هو فى تغير متصل . ثم شىء ثالث وسيط بينهما يشارك فى كلتا الناحيتين ، هو ما سماه أحياناً باسم

الزمان الأصيل ، الذى رأيناه من قبل عند أفلوطين وأتباعه ، وأحياناً أخرى ، يسميه باسم الزمان الجوهرى *χρόνος ἐν ὑποστάσει* ، وهذا الزمان الثالث ذو وجود ثابت قار ، شبيه بوجود السرمدية ، ولذا يوجد فى حالة وحدة وكلية ، لا فى حالة غير قارة كالزمان الثانى ، بل يحوى فى وحدة واحدة الماضى والمستقبل مع الحاضر ، بينا الزمان السائل يقسمه الآن الحاضر غير المنقسم إلى ثلاثة أجزاء . وهو بهذا إنما يفرق فى الزمان بين نوعين : زمان ذى وجود ثابت قار وزمان لا يوجد إلا على حال من السيلان الدائم ؛ وهذا الأخير هو المدرك بكل الحركات والتغيرات ، بينما الأول من الصعب أن يدرك بالعقل والبرهان .

ولكن عقلنا لا يستطيع أن يدرك إدراكاً حقيقياً هذا الزمان أو ذاك الآخر ، فهو لا يقوى على إدراك الزمان الأصيل أو الجوهرى الموجود بأكمله فى داخل الروح الكلية ، ولا يستطيع كذلك إدراك الزمان السائل باستمرار فى مجال الأشياء الدائمة السيلان والتغير . وإنما فى وسعه أن يدرك نوعاً من الزمان هو خليط من هذا ومن ذاك . فهو يقتطع فى الزمان الدائم السيلان أجزاء ذات مدة ، ويضم ما يحتويه الجزء الواحد فى تصور واحد لا يحمل بعد طابع السيلان لهذا الزمان ، بل يبدو ذا وجود ثابت قائم بذاته ، وعلى هذا النحو يجعل من الزمان السائل المتصل ، سلسلة من الوحدات الثابتة المنفصلة . والحال على هذا النحو بالنسبة إلى الحركة كذلك ، فإن عقلنا يحيلها إلى تصورات ثابتة لا تلتئم مع بعضها تمام الالتئام لتكون اتصالاً ، كما هو شأن الحركة ، فإن كل حركة متصلة - سالباً بهذا طابع السيلان من الحركة أو الوجود المتغير بوجه عام .

وليس من شك فى أنك ، أيها القارىء ، قد أحسست هنا بأنك فى جو برجسونى خالص . إذن فاسمع ما يقوله ديميتريوس نفسه ، تر أن برجسون لم يقل شيئاً فى هذا الباب غير ما قاله ديميتريوس ، لدرجة أنك لا تدري من

تقرأ : برجسون أم ديمقويوس . يقول ديمقويوس كما عرض رأيه لنا تلميذه سنبلقيوس (١) : « إن الزمان ، إذا ما نظر إليه في مجموعه ، يسيل دائماً ، والأمر كذلك في الحركة : ففي الواحد وفي الآخر نرى أننا حين نققطع حاضراً نغزو إليه وجوداً فعلياً » . حينما نجتمع في كل واحد ونجمد قطعة معينة من الواحد أو الآخر ، فإننا بهذا نقضى على طبيعة الزمان وطبيعة الحركة معاً ، لأن هذه الفكرة لا وجود لها إلا في التغير . ويبدو أن الصعوبة كلها ناشئة من أن النفس تنحو نحو معرفة الأشياء كلها على شكل أفكار منبثة فيها . ولذا فإنها تثبت الحركة نفسها إذن ، بمحاولتها معرفة الحركة على هيئة تصويرية ، بدل أن تعرفها وفقاً للسيلان الذي هو خاصية هذه الحركة ومن طبيعتها . وعلى هذا النحو تقوم باقتطاع بُضْعٍ ، وعمل تقسيمات حتى في داخل الواحد المعقول ، لأن من المستحيل بالنسبة إليها أن تفهم كليته دفعة واحدة ؛ فهي تنظر مرة إلى العدالة ، وأخرى إلى العفة ، وثالثة إلى الحكمة ؛ ومع هذا ، فإن كل فضيلة من هذه الفضائل لا توجد إلا بالكل . . . وعلى هذا النحو تسلك أيضاً بازاء الكائنات المعقولة والموجودات ذات الوحدة ، فإنها تميز تمييزات في داخل وحدتها . . . وبالمثل أيضاً ، كما يبدو ، تميل ، بفضل ثبات الأفكار القائمة بها ، إلى تجميد تيار الأشياء الخاضعة للكون والفساد : فإنها تحد مدة معينة ، تجمعها في كل واحد ، كيما تصنع منه الحاضر ، ثم بمساعدة هذا الحاضر ، تحد وتميز أجزاء الزمان الثلاثة بعضها من بعض . إلا أن عقلنا وسيط بطبعه بين الأشياء الحادثة باستمرار وبين الأشياء الثابتة أبداً ؛ ولذا فإنها تحاول دائماً أن تعرف الواحدة والأخرى وفقاً لطبيعتها الخاصة ؛ ففي هذه تضع تمييزات تحيلها إلى أشياء أقل كمالات ، ولكن طبيعتها أقرب إلى طبيعتها هي ؛ بينما تركز تلك (أى الأشياء الحادثة

(١) سنبلقيوس : الكتاب المذكور ، م ٤ : مبحث الزمان ، النشرة المذكورة ،

ص ٧٩٧ و ص ٧٩٩ . وراجع في هذا كله : دوهم ، الرجوع المذكور ، ص ٢٦٧ - ص ٢٧١ ، وعليه اعتمدنا في الترجمة .

باستمرار) في شيء أسمى مما هو حادث متغير باستمرار ، ولكنه أيسر وأقرب إلى قدرتها في المعرفة وطبيعتها الخاصة في الإدراك .

هذا تحليل قد أوفى على الغاية في العمق والدقة والطرافة . لكنه مع هذا لم يُستغلّ كما يجب ، بأن يُنظر إلى الوجود تبعاً لهذا التحليل ؛ ولكن دمسقيوس لم يفعل به شيئاً ، بل ظل سائراً على التقاليد الأفلوطينية اليونانية ، أى أنه استمر ينظر إلى هذا الزمان السائل على أنه في مرتبة أدنى من الزمان الجوهرى الأصيل ، فضلاً عن أن هذا وذاك في مرتبة أدنى من السرمدية ؛ ولذا نستطيع أن نقول إننا على الرغم من هذا لم نخرج عن فكرة الزمان والوجود كما صاغها وأدركها اليونانيون . وفضلاً عن هذا ، فإن علينا أن نتساءل في جد وإلحاح ، عن المدى الذى إليه تعبر هذه النظرة إلى الزمان عن الروح اليونانية الحقيقية ؛ فإن دمسقيوس شرقى ينتسب بالأحرى إلى الحضارة العربية الناشئة . وليس لنا إذن أن نعهده ممثلاً حقيقياً للروح اليونانية . (١)

ومن هنا نستطيع أن نقول إذن إن الروح اليونانية والفلسفة القديمة عموماً قد نظرت إلى الزمان من ناحية الثبات ، وهى في نظرتها إلى الوجود قد فعلت المثل ؛ ومنه يتضح ما بين النظرتين من ارتباط وثيق . حتى إنها في تفسيرها لمعنى الأبدية قد فهمتها أيضاً على هذا النحو ، كما رأينا ، إذ هى عندها مكونة من آن حاضر باستمرار ، والآن خال من الحركة ، ولذا خلا معنى السرمدية من كل طابع حركى .

(١) معرفتنا عن نظرية دمسقيوس في الزمان نستقيها من مصدرين : الأول : « مسائل وحلول خاصة بالمبادئ » في « برمينيدس » أنطاطون » ، وقد نشرها رى . كوب سنة ١٨٢٦ في فرنكفورت . ورله سنة ١٨٨٩ في باريس ، وشنييه في سنة ١٨٩٨ بباريس أيضاً ؛ والثانى « مباحث في العدد والمكان والزمان » ؛ وقد بقيت شذرات هامة أوردها سنبلقيوس في المرجع السابق الذكر له ، أعنى شرحه لكتاب « السماع الطبيعى » لأرسطو ، خصوصاً من ص ٧٨١ - ص ٨٠٠ في النشرة المذكورة .

كما أنها من ناحية أخرى لم تربط الزمان بالنفس الفردية . ومع أن أرسطو أثار هذه المشكلة ، كما أثارها الشراح المشائيون ورجال المدرسة الأفلاطونية الحديثة ، فإنها سرعان ما اختفت بتأثير النزعة الموضوعية المميزة لهذه الروح : فأرسطو فر من المشكلة إلى الحركة العامة للكون ؛ والأفلاطونية الحديثة أهابت ، وهي في هذا مخلصة لأستاذها الأول أفلاطون ، بالنفس الكلية القائمة بالعالم المعقول لإنقاذ الزمان من الذاتية ؛ وزاد إيامبليخوس على هذا بأن جعل الزمان جوهرأ قائماً بذاته ، سابقاً حتى على هذه النفس الكلية . فما أبعد الصلة بينه إذن وبين النفس الجزئية !

وصفة ثالثة تميز فكرة الزمان عند اليونان هي أن الآن الأساسي الأول من بين آنات الزمان الثلاثة هو الآن الحاضر ، وهذا طبيعي إذا ما لاحظنا الصفة الأولى ، أعني نظرهم إلى الزمان من ناحية الثبات ؛ فإن هذا الآن الحاضر هو وحده الذى يكفل هذه الناحية . وإذا كان أرسطو قد عني خاصة ببيان قيمة الآتين الآخرين ، حتى إنه في تعريفه للزمان قد أدخلهما حين قال : « من جهة المتقدم والمتأخر » ، والمتقدم هو الماضي والمتأخر هو المستقبل ، أما الآن الحاضر فحد موهوم ليس له أدنى امتداد ؛ — فإنه لم يتعمق هذا المعنى ولم يستخلص نتائجه ، بل سرعان ما ربط ذلك بالمكان فقال إننا نميز في المكان الذى تجرى فيه الحركة بين متقدم فى المكان ومتأخر عنه ، أى نميز تتالياً ، ولما كان الزمان مقدار الحركة أو عددها ، فإننا نميز فيه كذلك بين متقدم ومتأخر ؛ وفهم التقدم والتأخر هنا على نحو مكافئ خالص ، ولذا لم يستطع أن يدرك قيمة هذين الآتين ، واستمر على التقاليد اليونانية الخالصة .

وكانت نتيجة هذا كله أن أرسطو والفلاسفة اليونانيين عامة لم يفهموا حقيقة الزمان ، أعنى بمعنى أنه الأصل فى التناهى فى الوجود وأن الزمانية هي التناهى الموجود بالضرورة فى طبيعة هذا الوجود العيني ، وإن كانوا ،

والحق يقال ، قد أحسوا إحساساً غامضاً بهذا المعنى ، بأن نعتوا الزمان بأنه قاض على الأشياء محطماً لها . وربطوا هذا بفكرة التغير ، فقال أرسطو : « إن كل تغير مفسد بطبعه ؛ وكل كون وفساد إنما يتم في الزمان ؛ ولذا يسميه البعض حكيماً جداً ، بينا هو عند فارون الفيثاغورى جاهل أحمق جداً ، لأن النسيان لا يكون إلا به . وهذا الأخير هو المصيب ، ومن هنا نرى إذن أن الزمان هو بذاته علة فساد ، أولى من أن يكون علة كون ، كما قيل من قبل ، لأن التغير بطبعه مفسد ؛ وإذا كان مع هذا علة كون ووجود ، فليس هذا إلا بالعَرَض . والبيئة الكافية على هذا أنه لا شيء يتغير ، دون أن يحرك على نحو ما ، ودون أن يفعل ؛ وعلى العكس من ذلك ، فإن الشيء يمكن أن يفسد ويقضى عليه دون أن يحرك . وهذا الإفساد خصوصاً هو الذى نعزوه عادة إلى الزمان . والحق أن الزمان ليس علته الفاعلة ، لكن يعرض لهذا التغير نفسه أن يحدث في زمان » (« السماع الطبيعى » ، ص ٢٢٢ ب ، ١٦ - ٢٧) ، أى أن الزمان علة بالعَرَض لهذا الفساد . وواضح من هذا النص أن الزمان لم يفسر هنا على أنه الأصل في تنهاى الوجود ، إنما لارتباطه بالحركة والتغير — ارتباطاً لا ينظر إليه هنا على أنه ارتباط علة بمعلول — يمكن أن يفسر هذا التشبيه أو التصوير للزمان على أنه مصدر الفناء ، كما يظهر في أسطورة خرونوس ورسمه حاملاً في عنقه حية تعض على ذنبها باستمرار . فكلام أرسطو هنا إيضاحٌ لمعنى أسطورة أولى من أن يكون نظرة في الزمان على أنه الأصل في الفناء . وهذا واضح من نعته الزمان هنا بأنه ليس علة فاعلة ، وإنما هو علة بالعرض ، أما العلة الفاعلة فهي الحركة أو التغير ؛ ولما كان الزمان مرتبطاً بالحركة من حيث أنه يعدها ، فيمكن أن يقال إنه علة بالعرض لهذا الفساد ، أما العلة الجوهرية فإنها التغير . وحتى هذه العلة بالعرض قد نبذتها الأفلاطونية المحدثه ، حين جعلت الزمان الحقيقى علة خلق وإبداع وحياة في داخل النفس الكلية ، وليس علة إفساد بحال ما ؛ وإذا كان الزمان المشتق أو الطبيعى علة لإفساد ، فذلك لأنه غير حقيقى وفي مرتبة دنيا .

ولهذا لم تقم نظرية الوجود عند اليونانيين على أساس طابع التناهي في الزمانية . والشئ الوحيد الحدير بأن يذكر في هذا الاتجاه عندهم محاولة أرسطو ربط فكرة القوة والفعل بفكرة الزمان ، ولكنها محاولة غامضة كل الغموض لا نكاد نعثر في صددتها إلا على إشارات بعيدة (« السماع الطبيعى » ٨م ف ٨ ، ٢٦٢ - ٢٦٣ ب) لا تدل على ما نقصده هنا ، وإنما الأصل في هذه الإشارات ارتباط فكرة القوة والفعل بفكرة الحركة ، من حيث أن « الحركة هى فعل ما بالقوة بما هو بالقوة » أو بعبارة أدق « كمال ما هو بالقوة من جهة ما هو بالقوة » (١٠ - ١١) ، أو « خروج من القوة إلى الفعل لا فى آن واحد » كما يشرحه ابن سينا (١) . وواضح ما فى هذا التعريف من ارتباط الحركة بالقوة والفعل . ومن ارتباط الزمان بالحركة كان ارتباط الزمان بالقوة والفعل . ومن الغريب أن هذا الاتجاه قد وجد تعبيراً عنه واضحاً بعض الوضوح - ولا نقول واضحاً حقاً ، لأننا لا ندرى هل قصد إلى هذا فعلاً أو لم يقصد - فى كتاب : « إخراج ما فى القوة إلى الفعل » المنسوب إلى جابر بن حيان . فقد بدأ مؤلفه المجهول هذا البحث بأن ربط بين الزمان وبين إخراج الشئ من القوة إلى الفعل فقال بعد الديباجة والتحميد : « إن الزمان جوهر واحد ، وهو بلا جزء زمنى مثل الآن ، وهو جزء لا شئ فوقه ، والمتزمن بالزمان هو المتجزى لا الزمان ؛ وهو جوهر واحد أبدي سرمدى . والمتزمن ينقسم ثلاثة أقسام : ماضى ذاهب قد قطعه وجازه بدورات الشمس و (هذه الواو فى الأصل ، ونقترح حذفها ، لأن الكلمة التالية هى فاعل : قطعه وجازه) التعريف الذى نُصِب عليه (أى الشئ المنعوت بأنه ماضى) ، ودائم واقف فى الوقت الذى هو فيه ، وآت مستقبل متوقع وروده . . . فالشئ الذى هو بالقوة هو الذى يمكن أن يكون وجوده فى الزمان الآتى المستقبل كقيام القاعد

(١) ابن سينا : رسالة الحدود ، ضمن « تسع رسائل فى الحكمة والطبيعات »

وقعود القائم ، والشئ الذى بالفعل هو الموجود فى الزمان الحاضر من سائر الأفعال الكائنة كقعود القاعد وقيام القائم . « (١) فهذا النص قد يشير إلى الارتباط بين القوة والفعل من ناحية وبين الزمان ، وهذا ظاهر من ربطه ببحث القسوة والفعل ببحث الزمان حتى إنه بدأ بهذا مقدمة ضرورية - كما يظهر - لبيان كيفية إخراج ما بالقوة إلى الفعل . ولكنها إشارة غامضة يكون من التعسف الشديد أن نفهم منها هنا ارتباطاً واضحاً بين فكرة الزمان وفكرة القوة والفعل . لذا نستطيع أن نقول إن هذا الاتجاه لم يظهر بوضوح ، وبالتالي لم يستغل أرسطو ولا الفلاسفة اليونانيون عامة فكرة القوة أو الإمكان ، والفعل أو الواقع لكي يفسروا على أساسها الزمان ، أو لكي يفسروها وفقاً لفكرة الزمان ، وهو ما فعله خصوصاً هيدجر ، كما سنرى عما قليل . والحق أن فكرة القوة والفعل التى قال بها أرسطو كانت خليقة أن تفتح أمامه أبواباً واسعة من هذه الناحية ؛ ولكنها ، وينا للأسف ، قد ظلت عنده غامضة لم يستطع أن يتبين مداها ومقدار ما لها من نتائج خطيرة لو أنها حلت بعمق .

تلك إذن فكرة الزمان عند اليونان بمميزاتا الرئيسية ونتائجها بالنسبة إلى نظرية الوجود لديهم .

وعلى العكس منها قامت نظرية المحدثين ، أو هذا على الأقل ما حاولوا أن يفعلوه . فإذا كانت الخاصية الأولى فيها تنظر إلى الزمان من ناحية الثبات ، فقد جاء هيرجسون وحاول أن يدرك الزمان فى سيالته الدائم ،

(١) « مختار رسائل جابر بن حيان » ، نشر بول كروس ، ص ٣٠٧ مصر سنة ١٩٣٥ . وراجع أيضاً بول كروس : « جابر بن حيان » ، ص ٢٠٣ ١٤٣ تعليق . وليلحظ أن الزمان قد عرف هنا تعريفاً أفلاطونياً محدثاً ، فرق فيه بين الزمان الأصلي الجوهرى الواحد الأبدى السرمدى ، وبين الزمان المشارك أو المتزامن ، أو الزمان الطبيعى المنقسم إلى آنات ثلاثة .

وأن يبعد عنه كل ما يشعر بالثبات ، خصوصاً ما في فكرة الزمان من آثار لفكرة المكان . وإذا كانت الخاصية الثانية أنها موضوعية قد جعلت الزمان خارج النفس الفردية ، جوهرأ قائماً بذاته ، أو على الأقل ، عدداً ومقداراً لحركة الفلك أو لحركة الكل ، فقد أتى كُنْتُ ونظر إلى الزمان نظرة ذاتية خالصة ، بأن استبعده من الأشياء في ذاتها ومن التجربة الخارجية بما هي خارجية . ونقله من الخارج إلى العقل ، وقال عنه إنه مركب فيه بفطرته كإطار لا يستطيع أن يدرك مضمون التجربة الخارجية الحسية إلا بإدخاله فيه . وأخيراً إذا كان اليونان قد جعلوا الآن الأصيل الأساسى من بين آتات الزمان الثلاثة هو الآن الحاضر ، وتصوروا الأبدية أو السرمدية على هذا النحو ، أعنى بحسبانها حاضراً دائماً *nunc stans* فقد جعل هيدجر الآن الرئيسى هو الآن المستقبل .

ومن هذا نرى أن المحدثين قد جاءوا بنظرية في الزمان تخالف نظرية اليونان ؛ هذا إذا نظرنا إلى المحدثين ممثلين في هؤلاء الذين ذكرناهم ، وهى نظرة لا شك ناقصة ، لأنها لا تعبر عن كل المحدثين ، فضلاً عن أنها لا تكون وحدة ، إذ الفارق بين كُنْتُ ، وبرجسون ، وهيدجر ، هائل — على الأقل في الظاهر ، وإن كان التطور ملحوظاً من كُنْتُ حتى هيدجر أعنى التطور المنطقي المستمر . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن نظرية الزمان اليونانية لا زالت مؤثرة في هؤلاء أنفسهم : فكنت لا يزال يسير في آثار أرسطو ، وبرجسون لم يكده يأتى بشيء يختلف كثيراً عما قاله ديمستيروس كما أوضحناه من قبل ؛ أما هيدجر فالأمر من ناحية تأثره باليونان عسير التحديد ، ولكننا نجد مع هذا في أفكاره أصداً لما قاله بعض الأفلاطونيين المحدثين ، وإنما تأثره الواضح هو بالمسيحية على وجه العموم ، وكيركجورد على وجه الخصوص ، وإن حاول هو أن ينكر هذا ، مدعياً أنه يقتفى بالأحرى آثار يونان ، وأرسطو بنوع أخص .

وهذا الأثر الذى للمسيحية فى هيدجر ليس خاصاً به وحده ، بل إن فى وسعنا أن نعدّها من العوامل الحاسمة فى هذا التغير الذى طرأ على الفكر الإنسانى فى نظره إلى الزمان من الحضارة القديمة (اليونانية الرومانية) إلى الحضارة الأوروبية . ولا نقصد بالمسيحية هنا المسيحية بالمعنى الضيق ، أى الدين ، بل كعامل فاعل فى تكوين نظرة فى الوجود أتت بها حضارة جديدة ورثت الحضارة القديمة ، هى الحضارة العربية أو السحرية ، بالمعنى الذى قصده اشبنجلر من هذه التسمية (١) . فان روح هذه الحضارة السحرية قد أتت بنظرة جديدة إلى الزمان تخالف نظرة اليونان إلى حد بعيد.

فالنظرة اليونانية كما رأينا تنشب باللحظة الحاضرة التى تفهمها على أنها نقطة تليها أخرى ، وكل منها يكاد أن يستقل بنفسه على نحو ما شهدناه فى فكرة الآن ، إلى درجة أن فكرة الاتصال كادت أن تذهب ، وبالتالى فكرة التغير الحقيقى ، لأن كل تغير بالمعنى الصحيح يستلزم الاتصال بين موضوعات التغير . والتاريخ على أساس هذه النظرة قد مثل على هذا النحو السكونى المتمثل فى الآن الحالى من الحركة فأصبح على هيئة دورات مقفلة ، كل دورة منها تكون السنة الكبرى للعود الأبدى ، وتشابه السابقة تمام التشابه ، حتى إنها تكاد أن تكون تكراراً خالصاً لكل دورة سابقة ؛ وبالتالى لم يكن يُتصور للتاريخ بدء معلوم ونهاية محددة مرتبطان بأحداث معينة ؛ كما لم يكن يُنظر إليه على أنه تطور يسير قدماً فى الزمان اللانهائى ، لأن هذه النظرة تقتضى فكرة عن السرمدية تختلف عن تلك التى قال بها اليونان كما أوضحنا ذلك من قبل ، نظرة كنتلك التى قالت بها الروح الأوروبية . وفى كلمة واحدة نستطيع أن نقول إن هذه النظرة اليونانية لم تكن تنظر إلى الزمان ، بالتالى إلى التاريخ ، على أنه ذو اتجاه أو ذو غاية .

(١) راجع كتابنا : « اشبنجلر » ، ص ١٩٦ - ص ٢٠١ ؛ القاهرة ، سنة ١٩٤١ . وراجع فيما يتصل بما سنقوله بعد مباشرة ، اشبنجلر : « انحلال و الغرب » ، ج ٢ ص ٢٨٨ - ص ٢٨٨ - ص ٢٩١ ، منشئ ، سنة ١٩٣٤ .

وعلى العكس من هذا نجد الروح السحرية أو العربية ، مهما اختلفت الأديان التي تمثلها ، من يهودية أو مسيحية أو إسلام ، تلغى الحاضر لحساب الماضي والمستقبل : أما الماضي فلارتباطه بخطيئة آدم (أو هبوطه من الجنة ، كما في الإسلام ، والمعنى واحد في المدلول الذي نرمي إليه هنا) ، أما المستقبل فلأن فيه تحقيق الخلاص من هذا الوجود الخاطيء (وجود الإنسان) ونجاة الإنسان ، إما في نعيم الأبرار أو في جحيم الأشرار ، وما حياة المرء في هذه الدنيا إلا تأهب ومعبر وسير ثقيل إلى الحياة الآخرة . والتاريخ تبعاً لهذه النظرة محدد ببدء ونهاية : بدء هو خروج آدم من الجنة وبدء الحياة الإنسانية ، ونهاية هي يوم الحساب . هذا بالنسبة إلى التاريخ العام أو تاريخ العالم ؛ والأمر كذلك أيضاً بالنسبة إلى التاريخ الجزئي : فهو مكون من عهود ، كل منها ذو بدء بحادث معلوم ، وله نهاية يغلب أن ينظر إليها على أنها نهاية العالم ويوم الحساب ، وعلى كل حال فكل عهد له بدء معلوم ونهاية معينة فالتقويم في التاريخ يبدأ بحادث معين ، إليه ترد كل تطورات التاريخ فيما بعد وتبدأ منه ، وهو حادث غالباً ما يكون ذا طابع ديني نبوي : كالتقويم السلوقي (أو تقويم الاسكندر بن فيلبس الرومي) ويبدأ في سنة ٣١٢ ق.م. منذ تكوين دولة السلوقيين في سوريا وينتهي سنة ٩٥ ق.م. ، وبه ابتدأت سلسلة النبوءات الخاصة بمصير الدنيا ؛ وتقويم دقلطيانوس المبتدئ بحادث الشهداء ، والتقويم المسيحي ، وتقويم يزدجرد بن شهريار ، والتقويم الهجري الخ (١) . أي أن صورة التاريخ عند هذه الروح صورة تبدأ ببدء للعالم وتنتهي بنهاية له ، ولا تتصوره على أنه مستمر في الزمان ، خصوصاً إذا لاحظنا أن التيارات الروحية تكاد تتفق عند هذه الروح على

(١) راجع فصلاً للمسعودي في كتاب : « التنبيه والإشراف » ، ص ١٦٧ -

ص ١٨٢ ، طبع مصر سنة ١٩٣٨ ، بعنوان : ذكر تاريخ الأمم . وهو من خير ما كتب في هذا الموضوع ، وبالمعنى الذي نرمي إليه هنا .

القول بأن للزمان بدءاً ونهاية ، وليس أزلياً أبدياً كما قالت الروح اليونانية وأن هذه النهاية وذلك البدء للزمان هما في الوقت عينه بدء ونهاية للإنسانية ، ومن فعل إله . ومن هنا انتشرت في هذه الحضارة العربية أو السحرية المذاهب القائلة بنبوءات تتصل ببدء العالم ونهايته ، وعلى أى نحو سيكون هذا وذاك ، وكيف يكون الخلاص أو النجاة ، وما إلى ذلك من تصاوير وتهاويل سحرية خارقة (١) .

والمهم بالنسبة إلينا هنا أن هذه الروح العربية السحرية قد أتت بنظرة في الزمان تخالف نظرة الروح اليونانية ، وصورت التاريخ بالتالى على نحو مخالف لتصوير اليونان إياه ، وجعلت السيادة في آتات الزمان لا للحاضر ، بل لأحد الآتين الآخرين. وهى قد مالت قطعاً إلى جعل السيادة للآن المستقبل ، لأن الخلاص سيكون فيه ، ومسألة الخلاص هى شغلها الشاغل ، فمن الطبيعي إذن أن يكون الآن المستقبل أهم الآتات لديها ؛ والبيئة على هذا ما ذكرناه منذ لحظة من انتشار الاتجاهات النبوءية إلى أقصى حد في الآثار الروحية لهذه الحضارة .

فنقلت المسيحية هذه النظرة في الزمان إلى الحضارة الأوروبية الناشئة ، فأثرت في نظرتها الخاصة التى ستكونها عن الزمان وعن التاريخ ، أو على الأقل فيما يتعلق بسيادة الآن المستقبل على الآتين الآخرين من آتات الزمان ، وإن كانت النظرتان بعدئذٍ مختلفتين إلى حد كبير من حيث فكرة السرمدية . فإن الروح الأوروبية قد قالت بما قالته الروح اليونانية من قبل من أن الزمان

(١) وقد ظهر هذا في الاسلام بأجلى صورة في تصورات الشيعة الخاصة بالمتنبى والامام والمهدى ، وعن طريقها نفذ إلى الحديث ، راجع في هذا كتاب تود أندريه ؛ « شخصية محمد في مذهب أمته واعتقاداتها » ، سنة ١٩١٧ (محفوظات في الدراسات الشرقية ، مجلد رقم ١٦) ، ومقال جولد تسهير بعنوان : « العناصر الأفلاطونية المحدثه والغنوصية في الحديث » ، الذى ترجمناه في كتابنا : « التراث اليونانى في الحضارة الاسلامية » ، ص ٢٤١ ومابعدها ، القاهرة سنة ١٩٤٠ .

أزلى أبدى ، وإن فهمت هذه السرمدية على نحو مخالف جعلها تنظر إليها على أنها اتجاه مستمر في زمان لا نهائى مما يقرّبها نوعاً ما من الروح العربية من حيث فكرة وجود اتجاه في الزمان ، وإن اختلفنا بعدُ كل الاختلاف في تحديد معنى ومصير هذا الاتجاه. وهذا التأثير بالمسيحية في النظرة إلى الزمان نجده أوضح ما يكون - كما هو طبعى - لدى الفلاسفة المتأثرين بالدين ، وعلى رأسهم كيركجورد ومن تأثره من الفلاسفة المعاصرين اليوم ، أو الذين أصابهم نزعة دينية حيناً ظلوا متأثرين بها مثل هيجل .

وأثرت المسيحية من ناحية أخرى بتعمقها الحياة الباطنة وانصرافها عن الموضوعات الخارجية إلى الذات الروحية الداخلية ، فكان من شأن هذا أن انصرفت الروح الأوربية عن العالم الخارجى إلى نفسها الداخلية . وإلى هذا الأثر ، الذى لا نود أن نقيم له كبير وزن في هذه الناحية ، يمكن أن نرد إلى حد ما ، النزعة الحديثة إلى إقامة الوجود الخارجى على أساس الوجود الباطن ، وإدراك التعارض بين الذات والموضوع ، والانتحاء صوب جعل التقدم - في المرتبة على الأقل - للذات على الموضوع ، حتى أصبح وجود الذات هو الذى يضع وجود الموضوع . فهذه النزعة قد بدأت مبكرة نشاهدها في الحضارة السحرية العربية نفسها عند القديس أوغسطين الذى جعل الفكر هو الذى يضع الوجود ، وبواسطة وجود الذات أثبت وجود الموضوع ، مما استأنفه ديكرات بعد ذلك بزمان طيل بنفس الروح ، بل وبنفس العبارات في أكثر المواضع . وتبعاً لهذا الوضع الجديد لمشكلة المعرفة والوجود أقام نظريته في الزمان ، تلك النظرية المفصلة المشهورة (١) ، التى نجد فيها لأول مرة صورة تختلف بوضوح اختلافاً بيناً عن النظرة اليونانية .

(١) عرضها خصوصاً في : « الاعترافات » م ١١ ؛ « مدينة الله » ، ١١٢ ، ف ٦ . وراجع في هذا : جان جيتون : « الزمان والسرمدية عند أفلاطون وأوغسطين » باريس ، سنة ١٩٣٣ .

أجل ، قد نجد فيها أشباهاً ونظائر لأقوال أرسطية ، ولكن الشبه في الظاهر كثر منه في الواقع والروح . فأرسطو يعرف الزمان كما رأينا بأنه مقدار الحركة أو عددها ومقياسها . وأوغسطين يؤمن على هذا القول مبتدئاً من القول بأن الزمان ليس حركة جسم ، كما قال أرسطو تماماً (« الاعترافات » م ١١ ، ف ٢٤) ، وإنما هو مقدار للحركة . ولكن أوغسطين لا يلبث أن يوضح هذا القول ، فيقول إن القياس هنا عملية أو فعل قياس ، وليس مجرداً ؛ أى أن المهم هنا ليس في كونه عدداً ، بمعنى كم منفصل ، بل المهم فعلُ العَدِّ نفسه . وفارق هائل بين أن نقول العدد بمعنى الكم المنفصل ، والعدد بمعنى فعل العَدِّ : فالأول لا يتضمن مدة ، بينما الثاني يقتضى المدة بالضرورة ؛ والمدة معناها الاتصال والاستمرار ، بينما العدد معناه الانفصال . ولذا نرى أوغسطين يؤكد بوضوح هذا المعنى قائلاً : « لذا يبدو أن الزمان امتداد ؛ ولكن امتداد ماذا ؟ لا أدري . أأليس حقاً يا إلهي ، حينما أقول مثلاً هذا الزمان أطول من الآخر ، بوجه عام ؛ أو بوجه خاص ، إن هذا الزمان ضعف الآخر ؟ إنني أقيس الزمان ، أعرف ذلك . ولكني لا أقيس المستقبل ، لأنه لم يأت بعد ؛ ولا الحاضر لأنه آن (أى لا يتجزأ وغير ممتد) ؛ ولا الماضي ، لأنه ليس حاضراً بعد . فإذا أقيس إذن ؟ لقد قلت ذلك : إنه ليس الزمان الذي مضى ، ولكنه الزمان الذي يمضي » (« الاعترافات » ، م ١١ ، ف ٢٦) . فالمهم إذن في القياس ليس نتيجته ، ولكنه العملية نفسها ، بوصفها فعلاً يمضي في مدة ؛ ولهذا فإن الزمان لا وجود له إلا إذا كان في النفس تأثراً مستمر ، والقياس ليس بقياس أشياء ليست موجودة بعد أن كانت ، ولكنه قياس شيء يظل منطبغاً في الذاكرة : « عقلي » فيك أقيس الزمان ، ولا تسألني بعد هذا مضيقاً : وكيف ذاك ؟ بل دعني ولا تشتت خاطري بعاصفة خيالاتك . إنني أقيس فيك الزمان ؛ أقيس الأثر الذي تتركه الأشياء وهي مارة فيك ، وأقيس هذا الأثر حال كوني أقيس الزمان . ولذا أستنتج من هذا أنه إما أن يكون الزمان هذا الأثر ، أو أنا لا أقيس الزمان » (المرجع نفسه ، م ١١ ، ف ٢٧)

ثم يخطو أوغسطين الخطوة الأخيرة في إعطاء الزمان صفة الذاتية ، بأن يرد آتائه الثلاثة إلى أحوال للنفس ثلاث كذلك : الذاكرة ، والانتباه ، والتوقع : « فن ذا الذى يستطيع أن يقول إن المستقبل لم يأت فى النفس بعد ، إذا كان فى النفس توقع المستقبل ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يقول : الماضى ليس حاضراً بعد ، إذا كان فى الذاكرة ذكرى الماضى ؟ ومن يستطيع أن يقول إن الحاضر ليس له حيز لأنه يمر فى نقطة غير قابلة للقسمة ، إذا كان تمت انتباه فيه يمر ما سيكون حاضراً ؟ ليس المستقبل طويلاً ، لأنه غير موجود ، وإنما الطويل توقع المستقبل ؛ وليس الماضى طويلاً ، إذ هو غير موجود بعد ، وإنما الطويل هو ذاكرة الماضى » (المرجع نفسه ، م ١١ ، ف ٢٨). وهذا يدل على أمرين : الأول أن الزمان لا يقوم إلا بالنفس ؛ والثانى أن الزمان ليس مكوناً من آتات غير قابلة للقسمة ، وإنما هو امتداد أو مدة متصلة ، والطابع الأصيل للزمان إذن هو المدة والاستمرار ، كما سيقول بر-جسون بعد هذا بزمان طويل .

وإذا كان أوغسطين يثير من الشكوك فى بدء بحثه (م ١١ ، ف ١٥) ما أثاره أرسطو فى مستهل حديثه عن الزمان (« السماع الطبيعى » ، ١٢١٨) ، فإن الغاية عند كليهما مختلفة : فأرسطو يبحث إشكالات الآن ، لكى يقول فى النهاية إن الزمان مكون من آتات ، بينما يورد أوغسطين الشكوك على الآن ، لكى يستبعده ويقول باتصال الزمان وعدم قابليته لأن يجزأ أية تجزئة ، ولا أن يقال هو وجود وحدات غير منقسمة ولا ممتدة فيه . وأرسطو ينظر فى الصعوبات التى تقوم فى سبيل جعل الزمان والحركة شيئاً واحداً ، ولكن ليقول فى آخر الأمر إن الزمان عدد (بمعنى كم منفصل) ، بينما أوغسطين يفضى من هذا إلى جعل الزمان مدة الحركة واستمرارها ، وفى هذا تأكيد لاتصالها . كما أن أرسطو يثير مشكلة الصلة بين الزمان وبين النفس ، ولكن لكى يقول بأن الزمان خارج النفس وأسبق منها ، لأنه يقاس بحركة الكل أو حركة الفلك ، وإن كان فكره هنا غير واضح كل الوضوح كما أشرنا

إلى هذا من قبل . وعلى العكس من هذا لا نرى أوغسطين يربط الزمان بحركة كهذه ، بل يبدو من حديثه أنه يجعله بالأحرى في النفس ذاتها . وإذا كان يربطه بشيء فهو بالسرمدية التي يقوم فيها كل زمان وكل ما هو مشارك في الزمان ، سرمدية الله طبعاً عند أوغسطين ، وإن كان هنا مظهر من مظاهر تأثيره بالأفلاطونية المحدثة . فالواقع ، أن من الواجب علينا أن نفسر الزمان عند أوغسطين على هذا الأساس الداتي ، أى على أنه موجود في النفس ندرکه على أساس أحوالها الثلاث المذكورة آنفاً ، أعني الزمان المفهوم ، لا الزمان بمعنى السرمدية من نوع خاص ، كذلك الزمان الأصيل الذي قال به أفلاطون وأتباعه . وليس معنى هذا ، مع ذلك ، أنه لم يقل بهذا الزمان الأصيل ، بل قال به متأثراً من غير شك بالأفلاطونية المحدثة ، وهو هو الذي يعنيه دائماً حينما يتحدث عن الزمان بوصفه أزلياً كخالقه الله ، وإن كان فكره فيما يتصل بمسألة الأزلية هذه غامضاً قلقاً .

وهذا الغموض نجده كذلك في تصوره للتاريخ ، فهو لا يتحدث بوضوح عن اتجاه للتاريخ والزمان ، لكن نظريته في فلسفة التاريخ هي بعينها تلك التي عرضناها من قبل عند الروح العربية . ولا عجب ، فأوغسطين ينتسب إلى الروح العربية ، إلى الحضارة السحرية ؛ ولذا أقام صورة التاريخ في كتابه الضخم « مدينة الله » على نحو ما فعلت هذه الروح : أى على أنه عملية ذات اتجاه تبدأ من فعل الخلق إلى يوم الحساب ، وتطور التاريخ مرتب كله نحو تحقيق غاية هي تحقيق مدينة الله أو الجنة أو مملكة الله ، وإن تخلل ذلك ما تخلل من كفاح ونضال بين الكفر والإيمان .

ومن هنا فإن أوغسطين في نظريته في الزمان يؤذن باتجاه جديد في فهمه : فبدل أن يكون موضوعياً ، سيكون ذاتياً قائماً بالنفس وحدها ؛ وبدلاً من أن يعنى فيه بالآن الحاضر وحده ، ستنتجه العناية إلى الآنين الآخرين ، وبخاصة الآن المستقبل ؛ وبدلاً من أن يكون مكوناً من آنات غير قابلة للقسمة ،

وبالتالى منفصلة ، سيكون مكوناً من مدة واستمرار ، وبذا يكون متصلاً ؛
وبعد أن كان يدور على نفسه فى دورات متشابهة متعاقبة لا تنتهى ،
سيكون ذا اتجاه .

إلا أن جعل الزمان ذاتياً خالصاً لم يتم إلا فى الحضارة الأوروبية بعد ذلك
بزمان طويل على يد كنت . فقد رأى كنت أنه بإزاء نظريتين فى الزمان :
إحدهما نظرية نيوتن ، والأخرى نظرية ليبنتس .

أما نيوتن فقد قسم الزمان إلى زمانين : مطلق ، ونسبى . أما الزمان المطلق
فهو الزمان الحقيقى الرياضى ، وهو قائم بذاته مستقل بطبيعته ، فى غير
نسبة إلى أى شىء خارجى ، ويسيل باطراد ورتوب ، ويسمى أيضاً باسم
المدة ، وعلى العكس من هذا نجد الزمان النسبى ظاهرياً عامياً ، وهو مقياس
حسى خارجى لأية مدة بواسطة الحركة ؛ وهو الزمان المستعمل فى الحياة
العادية على هيئة ساعات وأيام وشهور وأعوام ؛ وقد يكون دقيقاً ، وقد
لا يكون متساوياً مطرداً . وهذا الزمان الثانى يستخدم فى الفلك مقياساً
لحركة الأجرام السماوية ، لأن زمان الفلكيين مرتبط بحركة ، بينا الزمان
المطلق كما قلنا لا يرتبط بأية حركة . وهذا الزمان الأخير توجد فيه معية
مطلقة ، بمعنى أن من الممكن أن يقع حادثان معاً وفى نفس الوقت بالنسبة
إلى الزمان المطلق ولو كان أحدهما مرتبطاً بالشمس مثلاً ، والآخر بعطارد ،
دون أن يعنى نيوتن ببيان : هل هذه المعية المطلقة بالنسبة إلى نظامين فى
سكون نسبى فيما بينهما ، أو متحركين الواحد قبالة الآخرين ؟ وهى المشكلة
التي أثارها نظرية النسبية فيما بعد .

يقول نيوتن إذن بزمان مطلق قائم بذاته يشبه ذلك الزمان الأصيل الذى
قالت به الأفلاطونية المحدثة ، وبزمان نسبى يقرب من الزمان الطبيعى
الارسطالى ، إن لم يكن هو بعينه . ثم ينظر إلى كليهما على أنه موجود فى
الخارج ، وليس شيئاً من وضع النفس ، وكأننا عدنا بهذا إذن إلى النظرة

اليونانية . والقول الأول معناه أن الزمان موجود مطلق ، أعني أنه يوجد مستقلاً عن الحركات التي تجرى به ؛ والثاني معناه أن الزمان موضوعي وليس ذاتياً .

فجاء ليبنتس وأنكر عليه هذا القول قائلاً : إن الزمان هو نظام التوالي « وهو إذن لا يقوم إلا في النسب الموجودة بين أشياء تتوالى أى أنه تابع للأشياء ، وليس سابقاً عليها . ويسوق الدليل على هذا معتمداً على مبدأ العلة الكافية فيقول : إنه لو اعترض لإنسان قائلاً : لماذا لم يخلق الله الأشياء كلها قبل الوقت الذي خلقها فيه بسنة ، واستنتج من هذا أن الله قد فعل شيئاً ليس من الممكن أن يكون ثمت علة لماذا فعله ولم يفعل غيره ؛ أى أنه لا توجد هنا علة لكون خلق الأشياء في هذه اللحظة المعينة دون غيرها — فنقول إن هذا الاستنتاج منه يكون صحيحاً لو كان الزمان شيئاً خارج الأشياء الزمانية . ففي هذه الحالة ليس ثمت من علة لكون الأشياء حدثت في هذه اللحظة دون تلك الأخرى مع بقاء توالياها كما هو . ولكن هذا بعينه يدل على أن اللحظات ليست بشيء خارج الأشياء ، وأنها ليست شيئاً آخر غير نظامها المتوالى ؛ وتبعاً لهذا فسؤال المعترض لا محل له ، لأن المسألة ستعود إذن إلى مسألة نسب بين الأشياء . ولا مجال للتحدث هنا بعدُ عن لحظة أولى من أخرى . وهذه البرهنة تقوم ، كما هو ظاهر ، على أساس صحة مبدأ العلة الكافية . ولذا فإن كلارك في دفاعه عن نظرية نيوتن ينقض رد ليبنتس على أساس بيان خطأ هذا المبدأ ، فيرد عليه حجته ببرهان عكسي (١) .

ومع أن ليبنتس قد خطا خطوة واسعة في سبيل التجريد والذاتية بهذا التعريف الجديد للزمان ، فإنه مع ذلك قد ظل موضوعياً إلى حد كبير .

(١) راجع هذه البراهين والمراسلات بين ليبنتس وكلارك ، في طبعة أردمن سنة ١٨٩٣ - سنة ١٨٤٠ ، ص ٧٥٢ . وفيما يتعلق بهذه البراهين وقيمتها بين المتحاورين ، راجع : فان بيماء ، «المكان والزمان عند ليبنتس وكنت» ، ص ١٥٢ - ص ١٥٨ ، باريس ؛ سنة ١٩٠٨ .

إذ هو ينظر إلى هذه النسب ، نسب التوالى ، على أنها نسب حقيقية بين حدود حقيقية ، هى لحظات متتالية ، تمر بها فى الواقع الأشياء المستمرة ذوات المدة . وإذا كان مع ذلك قد سار فى اتجاه الذاتية بأن ميز بين الزمان وبين المدة كما فرق بين المكان وبين الامتداد على أساس « أن المدة والامتداد صفات للأشياء ، بينما الزمان والمكان ينظر إليهما على أنهما خارج الأشياء يفيدان فى قياسها » (١) ، وبالتالي ستكون المدة والامتداد أشياء خارجية موضوعية ، بينما الزمان والمكان أقرب إلى الذاتية ، نقول إنه على الرغم من هذه التفرقة - التى لم يراعها ليبنتس ، مع ذلك ، باستمرار - لم ينعت الزمان والمكان بأنهما ذاتيان ولا وجود لهما فى الموضوعات الخارجية ، بل اكتفى بأن قال إنهما مطلقان متخيلا ، « لأن الأشياء الذاتية المطردة ، التى لاتشمل على أى تنوع ، ليست إلا تجريدات فحسب ، مثل الزمان والمكان وما أشبه هذا من كائنات تقول بها الرياضيات البحتة » (٢). وهو هنا قد نعتها بالتجريد ، ولكنه لا يقصد من ذلك أنها من نتاج الذات وحدها ، بل يقصد أنها خالية من الموضوعات ، فالتجريد إذن تجريد من الموضوعات فى الذهن ، وليس ابتكاراً من الذات أو العقل لا وجود له فى هذه الموضوعات التى جردت عنها . ولذا يقول بكل وضوح ، وهو يتحدث عن تولد فكرة الزمان فى ذهننا من تأمل العمليات النفسية : « إن سلسلة من الإدراكات تثير فينا فكرة المدة ، ولكنها لا تصفها » ، أو : « إن التغير فى الإدراكات يتيح لنا فرصة التفكير فى الزمان » (٣) ، أى أن الزمان لا يتولد فينا إلا بمناسبة الإدراكات أو التغيرات ، وليس شيئاً موجوداً فى النفس بقطرهما .

ولذا جاءت حملة كنت شاملة للنظريتين معاً ؛ بل كان النقد أشد وأعنف

(١) « استحان مبادئ مالبرانش » ؛ نشرة أردمن المذكورة ، ص ٦٩٣ .

(٢) « المقالات الجديدة » ؛ نشرة أردمن ، ص ٢٢٢ ب .

(٣) النشرة السالفة ، ص ٢٤١ . وهو هنا يشير إلى لوك : « مقال فى

العقل الانسانى » م ، ف ١٤ ، ٢ وما يليه ، ويرد عليه .

بالنسبة إلى ليبنتس ، لأن نظريته كانت هي السائدة في المدرسة الألمانية المعاصرة له في ذلك الحين ، مدرسة فولف .

ولما كان غرضنا هنا ليس العرض التاريخي ، بل النقدي المستخرج للمشاكل ، فإننا لن نتبع تطور فكرة كنت فيما يتصل بنظرية الزمان ، وما تخلل هذا التطور من اختلاف وتحول ، وإنما سنكتفي ببيان هذه النظرية في صورتها الأخيرة النهائية ، أعني كما عرضها في نقد العقل المجرد ؛ بل لن يكون هذا البيان بياناً تفصيلياً شاملاً يثير كل المشاكل التي تدور من حول النظرية وكيف انتقدها المعاصرون ؛ وإنما سنسير على وفق المنهج الذي رسمناه لأنفسنا في هذا العرض النقدي لأهم نظريات الزمان . ولكي يكون القارئ قادراً على متابعة النقد ، نبدأ بأن نعرض له المميزات الرئيسية لفكرة الزمان عند كنت .

فنقول إن كنت في عرضه لهذه الفكرة في القسم الثاني من الحساسية المتعالية (§§ ٤ - ٧ ، ط ١ ، ص ٣١ - ص ٤١ = ط ب ، ص ٤٦ - ٥٨) قد قسم هذا العرض إلى قسمين : عرض ميتافيزيقي ، وآخر متعال ، وهي قسمة لا نجدها إلا في الطبعة الثانية ، فضلاً عن أنه في هذه الطبعة عينها لا يزال يوجد شيء من الخلط ، إذ حشر الحجة الثالثة المتعالية في زمرة الحجج الميتافيزيقية . والفارق بين العرض الميتافيزيقي والعرض المتعال أن الأول يحلل الفكرة أو الامتثال في ذاته ، أي بما هو مضمونه ، مبيناً بهذا التحليل أن هذا الامتثال ليس مستعاراً أو متوقفاً على التجربة ، بل هو قبلي . أما العرض المتعال لامتثال ما فيبينه كمبدأ على ضوئه يمكن أن يفهم إمكان معارف تركيبية قبلية أخرى ، أي أنه يبين أن ثمت معارف قبلية أخرى مركبة تؤخذ من الامتثال ، وأن مثل هذه المعرفة ليست ممكنة إلا إذا شرح الامتثال على نحو خاص ، أي على أنه قبلي (١) .

(١) راجع : « نقد العقل المجرد » ، ط ب ، ص ٤ . وسنشير دائماً إلى الطبعة الثانية بالإشارة ط ب ، وإلى الأولى بالإشارة ط ا ، كما هي العادة .*

أما العرض الميتافيزيقي فيتضمن خمس حجج يمكن أن تقسم إلى قسمين :
الأول يبرهن فيه على أن الزمان ليس امتثالا تجريبياً ، بل هو قبلي ؛ والثاني
يبرهن على أن الزمان عيان ، وليس تصورياً .

فالحجة الأولى تقول إن الزمان ليس تصورياً تجريبياً ، أى امتثالا أخذ
عن أية تجربة . والدليل على هذا ضرورة تصور الزمان من أجل إدراك المعية
والتوالى ؛ فليس في وسعنا أن نتمثل لأنفسنا طائفة من الأشياء موجودة معاً
(المعية) أو في أزمنة مختلفة (التوالى) إلا إذا افترضنا الزمان أساساً قبلياً
يقوم عليه هذا الامتثال ، سواء شعرنا بهذا أو لم نشعر . ذلك لأن معرفتنا
معية أشياء أو تواليها ليس معناه فقط معرفة اختلافات كيفية بينها ، وإنما
هى معرفه أنها حادثة في زمان واحد ، أو في أزمنة متوالية مختلفة . فهذه
الحجة إذن تتضمن أمرين : الأول أن الاختلاف الزمني لا يمكن أن
يرد إلى اختلاف في الكيف ، بل هو اختلاف من نوع خاص به ، يشترط
وجود الزمان شيئاً قبلياً ؛ والثاني أن الزمان ليس تجريداً من التجربة أو
الموضوعات المحسوسة ، كما يزعم ليبنتس فيما رأينا من قبل ، كما نجرد
الألوان أو الطعوم .

لكن هذه الحجة سلبية فحسب ، إذ كل ما نقوله إن الزمان ليس
امتثالا مأخوذاً عن التجربة . ولذا أردف بها الحجة الثانية فقال : إن الزمان
ضرورى يقوم عليه كل عيان ؛ ويمكن أن يدرك مستقلاً عن الظواهر .
والنتيجة لهذا أن الزمان إذن قبلي ، والدليل على هذا أننا لا نستطيع أن نستبعد
الزمان من الظواهر عامة ، مع أننا نستطيع أن نفهم الزمان خالياً من الظواهر .

*وكلمة امتثال هنا تقابل في الألمانية Vorstellung والفرنسية représentation ،
وامتثال الشيء = تصوره ، ولما كان في اللفظ الافرنجى معنى التمثيل أيضاً ، فقد
وجدنا هذا اللفظ خير ترجمة له . أما قبلي فتناظر a priori أى سابق على التجربة .
وعيان يتناظر Anschauung, Intuition ، وتصور = Begriff, Concept

وتحقيق الظواهر لا يمكن أن يتم إلا فيه . والنتيجة لهذا إذن أن الزمان لا يقوم على الظواهر ، بل الظواهر هي التي تقوم على الزمان ، وبغير الزمان لا يُتصور تحقق الظواهر ، أى أن الزمان إذن قبل ضرورى لكل حركة حسية .

وهذه الحجة الثانية قد لاقت الكثير من النقد منذ عصر كنت حتى اليوم ، ومن أهم ما وجه إليها ما أورده فاينجر في « شرحه لنقد العقل المجرد » (ج ٢ ص ٣٧٠ ، سنة ١٩٢٢) فقال إن بها خطأ من وجهة نظر كنت نفسه ، لأن هذه الضرورة التي يتحدث عنها هنا ضرورة نسبية ، وليست مطلقة ، ومثل هذه الضرورة النسبية لا تهض دليلاً دقيقاً على القبلية ، لأن كونى لا أستطيع امتثال الظواهر دون زمان لا يبرهن بعدئ على أن امتثال الزمان هو امتثال سابق على التأثيرات الحسية ، مع أننا نريد البرهنة على أن امتثال الزمان امتثال قبلى . وينقدها آخرون على أساس أنه ليس في وسع المرء أن يتصور الزمان خالياً من الظواهر ، ومنفصلاً عن كل موضوع من موضوعات التجربة . والنقد الأول على جانب كبير من الوجاهة ، لأن مجرد كون الظواهر لا تمتثل دون زمان ، لا يدل بعدئ على أن الزمان موجود وجوداً قبلياً في العقل ، فالضرورة هنا ليست إذن ضرورة مطلقة ، أو ليست بعدئ كذلك على أقل تقدير ، وإنما هي نسبية ، أعنى أنها ضرورة بالنسبة إلى الظواهر وحدها ولا ندرى بعد هل هي ضرورة أيضاً بالنسبة إلى تركيب العقل الإنسانى نفسه ، حتى نقول إن فكرة الزمان قبلية ، أى موجودة بالضرورة في طبيعة العقل بالفطرة والماهية (١) . أما النقد الثانى فكنت أول من يعترف به إلى حد كبير (راجع ما قاله في « نقد العقل المجرد » ، ط ب ص ٢١٩) ، إذ يقول إننا لا نستطيع أن ندرك الزمان

(١) راجع مناقشة هذه المسألة بالتفصيل في شرح فاينجر على نقد العقل المجرد ، ج ٢ ص ١٩٣ - ص ١٩٦ ، وفيه الإشارة إلى الأبحاث التي أثيرت في هذا الصدد .

الخالى كما هو ؛ بل لكى ندرك الزمان لا بد من أن ندرك وجود أشياء به ؛
أما إدراك زمان خال فلا يتم إلا بالحذف والإسقاط لصفات المحسوسات ،
أى بالتجريد الخالص ، كما نفعل فى الهندسة مثلاً حينما نركب فى العيان
الخالص (أى العيان الخالى من التجربة الحسية) أشكالاً هندسية قبلية ؛
أو حين نتصور الزمان على هيئة كل واحد له بُعد واحد ، بينما للمكان
ثلاثة أبعاد . ولكننا هنا كما قلنا فى عالم التجريد الخالص ، لا فى حالة
العيان بالمعنى الحقيقى .

ذلك إذن هو القسم الأول من العرض الميتافيزيقي بشقيه السلبي والإيجابى ،
قد أراد كنت أن يبرهن فيه على أن الزمان امتثال قبلى . وهو يريد الآن فى
القسم الثانى المكون من الحجتين الرابعة والخامسة فى عرضه أن يبرهن على
أن الزمان عيان وليس تصوراً .

والعيان عند كنت هو الامتثال الجزئى ، بينما التصور هو الامتثال الكلى ،
أعنى أننى فى حالة العيان أمتثل موضوعاً جزئياً ، وفى حالة التصور أمتثل
الصفات المشتركة بين عدة موضوعات . والعيان أسبق من التصور ، لأنه
مباشر يتصل بموضوعه مباشرة عن طريق الحس ، بينما التصور يتكون
بواسطة العيانات ، ولذا ليس على صلة مباشرة بالموضوعات .

والزمان عيان بهذا المعنى ، أى بمعنى أنه امتثال موضوع جزئى . أما
امتثال الموضوعات المترتبة بالزمان ، فهذا هو الزمانية . ويبرهن كنت على
هذا بحجتين : الأولى أن الزمان واحد ، وليس كثيراً . والثانية أن الزمان
لا متناه .

يقول كنت فى الحجة الأولى منهما إن الزمان ليس تصوراً كلياً ، ولكنه
شكل خالص للعيان الحسى . وذلك لأن المرء لا يستطيع أن يتصور غير
زمان واحد ووحيد ، أما الأزمنة المختلفة فليست إلا أجزاء لهذا الزمان

الواحد ، وإذا كان الزمان واحداً ، فهو لا يقبل أن يكون ذا تصور ، بل ذا عيان ، ما دام التصور يتركب من امثال عدة أشياء ، بينما العيان من امثال شيء جزئى واحد . ويضيف إلى هذا دليلاً آخر هو أن القضية القائلة بأن الأزمنة المختلفة لا يمكن أن توجد معاً - هذه القضية لا يمكن أن تشتق من تصور كلى ، وإنما هي ممكنة فحسب إذا كان امثال الزمان عياناً . ذلك لأن هذه القضية قضية تركيبية ، والقضية التركيبية لا تصدر عن التصور وحده ؛ ولهذا فإن هذه القضية متضمنة مباشرة في العيان الخاص بالزمان ، أى في امثال الزمان .

وهذه الحجة بعينها تقود إلى الحجة الثانية من هذا القسم ، لأن اللاتناهى في الزمان ليس له معنى آخر غير أن كل مقدار أو جزء معين من الزمان ليس ممكناً إلا باجراء تحديدات في زمان واحد شامل له يفترض سابقاً . ولهذا فإن الامثال الأصلية ، أى الزمان ، يجب أن يكون لا محدوداً . ومعنى هذا أن الزمان الواحد الشامل يجب أن يسبق امثاله عيانات أزمنة مختلفة . وهذا كان للدلالة على أن الزمان عيان وليس تصوراً ، ما دام واحداً . وهذا ما قالته الحجة السابقة ؛ ولكنه يضيف في هذه الحجة إلى ما سبق أن كون الزمان عياناً يستنتج أيضاً من كونه لا محدوداً ، أو لا متناهياً (والمعنى هنا واحد ، إذ هنا عدم دقة في التعبير من جانب كنت) . والعلة في هذا الاستنتاج يبينها كنت على نحو يختلف بين الطبعتين : ففي الطبعة الأولى (ط ١ ، ص ٣٢) يقول إن السبب في هذا أن أجزاء التصور تسبق منطقياً التصور نفسه ، ولكنه استبعد هذا من الطبعة الثانية (ط ب ، ص ٤٨) وقال : إن السبب هو أن التصورات لا تحتوى إلا على امثالات جزئية . فعلى أساس الطبعة الأولى يمكن أن تصاغ برهنة كنت في شكل قياس كالآتي (١) : الامثال الذى لا تتصور أجزاؤه إلا بالتحديد ، ليس

(١) كما فعل فاينجر « شرح نقد العقل المجرد لكنت » ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

تصوراً ، بل عياناً . والزمان امثال من هذا النوع الذى لا تتصور أجزاؤه إلا بالتحديد : إذن الزمان ليس تصوراً بل هو عيان . وكون الزمان لا تتصور أجزاؤه إلا بالتحديد معناه « أو يقتضى » اللاتناهى فى الزمان ، كما هو ظاهر من تعريفنا الأصيل للمعنى اللاتناهى فى الزمان . ولذا يمكن أن يصاغ القياس السالف هكذا : امثال اللامتناهى ليس تصوراً ، بل عياناً ؛ والزمان امثال للامتناهى ؛ إذن الزمان عيان وليس تصوراً . فالمعنى الذى يستخلص من تحرير الطبعة الأولى إذن هو أنه فى التصورات تسبق امثالات الأجزاء امثال الكل ؛ ولكننا نرى فى الزمان أن امثال الكل يسبق امثال الأجزاء . إذن الزمان ليس تصوراً . أما فى الطبعة الثانية فقد قال : إن التصورات لا تحتوى امثالات جزئية فحسب . ويمكن أن تصاغ البرهنة حينئذ على الشكل التالى : التصور لا يحتوى إلا على امثالات جزئية ؛ الزمان يحتوى على غير الامثالات الجزئية ؛ إذن الزمان ليس تصوراً . ولكن كنت لم يذكر المقدمة الصغرى ؛ فكان تحرير الطبعة الثانية ناقصاً ، ولذا فإن فاينجر (١) مثلاً يرى أن تحرير الطبعة الأولى أفضل ؛ ويعزو هذا التعديل من جانب كنت إلى محاولته فى الطبعة الثانية أن يوفق بين الحجة الأخيرة فى الزمان والحجة الأخيرة فى المكان التى عدلها تعديلاً كبيراً فى هذه الطبعة الثانية . وأياً ما كان الأمر فى تفضيل أحد التحريرين على الآخر ، فإن مقصد كنت من هذه الحجة أن يبين أن فكرة اللاتناهى فى الزمان تقتضى فكرة العيانية لأن كل تحديد أو تناء يفترض مقدماً زماناً لا نهائياً ، وما دام امثال اللاتناهى بالعيان ، فالزمان بوصفه لا متناهياً هو عيان وليس تصوراً .

وبهذا أثبتت كنت أن الزمان عيان . وبهذا أيضاً فرق بين الزمان والزمانية ، فهذه ناشئة عن عيانات مباشرة ضُمَّتْ تحت تصور واحد ، هى عيانات

الأشياء المترتبة بالزمان ؛ والنتيجة لهذا أن الزمان أصيل ، بينما الزمانية مشتقة ومتفرعة على الزمان .

وفي هذا العرض الميتافيزيقي يلاحظ أننا لم نعرض الحجة الخامسة (المذكورة الثالثة في عرض كنت) لأنها تنتسب إلى العرض المتعالى ، كما يقول كنت نفسه في أول هذا العرض . ولسنا نفهم الداعى لحشره في العرض الأول إلا أن يكون ذلك إهمالا من كنت وعدم دقة ، كما لاحظ فاينجر بحق (الكتاب المذكور ، ج ٢ ص ٣٧٢) . ولذا سنعرضها هنا في العرض المتعالى .

في هذه الحجة يقول كنت : إن «إمكان المبادئ الضرورية الخاصة بنسب الزمان ، أو بديهيات الزمان بوجه عام ، هو الآخر يقوم على أساس تلك الضرورة القبلية» (ط ا : ٣ = ط ب ٤٧) التى برهن عليها في الحجة الثانية من القسم الأول من العرض الميتافيزيقي . أعنى أنه يستنتج من قبلية امتثال الزمان ضرورة بديهيات الزمان ، مما يؤدى أيضاً إلى البرهنة على قبلية امتثال الزمان . وبديهيات (أو متعارفات) الزمان يذكر هنا أنها اثنتان : (١) الزمان ذو بعد واحد ؛ (٢) الأزمنة المختلفة ليست معاً ، ولكن الواحد بعد الآخر . فهاتان المتعارفتان لا يمكن أن تستخلصا من التجربة ، لأن التجربة لا تقدم لنا كلية دقيقة ولا يقينا ضرورياً ؛ وهما قواعد ضرورية لإمكان التجربة ونعرفهما قبل التجربة ، وإن كانا ضروريين لها . فلإن التجربة تعرفنا أن هذا الشيء هو كذا ، لا أنه هو بالضرورة كذا ، بينما هذه المبادئ قواعد تخضع لها التجربة وبغيرها لا تكون ممكنة .

ويضيف إليها في الطبعة الثانية حجة أخرى تحت باب العرض المتعالى هذا . خلاصتها أن التغير (بما فيه الحركة ، بمعنى حركة النقطة عند أرسطو) لا يمكن أن يفهم دون الزمان بوصفه عياناً قبلياً . وذلك لأن التغير معناه الجمع بين محمولات متناقضة في موضوع واحد بالذات ، مثل الجمع بين الوجود

واللاوجود لشيء واحد في مكان واحد . إنما يمكن في الزمان وحده أن يتلاقى محمولان متقابلان بالتناقض في موضوع واحد ، وذلك بأن يكون الواحد « بعد » الآخر . فالزمان إذن هو الشرط الضروري السكلي لفهمنا للتغير والحركة ؛ وقانون التناقض كما يصوغه المنطق الصوري لا يشير إلى الزمان ، ولا يخضع هذا له . وهذا التصوير للزمان ، أى بوصفه الامتثال القبلي الخالي من التجربة السابق عليها ، هو وحده إذن الذى يفسر إمكان هذه المجموعة من الأحكام القبلية التركيبية المعروضة في المذهب العام للحركة . وهذا يدل إذن على أن فكرة الزمان تشتق منها أحكام تركيبية قبلية أخرى . وهذا جزء مما يفعله العرض المتعالى لمضمون أية فكرة ، كما قلنا من قبل ؛ والجزء الثانى ، وهو كون هذه الأحكام قبلية والمعرفة التى نحصل عليها من الفكرة قبلية ، قد برهنت عليه الحجة السابقة . وبذا ينتهى هذا العرض المتعالى .

وعن طريق هذين العرضين أثبت كنت إذن أن الزمان عيان خالص (١) ؛ وهذا العيان الخالص هو الشرط لكل معرفة قبلية لدينا عن الزمان بما في ذلك البديهيات العامة ؛ ومضمون هذا العيان الخالص هو النسب أو الإضافات الزمانية التى لا بد أن تتحقق الظواهر على أساسها بالنسبة إلى الذات العارفة ؛ أعنى أن الزمان شكل للظواهر .

ثم يستخلص النتائج التى تتضمنها هذه الأقوال ، فيجدها ثلاثاً :

الأولى أن الزمان ليس شيئاً موجوداً بذاته قائماً مستقلاً ، وليس شيئاً باطناً في الأشياء كصفة موضوعية لها ؛ وهو بالتالى لا يبقى ، حين نجرد كل الشروط الموضوعية لامتثاله . لأنه لو كان قائماً بذاته ، لكان شيئاً واقعياً وغير واقعى معاً : واقعياً من حيث أنه لا يوجد مستقلاً عن

(١) العيان الخالص reine Anschauung هو الذى تجرد فيه الإضافات الزمانية والمكانية من الموضوعات التى تقوم بينها هذه الإضافات .

الأشياء المترتبة ، وإن كنا بالفكر نسقط الموضوعات الحسية منه ونذكره في عيان خالص ؛ وغير واقعي لأنه سيكون شيئاً ليس له من وظيفة في الوجود إلا أن يتقبل كل شيء واقعي فيه ، دون أن يكون ثمت أى شيء واقعي (٣٩١ = ب ٥٦) . وفي هذا رد على نيوتن « ومن يدرسون الطبيعة من الرياضيين عامة » ؛ وينعت كنت الزمان - والمكان - في هذه الحالة بأنه سيكون لا شيئاً (١) . وإذا نظرنا إليه على أنه باطن في الأشياء « كما يزعم بعض دارسي الطبيعة من الميتافيزيقيين » (٤٠١ = ب ٥٦) ، ونظرنا إليه حينئذ على أنه نظام إضافات الظواهر المتوالية ، فإن هذا يؤدي إلى إنكار كل صحة للنظريات الرياضية القبلية في صلتها بالأشياء الواقعية . بل سيكون الزمان (والمكان ، كما في كل ماضى ، إذ لا يفصل كنت مطلقاً بينهما في طول عرضه لنظريتي الزمان والمكان) على هذا الرأى من خلق الخيال وحده ، هذا الخيال الذى يجب أن يكون أصله في التجربة . وعلى هذا فإنه إذا كان الزمان صفة للأشياء في ذاتها - أو الموضوعات الخارجية ، والمعنى واحد - فإننا لن نستطيع أن نبلغ اليقين الضرورى الذى تقول به الرياضيات ، ولن نقوى على القول بأن الحقائق الرياضية تنطبق على العالم الواقعي . ولهذا يرى كنت أن حظ الأولين ، أى الذين قالوا بأن الزمان شيء قائم بذاته ، وهم نيوتن وأتباعه ، خير من حظ الآخرين ، أعني دارسي الطبيعة من الميتافيزيقيين ، الذين قالوا بأن الزمان نظام النسب أو الإضافات على هيئة التوالى ، ويقصد بهم ليبنتس ومدرسته ، خصوصاً مدرسته الألمانية التى يتزعمها فولف . وعلى هذا فإنه إذا كان الزمان صفة أو نظاماً باطناً في الأشياء الخارجية ذاتها ، فلن يسبق إذن الأشياء شرطاً لها ، ولن يكون في الوسع معرفته وعيانه قبلياً عن طريق القضايا التركيبية . وإنما تكون القضايا التركيبية أو المعرفة القبلية ممكنة عن طريقها ، إذا لم ينظر إلى الزمان إلا على أنه الشرط الذاتى الذى به وحده يمكن أن يقوم العيان فينا : إذ في

(١) الاشياء Unding هو ما يكون تصوره متناقضاً في ذاته .

هذه الحالة ، شكل العيان الباطن يمكن أن يمثل قبل الموضوعات ، وبالتالي يمثل قبلها .

فالزمان عند كنت إذن شكل من شكول الحساسية الإنسانية ، أى لا يرجع إلا إليها ؛ فلا يمكن أن تظهر الأشياء لنا فى التجربة الحسية إلا على هيئة الزمان ، بمعنى التوالى ؛ وليس إذن شكلا للأشياء ، فى ذاتها ، أى للأشياء الخارجية ، بصرف النظر عن الذات العارفة . حقاً إن الظواهر تتضمن حقيقة الأشياء فى ذاتها ، لأنها ظواهر لها ؛ ولكن الإضافة الزمانية (والمكانية ، كما هى الحال دائماً) ليست صادرة عن هذه الأشياء فى ذاتها ، بل عن حساستنا نحن العارفين المدركين . ذلك أن الأشياء فى ذاتها لا تأتى إلى عقولنا كما هى دون تغيير ، بل لا بد أن تمر بهذا الإطار ، إطار الزمان (والمكان) ، فترتب وفقاً له ؛ فكأنها بمجرد أن تصبح مدركة ، لا بد أن تظهر على هيئة الزمان (والمكان) ؛ ونحن لا نعرفها كما هى فى ذاتها ، بل كما تبدو لنا ؛ ولهذا فنحن لا نعرف إلا الظواهر (أى ما يظهر لنا نحن) ، ولا نعرف حقيقة الأشياء كما هى فى ذاتها . « والزمان إذن ليس إلا شكل الحس الباطن ، أعنى شكل عيان أنفسنا وحالنا الباطنة . ولا يمكن أن يكون صفة محددة للظواهر الخارجية ، وليس له شأن بالحجم أو بالوضع ، ولكن شأنه هو الإضافة (أو النسبة) التى توجد بين الامتثالات فى حالنا الباطنة . ولما كان هذا العيان الباطن لا يعطينا حجماً ، فإننا نحاول أن نسد هذه الحاجة بواسطة الماثلات ، بأن نتصور توالى الزمان على هيئة خط يتقدم إلى ما لا نهاية ، فيه لا يكون المختلف (أى الأشياء المختلفة المتوالية المكونة له) إلا سلسلة من اتجاه واحد فحسب ؛ ونستدل من خصائص هذا الخط على كل خصائص الزمان ، مع هذا الفارق الوحيد : وهو أنه بينما أجزاء الخط فى حالة معية ، فإن أجزاء الزمان فى حالة توال . ومن هذه الحقيقة عينها ، أعنى أن كل إضافات الزمان تسمح بالتعبير عنها فى عيان خارجى ، يكون من الجلى أن الامتثال نفسه عيان »

(٣٣١ = ب ٤٩ - ٥٠) ؛ وتلك هي النتيجة الثانية .

والنتيجة الثالثة هي أن الزمان هو الشرط الشكلي القبلي لكل الظواهر أياً كانت . وفي هذا يزيد الزمان عن المكان : إذ المكان « بوصفه الشكل الخالص (أى الخالى من التجربة) لكلّ عيان «خارجى» ، قد تُحدّد على هذا النحو بما هو خارجى فحسب ؛ فهو إذن شرط قبلي للظواهر الخارجية وحدها دون غيرها . أما الزمان فإنه شكل خالص لكل عيان باطن ، وخارجى معاً ، لان « كل الامتثالات ، سواء أكانت لموضوعات خارجية فحسب أم لغيرها أيضاً ، تنتسب إلى حالنا الباطنة » كصفات أو تحديدات لعقلنا ، ولما كانت هذه الحال الباطنة تقع تحت الشرط الشكلي للعيان الباطن وبالتالي تنتسب إلى الزمان ، فإن الزمان شرط قبلي لكل الظواهر أياً كانت » (٣٤١ = ب ٥٠) . فكل الظواهر إذن خاضعة للزمان ، لأن الزمان شكل للعيان الباطن ، والعيان الظاهر يخضع للعيان الباطن ، فالزمان إذن شكل قبلي للظواهر كلها .

ولكن هل معنى هذا أنه ليس للزمان أية حقيقة موضوعية ؟ كلا ، بل له حقيقة موضوعية من حيث صلته بكل الموضوعات التى يمكن أن تقدم لنا بوساطة الحس . ولما كانت كل امتثالاتنا بالنسبة إليها حسية ، فليس ثمت موضوع يقدم لنا فى التجربة الحسية لا يخضع لشرط الزمان ؛ فالزمان إذن موجود فى كل امتثالاتنا عن الموضوعات الخارجية . ولكن ليس معنى هذا أن له وجوداً مطلقاً مستقلاً عن تجربتنا وامثالاتنا ، أى وجوداً كوجود الموضوع الخارجى أو الشئ فى ذاته ، بأن يكون صفة باطنة للأشياء فى ذاتها ، أو ذا وجود مستقل قائم بنفسه .

فكون الزمان موجوداً فى كل تجربة حسية وامثال ، دون أن يكون شيئاً موجوداً فى الخارج كوجود الشئ فى ذاته ، هذا هو ما يسمى باسم المثالية المتعالية للزمان . « والذى نعنيه بهذا التعبير هو أننا إذا جردنا الشروط

الذاتية للعيان الحسى ، فإن الزمان لا يكون شيئاً ، ولا يمكن أن يعزى إلى الموضوعات فى ذاتها (مستقلة عن صلتها بعياننا) على نحو القيام بالذات أو على نحو الوجود كصفة فيها » (٣٦١ = ب ٥٢) .

فكأن كنت لا ينكر إذن موضوعية الزمان ، بوصفه الشرط لكل تجاربنا ؛ وإنما الذى ينكره هو واقعته المطلقة ؛ « والزمان ليس إلا شكل عياننا الباطن ؛ حتى إننا إذا أسقطنا من عياننا الباطن الشرط الخاص لحساسيتنا ، فإن فكرة الزمان تسقط بهذا أيضاً ؛ فهو لا يوجد فى الموضوعات ، بل فى الذات المعانية لها » (٣٧١ - ٣٨ = ب ٥٤) .

ولكننا نتساءل بعد هذا : ما معنى هذه الموضوعية ؟ وهل هى موضوعية حقاً ؟ أظن أن نظرة بسيطة إليها ، تدل على أنها ليست الموضوعية المفهومة عادة . فالموضوعية معناها الوجود فى خارج العقل ، أى فى الأشياء ذاتها سواء أكان ذلك على نحو جوهر أى شئ قائم بذاته ، أم على نحو عرض ، أى صفة يتصف بها الموضوع الخارجى . وكنت ينكر الموضوعية بكلا المعنيين بوضوح ، فمن البين إذن أن الموضوعية التى يعينها ليست هى ما نعنيه عادة من هذا اللفظ . وإنما الذى يقصده من موضوعيته ، هو أنه واقعى ذو حقيقة ، وليس وهماً أو من نتاج الخيال ، وإن كانت هذه الواقعية باطنة صرفة ، لا وجود لها إلا فى عقولنا بمثابة شروط لاستطيع الحساسية بغيرها أن تدرك مضمون التجربة الخارجية . فتسمية كنت لهذه الواقعية الباطنة الصرفة بأنها موضوعية فيه عدم تدقيق ظاهر ، إن لم يكن نوعاً من اللجاج .

تلك إذن نظرية كنت فى الزمان كما عرضها فى الحساسية المتعالية فى « نقد العقل المجرد » ، وتكاد أن تُعدّ الصورة النهائية لمذهبه فى الزمان . فلنأخذ الآن فى نقدها بحسب وجهة نظرنا ، فإن من الممكن أن تُنقَد من عدة أوجه نظر . ولعل نظرية من نظريات كنت لم تلق من النقد العنيف مالاقت هذه النظرية فى الزمان وقرينتها التى لا تنفصل عنها بحال ، نعى نظرية المكان .

ولا تزال الخصومة التي قامت بين ترندلنبرج وكونوفشر وأنصار كل^١ حول هاتين النظريتين تدوى إلى اليوم في كل الآذان . وتقعدنا إياها سيكون إذن من وجهة النظر الوجودية ، لا من ناحية نظرية المعرفة أو علم النفس .

فأول ما نلاحظه على هذه النظرية في الزمان أن الخلط فيها بين الزمان والمكان واضح كل الوضوح . ولسنا في حاجة إلى بيان هذا ، فإن كنت قد جعل الحجاج متوازية متناظرة تماماً في كلا العرضين . وكنت نفسه لا ينكر هذا على أى نحو ، حتى إنه انتهى في عرضه لها إلى الحديث عنهما كأنهما شيء واحد من حيث طبيعتهما . وكل ما هنالك من فارق ظاهر هو أن الزمان يقوم على التوالي ، بينما المكان على التتالي بمعنى الوجود جنباً إلى جنب ؛ وعدا هذا - ولا بد أن يوجد هذا الفارق ، وإلا فلا معنى مطلقاً للتمييز بينهما حتى في الاسم - فإن الخصائص واحدة ، والماهية واحدة من حيث الصلة بالوجود . حتى إن كثيراً من المؤرخين والعارضين للمذهب كنت يتحدث عنهما معاً وكأنهما شيء واحد في تحديد الخصائص والماهية (١).

وهذا المزج قد يكون طبيعياً من وجهة نظر كنت ، إذ هو لم ينظر إليهما إلا على أنهما شكلان قبليان للحساسية ، وأنهما لا وجود لهما خارج الذات ، إنما هما إطاران فطريان في العقل الإنساني تُرتَّب مدلولات الحس ومضمونات التجربة الخارجية على نحوهما حين تدخل العقل ، وليسوا صفتين باطنتين في الموضوعات الخارجية ، وبالأحرى ليسا أشياء قائمة بذاتها ، وفي كلمة واحدة لا وجود لهما إلا في الذات العارفة . بل إن هذا الوجود في الذات العارفة ليس معناه أنهما يؤثران في الحياة الباطنة للإنسان بما هي حياة باطنة ، أعني في تحديد طبيعتها الذاتية ؛ وإنما أثرهما لا يتجاوز صلة الذات بالموضوعات الخارجية إبان المعرفة ، وفيما عدا هذه الصلة - الخارجية - ليس لها نصيب

(١) كما فعل بيتون مثلاً في كتابه : « ميتافيزيقا التجربة عند كنت » ج ١ ،

فى تحديد طبيعة هذه الحياة الباطنة كما هى فى ذاتها . فتأثيرها إذن يمكن أن يُشَبَّه بتأثير لون زجاج نافذة فى الضوء الداخلى فى الغرفة من الخارج . دون أن يكون لهذا اللون أدنى تأثير فى تحديد طبيعة الغرفة الداخلية . فحتى من ناحية الحياة الباطنة والذات ، لا أثر فى الواقع لنظرية الزمان إلا من ناحية صلتها بالخارج . وواضح من هذا أن أثرهما ضئيل جداً يرتبط بنظرية الوجود، إلى درجة أن من الممكن إغفالها نهائياً فى تفسيرنا للوجود .

وهذا أمر قد يكون مفهوماً بالنسبة إلى مذهب حاول القضاء على الميتافيزيقا بمعنى إدراك الموجود كما هو فى ذاته ، وأنكر قدرتنا على معرفة الأشياء فى ذاتها ، وقال بنسبة المعرفة إلى الذات العارفة ؛ مذهب يكاد أن يتلخص فى نظرية المعرفة وحدها . ولكن هذا لا يمكن أن يفهم بالنسبة إلى مذهب فى الوجود يؤمن بإمكان قيام الميتافيزيقا على هذا الأساس ، أعنى على أساس أنها البحث فى الوجود من حيث ما هيته ومعناه . ولهذا فإن هذا المذهب فى الوجود لا يمكن أن يعترف بما فعله كنت هنا من استبعاده الموضوعية — بالمعنى المفهوم الذى حددناه آنفاً — عن الزمان ، وإضافته إلى الذاتية بالمعنى الضيق الذى فهمه كنت وأبنائه منذ قليل — ، ثم الخلط بينه وبين المكان .

فما نريد أن نأخذ على كنت هنا أولاً شيئين : حسابه الزمان شكلاً قبلياً تُدرك على نحوه مدلولاتُ الحس ، ولا وجود له فى الوجود الخارجى ولا صلة له بالموضوعات الخارجية كما هى فى ذاتها . وثانياً خلطه بين الزمان وبين المكان حتى كادا أن يصبحا شيئاً واحداً مما أدى إلى سوء فهمهما على السواء .

ولكننا لا نريد بالاعتراض الأول أن نعود إلى الموقف الذى كان حول كنت ، موقف نيوتن وموقف ليبنتس . فنحن لا نقول بزمان مطلق مستقل عن الموجودات ، وكأنه جوهر قائم بذاته ؛ كما لا نقول أيضاً بأنه نظام التواليات الممكنة ، وهو بالتالى نسبة وإضافة بين الموجدات ، ولا دخل

له في تحديد طبيعتها . فكلما الموقفين مرفوض لدينا : الأول لأنه لا يجعل الزمان طابعاً جوهرياً سارياً في الوجود يحدد طبيعته وماهيته ؛ والثاني لأنه لا يفعل هذا أيضاً ، بما يعزوه إلى الزمان من مساواة أو عدم اكتراث أو سوية بالنسبة إلى الموضوعات الذي هو نسبة بينها . فكونه نسبة ليس من شأنه أن يدخل الزمان في تحديد طابع الوجود وماهيته .

إنما نريد أن نقول إن الزمان طابع جوهري يحدد هذا الوجود في طبيعته وماهيته ، وليس ينتسب إلى الذات في حالة المعرفة وحدها ؛ وإذا كانت الذات في معرفتها تخضع له ، فذلك لأنه ينتظم كل موجود وفي كل حال من أحوال وجوده بما في ذلك الذات في حال المعرفة . ففوقنا إذن لا نقول عنه إنه مناقض للمذهب كنت في الزمان كشكل تصاغ على نحوه مدلولات الحس ومضمونات التجربة ، بل بالعكس إنه يشمل هذا المذهب . ولكنه يعلو عليه بأن يدخل كل ما في الوجود تحت شرط الزمان وسلطانه ، بحسبانه محدداً لطبيعة هذا الوجود بوجه عام ، وفي كل جزء من أجزائه ؛ وليس الأمر مقصوراً إذآ على المعرفة أو الذات العارفة حال كونها عارفة ، أى مدركة لمدلولات الحس والتجربة الخارجية ؛ ففوقنا إذن يتضمن مذهب كنت ويعلو عليه ، لأنه يشمل الوجود كله ، بأن يفسره على أساس الزمان .

وهنا قد يعترض علينا من وجهة نظر كنتية فيها توفيق بعض الشيء بين مايقوله ومانقول ، بأن يقال : ولكن موقف كنت أكثر احتياطاً لأنه رد كل وجود إلى الوجود الظاهري في الواقع ، لأن هذا الذي سماه الشيء في ذاته لا معنى له حقاً عنده ، ولا مانع من استبعاده كما قلنا من قبل ؛ وتبعاً لهذا فإن الوجود سيكون وجود الظواهر ، وهو وجود خاضع لشرط الزمان ، وكأن كنت إذن لا يختلف عن موقفنا من ناحية أنه أدخل الزمان شرطاً ضرورياً في تحديد الظواهر ؛ والفارق سيكون إذن في أن كنت أقل توكيداً وأقرب إلى الشك أو بالأحرى إلى الحيلة في تقدير قدرة العقل على إدراك الوجود

الخارجى . وهو اعتراض قد يكون وجيهاً إذا كنا نذهب إلى ما ذهب إليه كنت من القول بالظواهر وبالشئ في ذاته ، وتقسيم الوجود على هذا الأساس إلى قسمين : قسم يدرك بالعقل ، ويخضع للعقل ؛ وقسم لا يمكن أن يبلغه العقل ، بل يظل هذا المجهول الأكبر . ولكننا لا نذهب هذا المذهب الذى دُفع إليه كنت كرد فعلٍ عنيف ضد النزعة التوكيدية التى رآها سائدة فى الميتافيزيقا فى عصره خصوصاً ، وفى العصور السابقة عموماً . فوقفه مفهوم جداً من هذه الناحية ، أى بوصفه نقداً لتوكيدية اسبينوزا وليبننتس ومن جرى فى إثرهما من معاصريه مثل قولف ، تلك التوكيدية المنحدرة إلى الفكر الأوروبى من الفكر اليونانى القديم . والعلة فيها عدم امتحان قدرة العقل ومداهها فى المعرفة ، وعدم فحص أوراق اعتماده لدى الوجود الخارجى أو الوجود بوجه عام . فهمة كُنْتُ كانت إذن هذا الامتحان ، وبالتالى وقف العقل عند حدوده الطبيعية التى فرضتها عليه الطبيعة ؛ وفى هذا كان على صواب . وإنما أخطأ فى أنه وقف عند حد العقل ولم يشأ أن يعلو عليه ، واحتمى بهذه النسبية فى المعرفة فلاذ بمأواها دون أن يفكر فى إمكان الخروج عنها بطريق آخر غير طريق العقل . فهو قد آثر إذن أن يقف هذا الموقف السلبي ؛ ومن هنا وقف عند نظرية المعرفة ، كما وقف لدى الظواهر ولم يستطع أن يجد منفذاً إلى الوجود فى ذاته . ولذا نراه يسلم بهذه القيود التى وضعت للعقل ، بل ويفرضها على مضمون التجربة ، وكأنه لا سبيل إلى إدراكها إلا على هذا النحو . وإذا كان من الممكن أن يستخرج لكنت مذهب فى الوجود ، فلن يكون إلا هذه النسبية نفسها ، ومن هنا نفهم بوضوح ارتباط فكرة الزمان لديه بمذهبه العام : فالمعرفة نسبية ، والوجود المعروف لدينا نسبي . فكيف لا يكون الزمان هو الآخر نسبياً وليس شيئاً قائماً بذاته فى الخارج ؟ الحق أن مذهب كنت هنا منطقي من ألفه إلى يائه ، وحدوده يعين بعضها بعضاً ، فلا ينتظر بعد ممن رد كل وجود إلى الظواهر وإلى المعرفة القبلية القاصرة أن يدخل الزمان فى تفسير الوجود الخارجى ،

إذ هو تجاهل كل شيء عن حقيقة هذا الوجود الخارجى ، أو الشيء فى ذاته كما يسميه . فإذا انحلَّ كلُّ شيء إذن إلى ظواهر ، وظواهر عقلية ذاتية ، وكانت هذه الظواهر خاضعة بالضرورة لشرط الزمان ، فمن الواضح إذن أن كنت قد أدخل الزمان - بهذا المعنى طبعاً - فى تفسير الوجود أعنى الظواهر عنده . وبهذا يمكن أن يقال إن كنت لم يخرج عما نقول نحن .

فإن جاز هذا التفسير - وهو بلا شك جائز إلى حد كبير - فلن يكون موقف كنت إذن مخالفاً لموقفنا كل المخالفة أو حتى بعضها . غير أن هذا لا يحل الخلاف أو المشكلة بين الموقفين ، وإنما يغير وضعها ، دافعا بها إلى مستو آخر . هذا المستوى هو إمكان قيام علم الوجود أو الميتافيزيقا . بمعنى إدراك حقيقة الوجود بوجه عام ومعناه . ومن هذا الوضع الحديد الذى حول المشكلة عن مكانها دون أن يحلها ، يمكن أن نتبين حقيقة الخلاف فى كلا الموقفين .

فالمشكلة بين كنت وبيننا إذن يمكن أن توضع كما يلى : هل يمكن قيام علم الوجود ؟ وعلى أى نحو ؟ وهواسطة أية أداة للمعرفة ؟

والإجابة عن هذا السؤال ستتضمن بالضرورة الإجابة عن الاعتراض الثانى الذى وجهناه ضد كنت ، وهو خلطه بين الزمان والمكان . ونحن قد بينا من قبل إمكان تبرير هذا الخلط من وجهة نظر كنت نفسه ، إلى حد ما ، حين قلنا إنه نظر إليهما من ناحية نظرية المعرفة ووجدتهما يتفقان معاً فى أنهما شكلان قبليان للحساسية وإطاران فطريان فى طبيعة العقل الإنسانى يرتب على نحوهما مضمونُ التجربة الخارجية . ونقول إلى حد ما لأن هذا التبرير يأتى من ناحية مراعاة الاتفاق والشبه بينهما ، لا من ناحية ما بينهما من فروق . فقد كان فى وسع كنت لو شاء أن يتعمق معنى هذه التفرقة بينهما على أساس أن الأول ، أى الزمان ، يقوم على فكرة التوالى ، بينما يقوم المكان على فكرة التتالى ، أى الوجود جنباً إلى جنب ، لا واحداً بعد الآخر .

ولكنه بدلاً من هذا بحث في طبيعة الهندسة بوصفها علم المكان، وبحث في قانون العلية من حيث ارتباطه بالزمان ، فلم يصل بهذا إلى إدراك طبيعة الزمان ، ولا حقيقة المكان ؛ لأنه بحث في المكان من ناحيته المجردة التي نجدها في الهندسة ، وإن كان مع هذا قد حاول أن يخفف من طابع التجريد بأن يُرجع صحة البراهين في الهندسة إلى العيان لا إلى البرهان ، وحمل على إقليدس من هذه الناحية حملة تابعه عليها شوبنهاور^(١) . ومرجعها إلى أن المكان ، كما أثبت من قبل ، عيان وليس تصورياً ، كما أن بحثه في الزمان جاء ملحقاً بالبحث في قانون العلية ، على أساس أن العلة تسبق المعلول في الزمان ، فهنا بالتالي تتابع وتوال ، والتوالى ينتسب إلى الزمان ؛ ولكن هذا الارتباط بين العلة وبين الزمان ارتباط خارجي في الواقع ، لا يكشف فيه عن حقيقة الزمان . ولهذا كله لا نستطيع إذن أن نقول إنه تعمق بحث هذا الفارق بين الزمان والمكان ، مما كان من شأنه أن ييسر له فهم كل على حقيقته ، بالقدر الذي يتاح له ذلك على أساس مبادئه . فهو مقصر في هذه الناحية ، ما في ذلك من شك .

لكن لن يسكون في وسعه مع ذلك ، وفقاً لمبادئه ، أن يأتي بشيء ذي بال في هذا الباب ، لأن التفرقة الحقيقية بين الزمان والمكان لن تتحقق على أساس مذهبه ، بل على أساس آخر جديد فيه إجابة عن المشكلة الأولى وهذه المشكلة في آن واحد معاً . هذا الأساس هو التفرقة بين الحى وبين الفزيائى ، ومى التفرقة التى وضعها المذهب الحيوى عند برجسون واشبنجلر بكل وضوح . ومن هذه الناحية نقدا كنت ، ثم عرضا مذهبيهما في الزمان ضد مذهبه .

وعينا الآن أن نتحدث بإيجاز عن تقدمها هذا ، قبل أن نعرض لإجابتنا عن المشكلة الأولى ثم هذه المشكلة الخاصة بالتفرقة بين الزمان والمكان .

(١) راجع كتابنا عنه : ص ١٠٨ - ص ١٠٩ .

أما نقد برجسون فنقد عام يتناول المذهب النقدي لـ كنت . فقد رأى أن كنت بنقده لمعرفتنا للطبيعة لم يفعل إلا أن بَيَّن ماذا يجب أن يكون عقلنا وماذا يجب أن تكون الطبيعة ، « لو » كانت ادعاءات علمنا صحيحة لها ما يبررها . ولكنه ، أى كنت ، لم يَقم بنقد هذه الادعاءات . إنما اعترف ، من دون نقد دقيق ، بفكرة العلم الواحد ، الذى يستطيع بدرجة واحدة أن يدرك كل أجزاء الموجود المعطى لنا فى الحواس ، وأن يرتبها فى نظام كلى موحد محكم التركيب ؛ أو بعبارة أوضح لم يميز بين أنواع من العلم وفقاً لأنواع الوجود المعطى لنا فى الشعور ، لم يميز بين الفزيائى والحيوى والنفسى ، ولم يجعل إذن لكل علمه الخاص ومنهجه الخاص ، بل وملكته الإدراكية الخاصة ؛ إنما سار على هذا الزعم الذى قال به العلم الواحد ، والتجربة لا تسير فى نظره فى اتجاهين مختلفين ، بل لعلهما متقابلان متعارضان ، أحدهما اتجاه العقل ، والآخر اتجاه مضاد للعقل ، سيسميه برجسون باسم الوجدان (١) : بل هناك فى اعتباره تجربة واحدة فحسب يشملها العقل وحده ، إذ هذا ما عناه كنت بقوله إن كل عياناتنا حسية ، أى تحت عقلية . ولكن هذا الزعم يكون صحيحاً ، إذا كانت درجة الموضوعية فى العلم واحدة فى كل أجزائه ، أما إذا تصورنا العلم قابلاً للزيادة والنقصان فى درجة الموضوعية ، بأن تقل موضوعيته وتزداد درجة رمزيته ، كلما انتقل من الفزيائى إلى النفسى ماراً بما هو حيوى — إذا تصورنا هذا فيسكون

(١) نستعمل كلمة « وجدان » لترجمة الكلمة الفرنسية intuition التى ترجمناها من قبل بالعيان . وذلك للفرقة بين نوعين منه لا يفرق بينهما فى اللغات الأفرنجية بوضوح ، وهما الميتافيزيقى والحسى . فالـميتافيزيقى ، وهو الوجود هنا عند برجسون ، نترجمه بكلمة وجدان ، والحسى الذى قصد إليه كنت نترجمه بكلمة عيان . ولنا فى اختيارنا هذا ، كما فى اختيار ما أوردناه هنا من مصطلحات ، أسباب مؤيدة بخصوص من الفلسفة الإسلامية أو من الاصطلاح المستعمل عند الكتاب المتفلسفين (كالتوحيدى مثلاً) ، ذكرناها فى « معجم الفلسفة » الذى نشغل الآن بعمله .

ثمت وجدان أو عيان لما هو نفسى ولما هو حيوى ، مما يستطيع العقل أن يدركه حقاً ، ولكن بدرجة قاصرة ، لأنه يتجاوز نطاق العقل . وذلك لأن الإدراك يتم هنا بملكة أسمى من العقل هى الوجدان . فإذا كانت هذه الملكة ممكنة ، خرجنا عن النطاق النسبى الضيق الذى اعتقلنا فيه كنت « نطاق عالم الظواهر ، إلى نطاق أوسع هو نطاق عالم الأشياء فى ذاتها ، أو الروح بما تشمل عليه فى جوهرها وحاقها ؛ وستكون المعرفة إذن غير مقصورة على الظواهر ، بل ستعدها إلى المطلق الروحى ، إلى اليبوع الأصيل للوجود ، فتدركه كما هو فى ذاته . وهذا يسقط هذا الحاجز المنيع المزعوم الذى وضعه كنت بين العقل وبين الشيء فى ذاته . وإذا ما سقط « سقط معه الحَجَرُ الذى أوقعه كنت على الميتافيزيقا ، ونهضت هذه من كبوتها أقوى مما كانت عليه من قبل بكثير . وهذا كله لن يتم إذن إلا بالتفرقة بين نظامين فى الوجود : فزيائى وحيوى . وإدراك الأول يتم بالعقل ، والعقل يكاد أن يكفيه ؛ وإدراك الثانى يتم بملكة أخرى فوق العقل هى الوجدان ؛ والمعرفة الأولى حسية تقوم على التجربة الحسية فى البدء ، وهى بهذا نسبية كما قال كنت بحق ؛ ولكننا سرتفع فوق هذه النسبية بواسطة هذه الملكة الأخرى ، ولنلحق بالمطلق ، أى لا بد إذن من القول بثنائية فى ملكة الإدراك.

ولكن كنت لم يشأ أن يقول بهذه الثنائية ، بل ولم يكن فى وسعه ذلك ، « لأن الاعتراف بهذا يقتضى النظر إلى المدة *durée* (أو الزمان بالمعنى الحيوى) على أنها نسيج الواقع نفسه ، وبالتالى التمييز بين المدة الجوهرية للأشياء والزمان المشتت فى المكان ؛ إنه يقتضى أيضاً النظر إلى المكان نفسه ، والهندسة التى تقوم عليه ، على أنه حد مثالى فى اتجاهه تتطور الأشياء المادية ، ولكنها ليست متطورةً بعدُ فيه (أى لم تتم تماماً) . ولا شئ أبعد من هذا عن « نقد العقل المجرد » ليس فقط فى نصه ، بل ولعله أيضاً فى روحه . أجل إن المعرفة قد عرضت لنا هنا كقائمة لا تزال مفتوحة دائماً ، والتجربة كدفعة للوقائع تستمر من غير انقطاع . ولكن هذه الوقائع ،

في نظر كنت ، تتشبت شيئاً فشيئاً على مستوى ؛ أعنى أنها متخارجة بعضها بالنسبة إلى بعض ، وخارجة أيضاً بالنسبة إلى الروح . ولا نجد هنا أثارة من الكلام عن معرفة من الباطن ، تدركها في اثباتها نفسه بدلاً من أن تأخذها بعد أن تكون قد اثبتت ، معرفة تحفر هكذا تحت المكان وتحت الزمان الممكن . ومع هذا فإن شعورنا يضعنا تحت هذا المستوى . فها هنا المدة الحقة » (١) .

أى أنه كان على كنت أن يقول إذن بأن الزمان الحق ، أعنى المدة ، هو نسيج الواقع نفسه ؛ ومن هنا يقول بمصدرين للمعرفة ، أحدهما العقل الذى لا يستطيع أن يدرك إلا الجانب المتحجر من هذا النسيج الحى المتغير السبيل ، وهذا لا يدرك إلا الظواهر ، كما أثبت ذلك كنت بحق ؛ والآخر هو الوجدان الذى يستطيع أن ينفذ إلى أعماق الوجود الحى ويدرك جوهره وسره . وحينئذ يستطيع أن يدرك الفارق الهائل بين الزمان والمكان ، أعنى الزمان الحىوى ، أو المدة الجوهرية للأشياء ، لذلك الزمان الآلى المتحجر المتصور على هيئة المكان وهو الذى يقول به العقل ، ويستخدمه العلم .

بهذا إذن نستطيع أن نتجاوز الموقف الذى اعتصم به كنت وأنكر على أساسه إمكان إدراك المطلق أو الشيء فى ذاته كما سماه .

أما خلطه بين الزمان والمكان فقد عنى اشبنجلر ببيانه بوضوح « لا بالنسبة إلى كنت وحده - وإن كانت انتقاداته متجهة خصوصاً إليه ، ولم يذكر اسم أحد غيره من بين من عالجوا مشكلة الزمان - بل وبالنسبة إلى كل المفكرين . فقال إن مشكلة الزمان ، كمشكلة المصير ، قد عالجها

(١) برجسون : « التطور الخالق » ، ص ٣٩٠ (ترقيم الصفحات واحد فى كل الطبعات ، فلا داعى لذكر سنة الطبع إذن) . وراجع نقد برجسون لكنت من ص ٣٨٥ - ص ٣٩١ .

كل الفلاسفة الذين يقتصرون على تنظيم المتحجر أو الذى صار بالفعل ، ولكنهم عاجلجوها دون أن يفهموها إطلاقاً على وجهها الصحيح . فكنيت فى نظريته المشهورة فى الزمان لم يقل كلمة واحدة فيها إشارة إلى طابع الاتجاه فى الزمان ، مع أنه الطابع الأصيل فيه ، وإلا فإذا عسى أن يكون هذا الزمان الخطى ، العديم الاتجاه ؟ إن كل حى له حياة وله اتجاه وإرادة وانفعال عميق قريب الصلة بالحنين ولا صلة له « بمحركة » الفزيائى على أى نحو من الأنحاء ؛ الحى لا يقبل الانقسام الآلى الذى نجريه فى المكان ، وهو ما يسميه برجسون باسم « تقطيع الواقع الحى (١) » ، وهو ينمو فى اتجاه يبدأ من الميلاد ويستمر قديماً فى مسارٍ لا يمكن أن يعيّن بطريقة آلية ؛ وهذا كله من طبيعة المصير . وهذا الطابع العضوى الجوهري فى الزمان هو الذى يميزه تمام التمييز من المكان المتحجر ، هذا الحالى من الاتجاه ، الذى تصلح أية نقطة فيه أن تقوم مقام أية نقطة أخرى ، مما نعبر عنه بقولنا إن المكان تجانس مطلق ؛ إنه تصور ، أى فكرة منطقية متحجرة ، ثبتتها اللغة فى قالب لا يتطور ولا ينمو . فكيف يحق لكنت إذن وأمثاله أن يخضع الزمان (إلى جانب المكان) لدراسة نقدية واحدة للمعرفة ؟ كلا ، إن الزمان ليس تصوراً من التصورات العلمية المنطقية كالمكان ، وكل دراسة له من هذه الناحية فيها تشويه لطبيعته تماماً ؛ بل إن قولنا عنه إنه اتجاه أو ذو اتجاه يمكن أن يخذلنا ، بما يثيره هذا القول من صورة بصرية ، من شأنها إذن أن تقرب بينه وبين المكان ، وهو ما تجتنبنا الوقوع فيه . والدليل على هذا فكرة الكمية المتجهة فى الفزياء ، فإنها خدعت عن طبيعة الزمان الحقيقية وجعلتنا ننظر إليه تلك النظرة المشوبة بطابع المكان ، مما هو مشاهد فى النظرية الفزيائية فى الزمان . مع أن الأمر يجب أن يكون على العكس تماماً : فإن الزمان أساس المكان ، لا العكس كما ادعى السابقون ،

وعلى أساس هذا الادعاء أقام كنت نظريته في الزمان والمكان . لأن طابع الزمان هو الاتجاه . والاتجاه أصل الامتداد ، إذ هو امتداد في العمق والبعد . وتجربتنا للمكان إنما هي شعور بالعمق أو الاتجاه في البعد ، ولهذا فإن البعد الحقيقي للمكان هو العمق وليس الطول أو العرض ، وإنما الرياضيون وأصحاب النزعة الآلية هم الذين شوهوا المكان بأن أهملوا صفة العمق ، إذ قالوا إن للمكان أبعاداً ثلاثة : هي الطول والعرض والعمق ، وجعلوها جميعاً على درجة واحدة في تحديد حقيقة المكان ، مع أن العمق يختلف في نوعه وقيمه عن الطول والعرض ، إذ يمثل هذان مؤثراً حسياً خالصاً بينما العمق يمثل الطبيعة والتعبير عن الوجود الحى ، وفيه يشعر الموجود الواعى بأنه فاعل ، بينما هو في حالتي الطول والعرض قاهل سلبي ؛ فالمكان الحقيقي هو إذن الذى يراعى فيه صفة العمق قبل كل شئ ، وهى صفة صادرة عن فكرة الاتجاه في الزمان ؛ ومن هنا فإن الزمان أصل المكان ؛ وبعبارات برجسونية ، يقول اشبنجلر إن المكان قطعة من الزمان المتحجر ؛ المكان كائن أى ليس صائراً سيالاً كالزمان ؛ « كائن لأنه يقف خارج الزمان ، مسلوباً من الزمان ، وبالتالي من الحياة » (١) .

ويأخذ اشبنجلر على كنت تشويهه لمشكلة الزمان بربطه إياه بالحساب الذى جهل مع ذلك ماهيته ، مما أدى به إلى الحديث عن شبح للزمان ، خال من الاتجاه الحى ، وليس بالتالى غير صورة إجمالية مكانية . والواقع أن هذا النقد مصيب فى هذه الناحية خصوصاً ، وإن كانت المشكلة من الناحية التاريخية أعقد مما يبدو ؛ نغنى بذلك أن ربط كنت بين الحساب وبين الزمان ليس واضحاً كل الوضوح فى أقواله ، لكن ليس هذا لأنه لا يقول بذلك ، ولكن لأنه لم يتعمق هذه المسألة ولم يفصل فيها القول . فهو فى « الحساسة المتعالية » (٢) لا يكاد يتحدث إلا عن الهندسة ، رابطاً إياها بنظرية المكان ؛

(١) اشبنجلر : « انحلال الغرب » ج ١ ، ص ٢٢٥ ، منشئ سنة ١٩٣١ .

(٢) « نقد العقل المجرى » : ٢٥١ = ب ٤١ .

ولا يشير إلا إشارة عابرة جداً هنا إلى القضايا الحسابية ، حينما يجعل هذه القضايا من بين الأحكام التركيبية القبلية ؛ بل يجعل مثله لها من الحساب (القضية $٥ + ٧ = ١٢$) . وفي هذا إشارة إلى أن إمكان الحساب والقضايا الحسابية يتم بقبلية الزمان ، بمعنى أن الحساب يقوم على أساس إضافة أعداد « متوالية » بعضها إلى بعض ، والتوالى لا يتم إلا في امتثال الزمان ، فالحساب إذن يفترض الزمان ، كما تفترض الهندسة المكان . ولذا يبدو من أقواله في « الصور الإجمالية لتصورات العقل الخالصة » (« نقد العقل المجرد » ١٤٣١ = ب ١٨٢) أن علم العدد أو الحساب هو العلم القبلى للزمان ، وذلك حين يقول : « العدد ، هو امتثال يتضمن الجمع المتوالى لوحدات متجاورة . ولهذا فإن العدد ليس إلا وحدة تركيب المتعدد لعيان متجانس بوجه عام ، وحدة ترجع إلى توليدى الزمان نفسه في إدراكى للعيان » . ثم لا يظهر رأيه في موضوع أصرح منه في كتابه « مقدمة لكل ميتافيزيقا أيا كانت في المستقبل ، يمكن أن تعرض نفسها علماً » حين يقول « إن الهندسة تقوم على أساس العيان الخالص للمكان . أما الحساب فيأتى بتصويراته العددية عن طريق الجمع المتوالى للوحدات في الزمان ، ولكن الميكانيكا الخالصة هى أخرى منه بالإتيان بتصويراتها عن الحركة بواسطة امتثال الزمان » (١) .

فيظهر من هذا إذن أن كنت لم يوضح رأيه في الصلة بين الحساب وبين الزمان ، بل ترك الأمر غامضاً كثيراً ؛ ولو قورن بما يقوله في الصلة بين الهندسة وبين المكان ، لوجد أنه لم يكده يقول في المسألة الأولى شيئاً ، بينما توسع كثيراً في المسألة الثانية . وقد يكون هذا دليلاً على شعور كنت بأن الأمر في حالة الزمان يختلف عنه في حالة المكان ، ولم يجد في نفسه الشجاعة أو الصبر الكافى لإيضاح هذا الرأى ، بل استمر على هذا الرأى

(١) « مقدمة لكل ميتافيزيقا الخ » § ١٠ ، ص ٣٦ ، س ٣٠ - س

٣٥ ، نشرة كارل فورليندر ، ليبتيك سنة ١٩٢١ .

القديم الذى يربط بين العدد والزمان ، بحسبان أن الزمان عدد الحركة ، كما قال اليونانيون وأرسطو بوجه أوضح وأخص . وهذا يدلنا على أن كنت قد ظل فى هذه الناحية تحت تأثير الفكر القديم ، وسار فى إثر أرسطو كما أشرنا إلى هذا من قبل . مع أن المقدمات الأرسطية المذهبية لهذا التعريف للزمان بأنه « عدد » الحركة تختلف جد الاختلاف عن المقدمات الكنتية لمذهبه فى الزمان . وإن كان علينا ، مع ذلك ، والحق يقال ، أن نشير إلى اختلاف - وإن كان ضئيلاً - بين كنت وأرسطو هنا ، إذ يتبين - ولو على نحو غير واضح تماماً - من النصوص التى سقناها منذ قليل أنه يستعمل كلمة « الجمع » أى ما يشعر بعملية بالفعل ، أولى من أن يشعر بنتيجة الفعل ، أى عملية العد أخرى من العدد نفسه بوصفه نتيجة لعملية . ولكن هذا التبرير فيه فى الواقع شيء كثير من التعسف - إن لم يكن التعسف كله . ولذا فقد أصاب اشبنجلر (١) فى نقده لكنت هنا بأن قال إن مصدر الخطأ فى القول بالصلة بين الزمان وبين الحساب ، هو أن عملية العد تؤخذ على أنها العدد نفسه ، مع أن عملية العد فعل حى ، بينما العدد نفسه تصور متحجر ، وحداهم إلى هذا الوهم أن تمت نوعاً من الارتباط بين هذه العملية وبين الزمان . « ولكن عملية العد ليست العدد ، كما أن عملية الرسم ليست الشكل المرسوم : فعملية العدد والرسم صيرورة وتغير ، أما الأعداد والأشكال فأشياء متحجرة . وكنت والآخرين كانوا ينظرون : هناك ، إلى الفعل الحى (للعد) ، وهنا إلى نتيجة (نسب الشكل المتناهى) . ولكن الأول ينتسب إلى الحياة والزمان ، والثانى إلى الامتداد والعلية . وفعل العد خاضع للمنطق العضوى ، أما الشيء المعلوم فيقوم على منطق لا عضوى (٢) . » وليس الأمر مقصوراً على الحساب وحده ، بل الرياضيات كلها لا تتصل بالزمان

(١) وقد كرر هذا النقد من بعد يوهانس فولكلت فى كتابه : « ظاهريات

وميتافيزيقا الزمان » ، ص ١٢٢ ، منشئ ١٩٢٥ .

(٢) اشبنجلر : « انحلال الغرب » ، ج ١ ص ١٦٣ .

الحى ؛ لأنها تعرف السؤال عن « الكيف » وعن « الما » للأشياء الطبيعية .
ولكنها لا تستطيع الإجابة عن سؤال « متى » ، هذا السؤال التاريخى ،
أعنى المتعلق بالتاريخ وبالمستقبل والماضى وبالمصير ، وفى كلمة واحدة
بالحياة العضوية . وذلك لأن الرياضيات جميعها من شأن المكان والامتداد
وما هو متحجر ، ولا صلة لها مطلقاً بالزمان ، أعنى الزمان الحى العضوى .
أجل ، إننا نرى فى بعض النظريات الرياضية اتجاهها نحو التكيف قدر الإمكان
مع طبيعة الزمان ، أعنى الاستمرار والاتصال ، كما يظهر مثلاً فى فكرة
حساب اللامتناهيات وفى نظرية المجاميع ومبدأ ذات الحدين والدالات
المدوّرية . وكما يبدو أيضاً فى محاولة نيوتن حل مشكلة التغير على أساس
حساب التفاضل ، وهى محاولة تلعب فيها مشكلة الحركة الميتافيزيقية دوراً
كبيراً . ولكن هذه المحاولة الأخيرة قد أخفقت ، منذ أن أثبت فايرشتراس
وجود دالات ثابتة لا يمكن أن تتفاضل إلا تفاضلاً جزئياً ، أو لا يمكن أن
تتفاضل على وجه الإطلاق .

والمسألة التى يثيرها اشبنجلر هنا ، أعنى مسألة الصلة بين الزمان وبين
الرياضيات ، مسألة أثير حولها أكثر الجدل مما لا يزال مستمراً على أشده
حتى اليوم ، طالما كانت نظرية النسبية قائمة بادعاءاتها الميتافيزيقية . ولهذا
عنى فلاسفة الزمان فى هذا القرن ، خصوصاً من ينتسب منهم إلى النزعة
الحوية ، بالرد على هذه النظرية وبيان الصلة بين الزمان وبين الرياضيات
عموماً على الوجه الصحيح من وجهة نظرهم ؛ فقد عنى بها برجسون وكرس
لها كتاباً مفرداً هو كتاب « المدة والمعية » الذى ظهر سنة ١٩٢٢ ، والمعركة
حامية الوطيس حول نظرية النسبية وقيمتها الفلسفية وما ينتظر منها فيما يتصل
بمشكلة الزمان من الناحية الفلسفية . كما أفرد لها هانز دريش كتاباً آخر هو
« نظرية النسبية والفلسفة » (سنة ١٩٢٤) . ولم يفت اشبنجلر أن يشير إليها
عابراً ؛ كما حلل مدلولها وقيمتها فولكلت فى كتابه « ظاهريات وميتافيزيقا
الزمان » (سنة ١٩٢٥) . وهؤلاء جميعاً من أصحاب النزعة الحوية . والسر

في عنايتهم هذه أن رد الزمان إلى نسب رياضية صرفة فيه ضربة قاضية على نظريتهم في الزمان الحيوى ، فضلاً عن أن نظرية النسبية قد جاءت في نفس الوقت الذى كانت فيه النزعة الحيوية في الفلسفة في أوج ازدهارها على يد من ذكرنا . فلم يكن إلا طبيعياً إذن أن يحتفلوا لها كل هذا الاحتفال . أما اليوم وقد انزاحت نظرية النسبية عن مركز التفكير العلمى نفسه - ولو قليلاً - ، فالأمر أهون خصوصاً في الفلسفة ، حتى صارت العناية بنقدها أو بالوقوف منها موقفاً خاصاً من جانب الفلاسفة لا تكاد تذكر . والأمـر أظهر بالنسبة إلى فلاسفة الوجود ، هيدجر ويسبرز ، فلا يكاد أحدهما أن يذكرها في كثير ولا قليل . وإنما العناية بها تظهر عند الرياضيين ذوى النزعة الفلسفية حينما يريدون علاج مشكلة الزمان ، فيربطونها بالناحية الرياضية . فهل معنى هذا أن الفلسفة قد سوت حسابها معها نهائياً ؟

لسنا نظن . ولذا سنشير إلى هذه الناحية هنا ، في شيء من الإيجاز طبعاً ، لأن الأمر ليس من اختصاصنا في شيء ، ولذا لن ندلى في الأمر برأى قطعى ، بل سنعرض النتائج بحسب فهمنا . وخلاصة المشكلة في هذا الأمر كما يلي : هل الزمان مستقل عن إطار الإشارة الزمانية كما تقول النظرية المطلقة للزمان ، أو هو نسبي إلى هذا الإطار ؟ فقد رأينا أن نيوتن قد قال عن الزمان إنه مطلق مجرد ، قائم بذاته ، في غير نسبة إلى أى شيء خارجى ، وبالتالي إلى أى إطار إشارة ؛ وعند لينتس أيضاً أن الزمان مستقل عن إطار الإشارة ، هذا إذا فهمنا أن لينتس لم يكن يقصد من قوله إن الزمان نظام التوالى للظواهر ، وإنه يقوم على نسب بين الأشياء - أنه نسبي إليها بالمعنى الذى تقصده نظرية النسبية من فكرة النسبية ، أعنى أن يكون الزمان نسبياً إلى إطار إشارة معلوم . ويجب في الواقع أن نفهم قصد لينتس على هذا النحو ، وألا ننساق مع هؤلاء الذين يزعمون أن نظرية النسبية قد سبقها نظرية لينتس القائلة بأن الزمان يقوم على نسب بين الأشياء . ذلك أن لينتس لم يقصد من هذا مطلقاً أن الزمان متوقف على إطار إشارة هو الشمس مثلاً بالنسبة

إلى الأرض ، أو المريخ بالنسبة إلى الأرض كما تقول نظرية النسبية . وفضلاً عن هذا فإن النسبية أو الإضافة يمكن أن تكون مستقلة عن إطار إشارة ، أى تكون مستقلة ، كما لاحظ لنتسن (١) بحق . وعلى أساس النظرية المطلقة للزمان قامت الميكانيكا القديمة إلى عهد أينشتين ، أى حتى أوائل هذا القرن فنظر إلى الزمان من حيث مقياسه على أنه واحد فى أى إطار إشارة أخذته . فمثلاً إذا أخذت إطار إشارة I ، وإطار إشارة آخر I' ، وحددت الزمن فى الإطار الأول بواسطة ساعات جعلت إشاراتها الزمنية واحدة بواسطة إشارة ؛ ووضعت فى I' أيضاً بضع ساعات تحدد النظام الزمنى فى هذا الإطار - فتبعاً لنظرية نيوتن والميكانيكا القديمة (أى حتى عهد أينشتين) سيكون المدلول الزمانى واحداً فى كلا الإطارين ، إذا كان الإطار I' متحركاً بالنسبة إلى الإطار I الساكن ، وكانت الإشارة الزمنية واحدة فى نقطة بدء التحرك من جانب I' . وعلى هذا فالمدلول الزمانى لساعة فى I' سيكون هو بعينه المدلول الزمانى فى إحدى الساعات فى I ، خصوصاً المقابلة لها أثناء التحرك ، حتى إنه إذا رصد راصد فى I الساعات فى I' وهى تتحرك مارة به بسرعة منتظمة ، فإنه سيجد أن ساعات I' تقدم نفس المدلولات الزمنية التى تقدمها ساعاته فى I . وهذا ما يعبر عنه بمعادلة التحويل : $z = z'$. ومعنى هذا أن الزمان واحد بالنسبة إلى كل إطارات الإشارة الزمنية ، بصرف النظر عن كون هذه الإطارات متحركة بعضها بالنسبة إلى بعض أو غير متحركة ؛ أى أن الزمان مطلق وليس نسبياً ؛ وعلى هذا فتمت نظام زمانى واحد بالنسبة إلى كل الراصدين فى إطارات إشارة مختلفة . وتحققت هذه النظرية المطلقة للزمان بواسطة معادلات التحويل المعروفة باسم تحويل جاليليو ، وهى معادلات تمكنتنا من الحصول على وصف الحركة المتعلقة بالإطار I' من

(١) راجع مقاله بعنوان : « الصورة الإيجابية للزمان » فى كتاب « مشكلة الزمان » ص ٢٥ ، نشرت جامعة كاليفورنيا فى الفلسفة ، المجلد رقم ١٨ كاليفورنيا سنة ١٩٣٥ .

وصف الحركة المتعلق بالإطار \mathcal{L} ؛ إلى درجة أنه إذا استطاع المرء الحصول على قوانين الحركة في \mathcal{L} ، استطاع أن يحولها إلى \mathcal{L}^* . ونتيجة هذا التحويل هي أن قوانين الميكانيكا القديمة ثابتة لا تتغير تحت تأثير التحويل الجاليلوي . وأيدت التجربة هذه النتيجة : إذ أننا لو جربنا تجارب ميكانيكية على سطح يتحرك حركة مستقيمة منتظمة بالنسبة إلى الأرض ، وهي هنا يمكن أن تُعدّ إطار إشارة ، فإننا سنجد أن نفس القوانين واحدة بالنسبة إلى الأرض . وبهذا تحققت النظرية المطلقة في الزمان . ونتيجتها العامة إذن هي أن الزمان واحد بالنسبة إلى إطارات إشارة يتحرك بعضها بالنسبة إلى بعض ، وبالأحرى والأولى إذا كانت ساكنة .

وهنا جاءت نظرية النسبية فقلبت هذا الوضع بأن جعلت الزمان نسبياً يتوقف على إطار الإشارة .

ذلك أنها قالت إنه في مثل التجربة السابقة سنجد أنه حينما تمر الساعة في \mathcal{L}^* وهي تتحرك مرة بساعات \mathcal{L} ، نرى أن المدلول الزمني لساعة \mathcal{L}^* يؤخر عن المدلول الزمني للساعة المقابلة لها في \mathcal{L} ؛ فإذا كانت الساعة في \mathcal{L} الثامنة ، كانت السابعة في الساعة في \mathcal{L}^* . وكلما زادت سرعة الإطار \mathcal{L}^* بالنسبة إلى \mathcal{L} ، زاد مقدار تأخير الساعة في \mathcal{L}^* عن مقابلتها في \mathcal{L} ، وبالتالي بالنسبة إلى كل الساعات المشيرة إلى زمن واحد في \mathcal{L} . والنتيجة لهذا إذن أن الزمن نسبي بين إطارات الإشارة ؛ والساعات الموجودة في إطارات إشارة مختلفة تعطي أزمنة مختلفة وفقاً لسرعتها بعضها بالنسبة إلى بعض وبفضل معادلات تحويل لورنتس يمكن أن تحدد بالدقة النسبة بين عاءات الساعات في كل إطار .

ونحن نعلم الأصل في هذه النظرية : فأول ما هدأت الأبحاث في هذا السبيل كان على أساس النتيجة السلبية التي انتهت إليها تجربة ميكلسون ومورلي ؛ وهذه التجربة قد أقيمت على أساس ما افترضه العلماء من وجود

أثير يتخلل الكون ، كى يفسروا خصوصاً ظاهرة التأثير عن بُعد ، إذ هذا الأثير يغنى فى هذه الحالة عن الوسط المادى المفترض ضرورة وجوده لنقل الأثر ، فإن ظاهرة كظاهرة تأثير المغناطيس فى الحديد مع عدم التماس بين المحرك والمتحرك ، لا يمكن أن تفهم إلا إذا افترضنا وسطاً يجرى فيه التأثير ، حتى يتيسر التماس ، ولما كنا لا نحس هنا بوسط مادى بين المغناطيس والحديد ، فإن علينا أن نفترض وسطاً نفاذاً فى الأشياء الصلبة دون أن يعوقه عائق ، وهو بهذا لا يؤثر فى الأشياء المار بها . والأرض مشمولة بهذا الأثير . فإذا كانت الأرض ساكنة فى الأثير ، كان الزمن المطلوب لاجتياز مسافة معلومة ، ذهاباً وإياباً ، ثابتاً باستمرار . مهما كان اتجاهها فى المكان . أما إذا كانت متحركة فى الأثير ، فإن قطع المسافة نفسها ، ذهاباً وإياباً ، يختلف تبعاً للاتجاه فى المكان ، فإذا كان الاتجاه من الشرق إلى الغرب مثلاً فإنه يستغرق وقتاً أطول مما إذا كان من الشمال إلى الجنوب ، ذهاباً وإياباً فى كلتا الحالتين . فأقيمت التجربة المعروفة باسم تجربة ميكلسون ومورلى . نسبة إلى من قاما بها أولاً ، على أساس إرسال ضوء من نقطة ولتكن ١ ، إلى مرآة ولتكن ٢ مغطى نصفها بالفضة ، فينعكس نصف الضوء فى اتجاه م م ، والنصف الآخر فى اتجاه م م ويساوى طوله طول م م ، وعند كل من م م م مرآتان تعكسان الضوء ثانية إلى م ، ويمر كل نصف من الشعاعين فى منظار مكبر صغير . فكان من المنتظر تبعاً لفرضنا الثانى أن يتأخر أحد الشعاعين عن الآخر ، إذا حركنا الجهاز زاوية مقدارها ٩٠° . ولكن النتيجة لم تكن كذلك . فعلى الرغم من إجراء التجربة عدة مرات ، لم يدين فارق بين الزمين . ومعنى هذه النتيجة للسلبية أن سرعة الأرض فى الأثير معدومة ، وأن الأرض ساكنة فى الأثير باستمرار ، وستكون الشمس إذن هى التى تدور من حولها ، مما يفضى بنا إلى العود إلى الفلك البطلميوسى الذى يجعل الأرض مركز الكون والشمس تدور من حولها . فأدهشت هذه النتيجة العلماء ، لأن من المسلم به أن

الأرض تدور حول الشمس بسرعة نحو ٢٠ ميلاً في الثانية . وتأيد هذا بتجارب دقيقة ؛ فكيف تقول لنا هذه التجربة إذن إن الأرض ساكنة ؟

هنا جاء لورنتس وفترزجرلد فتساءلا عن العلة في هذا التساوى في الزمن الذى قالت به تجربة ميكلسون ومورلى ، فوجداهما في ما يحتمله الضوء في قطعه المسافة من انكماش أو تقلص ؛ فإن الضوء كأي شيء متحرك يتقلص طوله بواسطة حركة ، كما يحدث للسيارة وهي تسير في الهواء ، فإنها تنكمش من أثر الضغط الذى يقع من الهواء على مقدمها ، محاولاً أن يدفع بها إلى الخلف ، وعلى العجلات الخلفية وهي تحاول الدفع بها إلى الأمام ، وإن كان الأمر لا يتم في حالة السيارة وحالة الضوء على نحو واحد بالضبط . وعن طريق فكرة الانكماش هذه حاولا تعليل التعادل الذى روى في تجربة ميكلسون ومورلى . وهذا الفرض قد أدى بلورنتس إلى وضع نظام من الصيغ أو المعادلات عرف فيما بعد باسم تحويل لورنتس . وهذا النظام من الصيغ أو المعادلات هو بدوره الذى دفع أينشتين إلى تخيل تفسير لا يعلل تجربة ميكلسون ومورلى وحدها ، بل وأيضاً كثيراً من الظواهر الفيزيائية التى لم تكن بعد مفهومه تماماً أو كانت غير مفهومة على الإطلاق .

حلل أينشتين بعض الأفكار الأولية التى كان يظن أن العلم قد فرغ من تحديدها ، وعلى رأسها فكرة « المعية » ؛ كما نقد لوباتشفسكى من قبل أولية فكرة التوازي التى تقوم عليها الهندسة الإقليدية ، وانتهى من هذا للنقد إلى هندسة أخرى غير إقليدية . فبالمثل فعل أينشتين بفكرة المعية ، وهى الفكرة التى تقوم عليها نظرية الزمان الفيزيائى ، خصوصاً عند نيوتن كما بينا رأيه منذ قليل . فقال : كيف تعرفون هذه الفكرة ؟ وكيف تحققون هذه المعية التى تظنونها أولية بسيطة ؟ إن المعية لا تدرك إلا بواسطة شخص تصل إليه إشارتان في وقت واحد من مكانين في متناوله ، سواء أكانت هذه الإشارة صوتية أم ضوئية ، إذا كانت المسافة أقل من ٣٤٠ م تقريباً (وهو مقدراً سرعة انتقال الصوت في الثانية ، والكلام هنا عن

مقدار ثانية من الزمن لوصول الإشارة) ، وضوئية فحسب ، إذا كانت المسافة أبعد من ذلك . فلتتصور شخصاً وليكن ح واقفاً في وسط المسافة بين M_1 و M_2 ؛ وأن سرعة انتقال الإشارة ثابتة في كل الاتجاهات . فإن هذا الشخص سيحكم بأن الإشارتين حدثتا في M_1 و M_2 في وقت واحد ، إذا استقبلهما معاً في نقطة الوسط الذي هو فيها ، ولتكن ط . وكذلك إذا أخذنا شخصاً آخر ، وليكن ح' ، واقفاً في منتصف المسافة ، وليكن ط' ، بين M_1 و M_2 ؛ فإنه سيحكم بالطريقة عينها على أن الإشارتين حدثتا معاً في M_1 و M_2 ، إذا استقبلهما معاً في ط' - ولكن إذا تحرك الواحد في مسافة بازاء الآخر ، فإن الإشارتين لن تدركا على أنها حدثتا معاً بالنسبة إلى الاثنين ، بل سينظر إليهما ح' المتحرك على أنها متواليان ، بينما ينظر إليهما ح الساكن على أنهما حادثتان معاً ، وذلك بالنسبة إلى حدوث الإشارتين في M_1 و M_2 ؛ والعكس إذا كان حدوثهما في M_1 و M_2 . وهذا يدل إذن على أن المعية تختلف تبعاً لإطار الإشارة ؛ وليس ثمت معية مطلقة إذن كما ادعت النظرية المطلقة في الزمان . فتحديد المعية ، وبالتالي الزمان (لأن كل قياس للزمان يقوم على أساس ملاحظة المعيات) ، في نقط مختلفة من المكان ، نسبي إذن ، وليس واحداً بالنسبة إلى زمر مختلفة من الراصدين .

وتلك هي النتيجة التي انتهى إليها أينشتين في نظريته النسبية المحدودة ، والتي أعلنها سنة ١٩٠٥ ؛ وقد سميت المحدودة لأنها لا تتعلق إلا بالراصدين الذين تكون حركتهم النسبية حركة مستقيمة منتظمة . وفي سنة ١٩١٥ وسع النظرية فجعلها تشمل غيرها من الحركات ؛ وسميت هذه النسبية المعممة . أما النتائج العامة التي أدت إليها نظرية النسبية المحدودة فعديدة أكثرها يبدو مطبوعاً بطابع التناقض الظاهر . وأهمها وأولها أن الزمان نسبي . وثانيها أن للمكان انحناء . والثالثة أن سرعة الضوء هي أكبر سرعة ممكنة . والذي يعيننا هنا خصوصاً هي فكرة الزمان (والمكان) التي تفضي إليها هذه النظرية . والمسألة الرئيسية في هذه الفكرة ، هي أنه ليس من الممكن

أن يفصل بين الزمان والمكان إطلاقاً، بل يكونان كلاً متصلاً يسمى متّصلاً الزمان والمكان ؛ والزمان في هذه الحالة إذن بُعدٌ رابع يضاف إلى أبعاد المكان الثلاثة . وبهذا المعنى يقول منكوفسكى : « إن الفصل بين المكان والزمان قد صار وهماً لا أساس له ، وإن اندماجهما على نحو ما هو وحده الذى يتسم بسبب الحقيقة (١) » . والفارق القديم الذى كان يقال بوجوده بين الزمان والمكان ، ألا وهو أن الزمان ذو اتجاه ولا يقبل الإعادة ، بينما المكان متساوى الاتجاه ، قد سقط على أساس هذه النظرية . إذ أن فكرة الاتجاه الواحد التى كانت تعزى إلى الزمان قد صدرت عن تصور زمان مطلق تتأثر به الظواهر والأشياء المتحركة فيه ، دون أن يتأثر هو بها أدنى تأثر ؛ أما إذا قلنا بأن الزمان نسبي ، يتوقف على إطار الإشارة ، والإطارات متعددة تبعاً لاختلاف الأجرام فى الكون فى حركتها بعضها بالنسبة إلى بعض ، فليس ثمة مجال للتحدث عن اتجاه واحد ، وزمان واحد لا يقبل الإعادة . وعلى هذا ، فهناك أكثر من اتجاه واحد فى متصل الزمان والمكان هو اتجاه زمنى ؛ والعالم الفزيائى إذن ليس ذا اتجاه واحد مستمر كاتجاه التاريخ ، مادام هذا ذا اتجاه واحد ، بينما ذلك العالم بوصفه كلاً له اتجاهات زمنية عدة . والفارق واضح بين كلتا النظرتين إلى الزمان : فالزمان التاريخى ، أعنى الزمان ذا الاتجاه الواحد ، توجد فيه الحوادث إما على هيئة التوالى أو على هيئة المعية ، ويمكن أن يدرك مباشرةً بالحس والذاكرة ، والمدة فيه ذات وحدة جوهرية فى الاستمرار الحسى لكل الحاضرات المتوالية ؛ أما الزمان الفزيائى الذى تقول به النسبية ، فلا نستطيع أن نتحدد فيه الموضع الزمانى والمكانى للحوادث من حيث التوالى أو المعية إلا إذا اتفقنا أولاً على وضع معايير للمعية والتوالى ، معايير تتوقف على إطارات الإشارة الزمنية التى تجرى فيها تلك الحوادث ؛ ومن هنا فليس فى الوسع أن نتحدد ، بطريقة

واحدة سابقة على وضع معايير معينة ، التوالى أو المعية بين الحوادث ،
والمساواة فى المضى الزمنى لا تتحدد فى حالة الزمان الفزيائى بطريقة عامة
سابقة ، بل لا بد من وضع مقياس تحدد به المساواة فى المضى الزمنى (١) .
ومن هذا نرى فى النهاية أن المقاييس التى نتخذها فى قياس المدد والأطوال
تتوقف على وجهة نظر الراصد وإطار الإشارة الذى يوجد فيه ، مما يضمن
على مقاييسنا طابعاً ذاتياً .

وهذا الطابع الذاتى للمقاييس التى نستخدمها فى قياس المدد والأطوال
التي تدخل فى الظواهر قد أكدته بشكل أقوى وأوضح نظرية الكم
خصوصاً كما وضعها هيزنبرج . فقد بين هذا الأخير أن الراصد ذو أثر
أكبر فى الموضع المرصود ، إلى درجة أنه من المستحيل أن نجد قياساً دقيقاً
كل الدقة ، بل لا بد أن يكون ثمت هامش للاتعين لا يمكن إزالته . وعلى هذا ،
فبعد أن كانت الميكانيكا القديمة (أى تلك التى سبقت نظرية الكم عند
هيزنبرج ، بما فى ذلك الميكانيكا النيوتنية بعد إدخال تعديلات نظرية النسبية
فيها) تحسب أن مقياس الزمان يمكن أن ينطبق بدقة تزداد كلما ازداد
تحددنا للظروف التى توجد بها ظاهرة فزيائية ، قالت الميكانيكا الكمية :
إننا لا يمكن أن نصل إلى دقة مطلقة ، بل يظل ثمت مجال للاتعين ليس فى الوسع
اختراقه ، وذلك ناتج من رد الفعل الذى يحدثه الراصد ضد الظاهرة
المرصودة . وفضلا عن هذا لا تعرف بأن كل الظواهر قابلة للدخول فى
إطارات الزمان والمكان ، إذ بينت نسب هيزنبرج أن الظواهر الذرية
لا تخضع بإحكام ودقة مطلقة لقواعد علم الحركة (للعالم فوق الذرى) ،
بل ثمت انحراف دائماً عنها يقاس تبعاً لثابت بلانك . وتبعاً لهذا فإن التصويرات
الزمانية المكانية فى الفزياء القديمة (إلى ما قبل نظرية الكم) لا تستطيع أن تتمثل

(١) راجع . ش . د . برود : « الفكر العلمى » ، ص ٤٨١ - ص ٤٨٢ ،

بالدقة العمليات المجهرية ، أعنى تلك التى لا تدرك إلا بالمجهر (١) .

ونظن أن هذا العرض كافٍ لكي يظهرنا على الخطوط العامة الرئيسية لنظرية الزمان الفزيائى كما وضعها النسبية المحدودة والمعّمة ، وأكدها نظرية السكم . وعلينا الآن أن نلخص نتائجها التى يمكن أن تكون متصلة بالفلسفة :

ولعل أهم هذه النتائج القول بأن الزمان والمكان يكونان كلا واحداً ، يمكن أن يسمى متصل الزمان والمكان ، له أبعاد أربعة هي الثلاثة المعروفة عن المكان ، والرابع هو بعد الزمان .

والثانية أن مقاييسنا للزمان نسبية تتوقف على إطار الإشارة الذى يوجد به الراصد أى أنها مقاييس ذاتية ؛ وفضلاً عن هذا لا تستطيع أن تعين بالدقة مُدَد الظواهر، خصوصاً إذا كانت فى المستوى الذرى أو—بالأحرى—ما تحت الذرى .

والنتيجة الثالثة أن الزمان له أكثر من اتجاه ، والأمر يتوقف إذن على المعايير التى نضعها سابقاً لتحديد المعية والتوالى ، فلا معايير مطلقة ، بل مواضعات على معايير .

فإذا شئنا الآن أن نعرف القيمة الحقيقية لهذه النتائج من الناحية الفلسفية ، أى أثرها فى الفهم الفلسفى للزمان ، وبالتالي ، للوجود والمعرفة ، وجدنا الخلاف فى التقدير على أشده بين الفزيائيين المتحمسين لهذه النظرية ، وبين الفلاسفة ، ووجه عام والفزيائيين المحافظين ، أعنى الذين لا يعلقون أهمية كبيرة على هذه النظرية الجديدة .

فأصحاب الفريق الثانى يقولون إن النسبية لا شأن لها بالزمان الحى الخالص الذى تقول به نظرية المعرفة أو نظرية الحياة ، وهى إلى جانب هذا تفترض

(١) راجع جيفيه Juvet : « تركيب النظريات الفزيائية الجديدة » ،

مقدماً مكاناً للعالم مستقلاً عن الشعور الذاتي ، وأن الأرض شيء مستقل عن الشعور يتحرك حول الشمس المستقلة عن الشعور كذلك ؛ وأن الضوء يقوم شيئاً مستقلاً عن الشعور ، ويسرى بسرعة معينة ؛ وهذه كلها افتراضات لا تعنى نظرية النسبية ، ولا أية نظرية فزيائية ، بالبحث فيها ، مع أنها هي بعينها ما يبحث فيه الفيلسوف عند بحثه في الزمان . ولذا يقول فولكلت بعد أن عرض هذا الرأي : « ظاهريات الزمان تقوم قبل كل فزياء ، وبالتالي قبل كل نظرية نسبية . والأقوال التي تنتهى إليها ظاهريات الزمان تظل صحيحة ، أياً ما كانت النتائج التي يصل إليها أصحاب نظرية النسبية ، والفزيائيون على العموم . » (١) ولكن نقد فولكلت هذا يرجع في الواقع إلى نظرة خاصة في الزمان ، هي النظرة إليه على أنه نفساني صرف ، ولا وجود له كمؤثر في الوجود بوجه عام ؛ لذا يعود نقده إلى نقد الحقيقة الموضوعية للأشياء الخارجية . ولذا لا يمكن أن يؤخذ به إلا من وجهة النظر هذه .

وأدق منه نقد كاسيرر ودريش . أما كاسيرر (٢) فيرى أن نظرية النسبية نظرية فزيائية ، ولا يمكن أن تفسر كنظرية في المعرفة ، إذ هي لا تحتوى على أية فكرة لا يمكن أن تستخلص من وسائل المعرفة في الرياضيات والفزياء . والزمان والمكان في الفلسفة ينظر إليهما على أنها قبلين ، أى : شرطان لإمكان المعرفة الفزيائية نفسها ؛ ومن هنا فإن بحثهما من ناحية الفلسفة يسبق كل دراسة فزيائية ولا يتأثر بنتائج هذه الأخيرة ؛ ومن هنا فليس في وسع نظرية النسبية بنوعها أن تبحث فيهما على هذا الاعتبار ، أعنى كونها قبلين ، وإنما كل بحثها في « الزمان والمكان التجريبيين » (ص ٧٥ ، ص ٩٤) . وفضلاً عن هذا فإن نظرية النسبية قد أساءت حتى إلى الفزياء

(١) يوهانس فولكلت : « ظاهريات وميتافيزيقا الزمان » ، ص ١٣٧ ،

ص ١٣٧ ، منشئ سنة ١٩٢٥ .

(٢) ارنست كاسيرر : « حول النسبية لآينشتين » ، برلين ، سنة ١٩٢١

نفسها في هذه الناحية، إذ فقدت البقية الباقية من الموضوعية الفزيائية كل معنى وجودى، إذ استحالت هذه الموضوعية إلى طائفة من المعادلات المترجحة بين التعقيد وزيادة التعقيد ؛ وبهذا لم تعد الفزياء تحفل بمسألة الوجود فى شئ . يضاف إلى هذا أن هذه النظرية قد سوت بين الزمان والمكان ، وقضت ، أو كادت ، على ما بينهما من تعارض جوهرى ، بأن وحدت بينهما فى تحديد عددى ، واستحال الزمان إلى عدد ، وفقد اتجاهه فى المستقبل أو فى الماضى كل خصائصه ، أى أننا قضينا فى الواقع على آثات الزمان ، فلم يعد لها أدنى أثر أو خاصية يتميز بها الواحد من الآخر . ثم إن فكرة الاتصال قد لقيت هذا الحظ كذلك ، إذ حلت محلها فكرة الانفصال ، ما دام الزمان قد استحال عدداً ، والعدد كم منفصل . وقد يكون ، أو هى ، لها الحق بالفعل فى أن تفعل هذا من وجهة نظرها ، أى من الناحية الفزيائية الخالصة ، وبتعبير أدق من ناحية قياس الأزمنة ، لكن لا يحق لها ذلك من ناحية الزمان الحى ، الزمان الفلسفى المشعور به ، الزمان التاريخى ذى الاتجاه، ومن هنا فليس لها الحق فى أن تحسب أن نظريتها فى الزمان والمكان هى وحدها الصحيحة . والخلاصة إذن أن نظرية النسبية نظرية خاصة بقياس الزمان التجريبي لا أكثر .

وهذا ما أكدته دريش (١) أيضاً فى نقده لها . إذ يرى أن قيمتها هى أنها بينت قصور وسائل القياس الزمانى عند الإنسان ، وأوضحت ما هنالك من أخطاء نتيجة لهذا . ولكن أينشتين يجعل من هذا القصور تعبيراً عن واقع الوجود . وينسى أن القصور الإنسانى لا يستحيل إلى ماهية للوجود .

أما برجسون (٢) فقد أخضع النظرية لبحث شامل ونقد مستمر . فقال :

(١) هانز دريشي : «نظرية النسبية والفلسفة» ، سنة ١٩٢٤ .

(٢) هنرى برجسون : « المدة والمعية » ، باريس ، سنة ١٩٢٣ .

أما المعية التي هاجمت فكرتها نظرية النسبية فيجب أن يلاحظ فيما يتصل بها أن ثمت نوعين من المعية ونوعين من التوالى . « فالأول باطن في الأحداث ، يكون جزءاً من مادتها ، ويصدر عنها . والآخر ملصق عليها فحسب ، بواسطة راصد خارج عن الإطار . الأول يعبر عن شيء من الإطار نفسه ؛ ولذا فهو مطلق . أما الثاني فتغير ، نسبي ، متخيل ؛ يرجع إلى المسافة ، المختلفة في سلم السرعة ، والموجودة بين السكون الذى لهذا الإطار في نفسه ، وبين الحركة التي يمثلها بالنسبة إلى غيره . فثمت انحناء ظاهرى من المعية نحو التوالى . والمعية الأولى ، أو التوالى الأول ، ينتسب إلى مجموعة من الأشياء ، أما الثانية فتنتسب إلى صورة يتصورها الراصد في مرايا يزداد تشويهها بقدر ازدياد السرعة المعزوة إلى الإطار ، (ص ١٢٥ - ص ١٢٦) .

ويأخذ عليهم كونهم لا يتحدثون إلا عن معية آئين ، مع أن ثمت معية أخرى قبل هذه وأكثر منها طبيعية ، هي معية تيارين ، وذلك حينما يمضى تياران خارجيان في مدة واحدة لتقوم بدورها في مدة تيار ثالث ، وهو تيار شعورنا . وهذه المدة ليست إلا المدة النفسية التي نشعر بها حين نتأمل أنفسنا باطنياً ، ولكنها تصير ملتصقة كذلك حينما يشمل انتباهنا التيارات الثلاثة في فعل واحد لا يقبل القسمة . ولا صلة انتقالية بين معية التيارين ومعية آئين ، ما دمنا في المدة الخالصة ، « لأن كل مدة سميكة : فالزمان الواقعى ليست له آتات . ولكننا نكون فكرة الآن بطريقة طبيعية ، وأيضاً فكرة الآتات المعية ، إذا ما اعتدنا أن نحيل الزمان إلى المكان ؛ لأنه إذا لم يكن للمدة آتات ، فإن الخط ينتهى بنقط » (ص ٦٨) ، أعنى أن فكرة الآن صادرة عن خلطنا بين الزمان والمكان ، ونحن نتصور في المكان نقطاً ، ولذا نتصور في هذا الزمان المكافئ نقطاً أيضاً نسمة الآتات . فالآن ليس شيئاً موجوداً بالفعل ، بل بالقوة فحسب ، « لأن الآن سيكون الحد الذى تنتهى عنده المدة إذا وقفت ، ولكنها لا تقف ؛ ولذا فإن الزمان لا يمكن أن يعطى الآن ؛ وإنما صدر هذا عن النقطة الرياضية ، أى عن المكان »

(ص ٦٩) . فكان المعية بين الآنين ، وهى تلك التى يتحدث عنها أصحاب نظرية النسبية ، صادرة عن المكان ، أو عن الزمان المكافئ . وهى مع هذا طبيعية « فلا بد من المعية فى الآن أولاً لتسجيل المعية بين ظاهرة وبين برهة ساعة ، وثانياً لتعيين معيات هذه البرهات على برهات مدتنا ، على طول مدتنا نحن ، برهات مدتنا التى أنتجها فعل التعيين نفسه . والفعل الأول من بين هذين الفعلين هو الجوهرى لقياس الزمان . لكن بغير الثانى ، سيكون تمت قياس أيّاً كان ، وبذا نقضى إلى العدد ز ممثلاً أى شىء كان ، وبذا لا نكون مفكرين فى الزمان . فالمعية بين برهتين لحركتين خارجيتين بالنسبة إلينا هى التى تسمح لنا بإمكان قياس الزمان ؛ ولكنها معية هذه البرهات مع برهات مطرزة بواسطتها على طول مدتنا الباطنة ، هى التى تجعل هذا المقياس مقياساً للزمان » (ص ٧٠ - ص ٧١) . وبعبارة أوضح نقول إن المعية فى الآن تقوم على المعية الباطنة فى تيار الشعور .

أما البعد الرابع الذى يتحدث عنه أنصار هذه النظرية فليس شيئاً آخر ، فى نظر هرجسون « غير الزمان المكافئ الذى أوضحه فى رسالته : « بحث فى المعطيات المباشرة للشعور » (سنة ١٨٨٩ ؛ ص ٨٣) وقال عنه إنه تصوير رمزى للمدة الحقيقية مأخوذاً من المكان ؛ فتتخذ المدة على هذا النحو شكلاً وهمياً هو الوسط المتجانس ، ونقطة الربط بين هذين الحدين ، أى المكان والمدة ، هى المعية ، التى يمكن أن نعرّف بأنها تقاطع الزمان مع المكان . ففكرة البعد الرابع فكرة يوحى بها بواسطة كل تصوير مكافئ للزمان . ولم تأت نظرية النسبية هنا بشىء جديد عما كانت تفعله النظريات العلمية السابقة المتعلقة بالزمان . وكل ما هنالك من فارق بين هذه النظريات الشائعة ونظرية النسبية هو أن تصوير الزمان بأنه بُعد رابع للمكان يفترض ضمناً فى النظريات الشائعة ، بينما نظرية النسبية قد اضطرت إلى إدخاله فى حساباتها للزمان . فواقع الأمر إذن فى هذا البعد الرابع أن العلم لا يعرف من الزمان إلا الزمان المقيس ، وبالتالي الزمان المصور على هيئة المكان ؛

ولا حاجة لنظرية النسبية كى تقول إن هذا الزمان الرياضى المقيس هو بُعدٌ يضاف إلى المكان ؛ فهذا شىء مفترض فى الزمان ، ما دامت تعدده خاضعاً للقياس « أى فى كل زمان ينظر فيه العلم . » فلدينا فى قياسنا للزمان ميل إلى إفراغ محتوى الزمان فى مكان ذى أربعة أبعاد ، فيه يوضع الماضى والحاضر والمستقبل جنباً إلى جنب أو فوق بعضهما بعضاً منذ الأزل وهذا الميل لا يدل إلا على عجزنا عن أن نترجم عن الزمان نفسه رياضياً ، وعلى الضرورة التى تلجئنا ، من أجل قياسه ، إلى أن نستبدل به معيات نقيسها : وهذه المعيات آليات « لا تشارك فى طبيعة الزمان الواقعى ؛ فهى لا تستمر (أى لا تجرى على صورة المدة) » (« المدة والمعية » ، ص ٧٩ - ص ٨٠) . أما العلة فى أن هذا البعد المكافى الذى حل محل الزمان لا يزال يسمى زماناً ، فهى أن شعورنا يشيع فى الزمان المتحجر على صورة المكان المدة الحية ؛ وهذا يعود شعورنا فيحاول أن يهب الزمان ما أفقده إياه من أجل قياسه .

والأمر فى مسألة الأزمنة المتعددة التى تقول بها نظرية النسبية كالأمر فى هذا البعد الرابع . إذ الواقع أنه لا يوجد غير زمان واحد حقيقى عند العلم ، هو زمان الفزيائى الذى يضع العلم ؛ أما الأزمنة الأخرى فليست غير أزمنة بالقوة ، أى متخيلة ، يعزوها إلى راصدين مفترضين ، أعنى خياليين ، وليس فى هذه الكثرة ما يتنافى مع قولنا بزمان واحد ؛ وإنما ينشأ التناقض الموهوم حينما نحسب هذه الأزمنة حقيقية واقعية ، أى أشياء يمكن إدراكها أو فى وسعنا أن نحياها .

ومن هنا نستطيع أن نزيل كل الأوهام التى أتت بها نظرية النسبية ، ومن أشهرها افتراض مسافر مغلق عليه فى قذيفة ترمى من الأرض بسرعة أقل من سرعة الضوء بجزء من عشرين ألفاً ، يلاقى نجماً ويرتد إلى الأرض بالسرعة نفسها . فإنه حين يخرج من القذيفة ويكون قد مضى عليه فيها سنتان مثلاً « سيجد أن كوكبنا الأرضى قد مضى عليه مائتا سنة . فيقول هرجسون إن

هذا الافتراض غير صحيح ، بل سنجد أن تيار الشعور لدى الشخص القائم على الأرض قرب الموقع الذى رعى منه القذيفة هو بعينه فى مقداره تيار الشعور عند المسافر . فإذا كان مقدار الشعور الأول سنتين ، فالمسافر كذلك . كذلك الحال فى الوهم الآخر الذى يقول تبعاً لهذه النظرية إن المعية بالنسبة إلى الطريق ليست هى المعية بالنسبة إلى القطار فيما يتعلق بحادثين مثل هرقيين يحدثان معاً . فإن هرغسون ينكر هذا القول مؤكداً أننا لو سألنا راصداً حقيقياً فى القطار ، وآخر حقيقياً فى الطريق ، فسنجد أننا بازاء زمان واحد : وما هو فى حالة معية بالنسبة إلى الطريق هو فى حالة معية أيضاً بالنسبة إلى القطار .

والنتيجة الأخيرة التى ينتهى إليها هرغسون من هذا النقد هى أن الزمان الذى أتت به نظرية النسبية لا يكاد أن يختلف كثيراً عن الزمان الفيزيائى المعروف ؛ ومن هنا فليس ثمة من نتائج جديدة بالنسبة إلى الزمان كما يراه الفيلسوف ؛ وليس للفزياء ، وبالتالي لنظرية النسبية ، أن تقيم مיתافيزيقا فى الزمان .

ولونحن نظرننا - بعد هذا العرض لآراء الفلاسفة فى نظرية النسبية - إلى قيمة هذا رأى . لوجدنا أن المتحاورين هنا : أعنى الفيلسوف والفيزيائى ، لا يناقشان على أساس واحد ، بل يقيم كل مقالته على أساس وجهة نظره الخاصة : فزمان الأول زمان إما قبلى سابق على كل تجربة فيزيائية ، وبالتالي يبحث عنه فى المبادئ القبلية ، وإما حيوى نفسانى شعورى ، وهذا أيضاً سابق على التجربة الفيزيائية أو على الأقل يقوم مستقلاً عنها ؛ وأياً ما كانت فالنتيجة فى الحالتين واحدة من حيث القول بأن بحث الفيلسوف للزمان يسبق ، بل ويحدد بحث الفيزيائى ؛ وزمان الفيزيائى زمان قياس لا يتصل بالشعور اتصالاً ضرورياً ، وبالتالي لا يمكن أن نعدّه مبدءاً قبلياً أو تياراً فى الشعور النفسانى الحى . فهل معنى هذا إذن أن الزمان هنا غير الزمان

هناك ، ويجب بالتالى أن يفصل بينهما فلا تتأثر دراسة الواحد بدراسة الآخر ، ولا داعى للخلط بين التصورين ؟

يبدو أن هذه هى النتيجة التى يجب أن ننتهى إليها . لأن أصحاب نظرية النسبية من ذوى النزعة الفلسفية لم يقدموا لنا نتائج فلسفية من شأنها أن تبرهن على أن هذه النظرية يمكن أن تستحيل إلى نظرية في الوجود . فرجل مثل هانز ريشنباخ - وهو من الموهوبين فلسفياً ومن الفزيائيين الممتازين - لم يقدم لنا شيئاً في بحثه عن « الأهمية الفلسفية لنظرية النسبية » ، وأهم ما قاله هنا هو أن نظرية الزمان التى أنت بها نظرية النسبية تقضى على فكرة قبلية الزمان عند كنت ، وبالتالي على « بعض القضايا التى أضنى عليها الفلاسفة مهابة خاصة وحسبوها ثابتة إلى الأبد (١) » . وتبحث أنت بعد هذا عن هذه القضايا الجلية التى أنت عليها النظرية الجديدة ، فلا تظفر إلا ببعض الأقوال الخاصة بالأحكام التركيبية القبلية عند كنت ، وبدلاً من أن يبين لنا ريشنباخ هذه النتائج الفلسفية ، التى ينبعها بأنها عظيمة ، وأى أثر لها في تغيير النظرية إلى الوجود عند الفلاسفة - بدلاً من هذا يلوذ بمسألة أشمل هى : مسألة ماذا يمكن أن يفيد الفيلسوف من الفزيائى . وواضح أن هذا اللواذ ليس إلا فراراً ظاهراً من الإجابة عن السؤال الحقيقى وهو : القيمة الفلسفية لنظرية النسبية ، وبخاصة في مسألة الزمان . والحال ليس كذلك تماماً بالنسبة إلى مورتس اشلك . فإنه كان أقل سماسة من ريشنباخ ، ولذا كانت في حديثه دقة أكبر ، فلم يلجأ إلى هذه العبارات الطنانة الجوفاء التى نعت بها ريشنباخ - مجرد نعت دون بيان - الأهمية الفلسفية للنظرية الجديدة . فقد بدأ بأن ميز بين الزمان المقصود في هذه النظرية وفي الفزياء بوجه عام ، وبين الزمان الحيوى أو النفسانى أو الذاتى تمييزاً واضحاً ، وقال إنه ليس للفزيائى أن يهتم بما يقوله النفسانى هنا ؛ أما الفيلسوف فيهتم بما يقوله الفزيائى

(٥) مقال ظهر في « المجلة الفلسفية » عدد خاص بنظرية النسبية ، يوليو -

لغرض واحد هو ناحية نظرية المعرفة في أقواله ، ولذا نرى اشك لا يحمل على كنت كما فعل ريشنباخ ، بل يميل بالأحرى إلى التوفيق بين مذهبه ومذهب النظرية الجديدة ؛ ثم يعرض النتائج الفلسفية لها بعد عرض المعنى النفساني للزمان ، ولكنه يعرضها مرتبطة بالفزياء أو فلسفة الفزياء ، أولى منها بالنسبة إلى الفلسفة نفسها ، خصوصاً في تفسيره للمتناقضات الوهمية التي أتت بها التسمية . فيقول إن فكرة التجربة الحية للمعية في أمكنة مختلفة قد أنكرتها ؛ ونظرية الجوهر قد استعادت مكانتها التي كانت لها قبل هيوم ، إذ « علمتنا النظرية الفزيائية الجديدة أن المجالات المغنطيسية الكهربائية ومجالات الجاذبية أشياء قائمة بذاتها ، وبالتالي أصبحت فكرة الجوهر «كحامل» ثابت للخواص ، ضرورية في العلم ، بعد أن انحلت على يد تجريبية رجل مثل هيوم في الفلسفة (١) » . غير أن هذه النتائج التي كشفت عنها هنا لا تتصل بالزمان في شيء ؛ وهي إذن تنسب إلى الفزياء وفلسفتها أو فكرة المادة والمكان ، كما قلنا .

وهذا كله يجعلنا لا نميل إلى إضافة أهمية خاصة إلى نظرية التسمية في الفلسفة ، خصوصاً في نظرية الزمان . وفي وسعنا أن نوكد هذا المعنى ، إلى أن يكشف لنا أنصار هذه النظرية ما لها من قيمة فلسفية ، تتصل بالنظرة في الوجود ، وبالزمان بوجه خاص - وإن كنا نشك في أنهم سيكشفون بعدُ شيئاً ، الآن وقد فترت حماسة أنصارها وتزحزحت عن مركز التفكير الفزيائي نفسه . ولذا نظن أن أهمية عرضها ليست من ناحيتها في ذاتها ، بل من ناحية إثارتها - هي وكل نظرية فزيائية تشارك الفلسفة في دراسة موضوع واحد - مشكلة الصلة بين الفلسفة وبين الفزياء والعالم الخارجي بوجه عام . فقد رأينا أن الزمان عندها وعند الفزياء يختلف في طبيعته

(١) مورتس اشك : « المكان والزمان في الفزياء المعاصرة » . ص ٩٩ ،

وجوهره عن الزمان عند الفلسفة ، وهذا شيء زادته نظرية النسبية تأكيداً ، بقولها خصوصاً إن ثمت أزمنة عدة . وإن الزمان ذواتجاهات وليس بذي اتجاه واحد . وإنه لا يقوم مستقلاً - ومضاداً ، كما يقول المذهب الحيوى - عن المكان ، بل هو بُعدٌ من أبعاده ، وبالتالي فهو وإياه من جنس واحد ؛ والأبعاد الأربعة على مستوى واحد . وفكرة المستقبل والماضى فكرة نسبية مطلقة ، - كل هذه الأقوال فى اختلاف واضح مع ما تقول به الفلسفة عامة - لا كل فلسفة - عن الزمان . فهل نقول بعد هذا إن الزمان الحيوى أسبق من الزمان الفزيائى ، وهو الذى يحدده ، وهذا الأخير يقوم على الأول كما قال من ذكرنا من الفلاسفة ؟ أو هل نقول بأن ليس ثمت زمان غير الزمان الفزيائى ، والزمان الشعورى أو الحيوى من اختراص خيال الفلاسفة ؟

نظن نحن أن ليس من الحق أن نقول هذا أو ذاك بصورة مطلقة : فالزمان الشعورى الحيوى حقيقة لا شك فيها بالنسبة إلى الإنسان ؛ والزمان الفزيائى هو الآخر ضرورى من أجل إيجاد مقياس مشترك نسجل فيه الظواهر الخارجية فى حركتها من ناحية التوالى . ولكن هل من سبيل أن نوفق بينهما فى صورة جامعة ؟

لسنا نظن كذلك . وما رأيناه فى موقف كلا الفريقين أصدق شاهد على هذا الذى نظن : فكلٌ منهما يبدو مستقلاً فى طبيعته عن الآخر ، إلى درجة أنه يستطيع أن يقوم بنفسه ولا يخرج فى تحليله عن مقتضياته الخاصة ؛ حتى ليكاد كل تفاهم على الزمانين من جانب واحد أن يكون مستحيلًا . ومن هنا نستطيع أن نقول إن أى نقد يوجه من جانب الفريق الواحد ضد الفريق الآخر هو نقد يقوم على غير أساس ، لأنه يقوم على أساسين مختلفين ، كما انتهينا إلى هذا منذ حين . فكنت لم ينقد نيوتن فى الواقع . لأن الأساس الذى نظر منه كنت إلى الزمان غير ذاك الذى نظر منه نيوتن ، ولذا استمر

زمان نيوتن يشق طريقه في الفزياء غير حافل إطلاقاً بنقد كنت أو من إلى كنت من الفلاسفة ؛ كما استمر زمان كنت في نظرية المعرفة أو الفلسفة ينمو وينقد من وجهة نظر الفلسفة ونظرية المعرفة وحدها ، دون أن يتأثر بزمان الفزيائيين . فإذا كان لنا أن نستخرج من هذا نتيجة ، فهي لن تكون إلا وجوب الفصل بين زمانين مختلفين كل الاختلاف ، لأن كلا منهما ينتسب إلى ميدان خاص مستقل عن الآخر . وتبعاً لهذا ، فمناقشة نظرية في أحد الزمانين لا يمكن أن تكون صحيحة إلا إذا جرت في داخل ميدان هذا الزمان وحده . ومن الخير للفلسفة والفزياء معاً ، في هذه المسألة خصوصاً ، أن ينصرف كلٌّ إلى مجاله الخاص وينمّي نظرياته وفروضه تبعاً لافتراضاته ومقدماته الخاصة ؛ وإلا نتج سوء التفاهم هذا الذي تبين لنا بكل وضوح بين فريق الفزيائيين وفريق الفلاسفة .

ونحن حريصون كل الحرص على توكيد هذه الثنائية في النظرة إلى الزمان على الرغم مما يعترضها من صعوبات وشكوك ، يخلق بنا هنا أن نتناولها مبدئياً لأنها ستثير لنا السبيل أمام الحل الذي نرثيه .

ولعل أهم هذه الصعوبات تلك المسألة : إذا كان هناك زمان فزيائي وآخر فلسفي ، وإذا كان الزمان يحدد النظرة في الوجود ، أفليس معنى هذا أيضاً أن هناك نوعين من الوجود لا سبيل لرد الواحد منهما إلى الآخر ؟

هذا هذا . فلا بد من القول بأن ثمت وجودين منفصلين كل الانفصال من حيث الجوهر ، وإن كان متصلين من حيث الفعل ، هما الوجود الذاتي ، والوجود الفزيائي ؛ والوجود الذاتي هو وجود الإنسان ، والآخر هو وجود الأشياء في العالم الذي يوجد به الإنسان . والصلة بينهما صلة فعل فحسب ؛ بمعنى أن الوجود الذاتي يحقق إمكانياته بواسطة الأشياء ، بأن يتخذها أدوات لإخراج ما به من إمكانيات إلى جيز الفعل والواقع . ولكن هذه الصلة من حيث الفعل لا تؤذن مطلقاً بوجود صلة ضرورية من حيث الطبيعة

والجوهر والماهية (والمعنى هنا واحد) . وكل ما يقتضيه الأمر هنا هو أن يحسب الوجود الذاتى حساباً للوجود الفزيائى لأنه سيستخدم أداة ، فلا بد له إذن من أن يعرف طبيعته كى يتيسر الفعل على النحو الصحيح ، أعنى الملائم . وإلى هذه الثنائية فى طبيعة الوجود تردّ إذن الثنائية فى طبيعة الزمان ، تلك الثنائية التى نستطيع أن نفسر بها عدم التفاهم حتى الآن بين الفزيائيين والفلاسفة ، وإثارة الإشكال بينهما بين الحين والحين من غير أدنى داعٍ ، حتى كان من نتيجته إفساد نظريات كلا الفريقين . فلتكن هذه إذن حقيقة أولية كسبناها ، ولنجعلها نقطة البدء فى كل بحث فى الزمان .

وإن نظرة إلى وراء فى كل ما قلناه حتى الآن ، لتكشف لنا عن النتائج التى وصلنا إليها من هذا البحث التاريخى النقدى الذى قمنا به لغرض واحد : هو إثارة المسائل وإيضاح الشكوك ، ووضع المشكلة فى وضعها الصحيح . فهذه النتائج هى :

١ - أن الزمان نوعان : زمان فزيائى ، وزمان ذاتى : وسنسميه بعُد الزمان الوجودى ؛

٢ - أن مشكلة الزمان مرتبطة تمام الارتباط بمشكلة الوجود بوجه عام ؛ وسنرى أن الزمان عامل جوهرى مقوم للوجود ؛

٣ - أن الوجود وجودان : وجود الذات ، ووجود الموضوع ؛ ولكن الوجود الأصيل ، بالنسبة إلى الإنسان على الأقل ، هو وجود الذات ، حتى إننا سننتهى فى آخر الأمر إلى قصر كلمة الوجود على وجود الذات ؛

٤ - أن المقولتين الرئيسيتين اللتين يتعين بهما الوجود هما الواقع والإمكان ، وتبعاً لهما سينقسم الوجود إلى وجود ممكن ووجود واقعى ، أو وجود ماهوى وآنية ، كما سنعبّر نحن . ولكن هاتين المقولتين لا يجب أن

تفهمها كما فهمها كنت ، كما أن الإمكان لا يفهم بالمعنى الارسطالى ، بل بالمعنى والفهم اللذين أوضحتاهما ؛

٥- أن الحرية هى الصفة الأولى لوجود الذات ، وهذا يستخلص من النتيجة السابقة ، أى نتيجة لفكرة الإمكان كما بينها « والصلة بينها وبين فكرة الواقع ؛

٦- أن الشقاق فى طبيعة الوجود أو مُشَاقَّة الوجود لنفسه يجب أن يُعَدَّ المسلمة الأولى التى على أساسها يجب أن يوضع كل مذهب فى الأخلاق ، وأن فكرة التوتر هى الفكرة التى يجب أن تسود كل نظرة أخلاقية ؛

٧- أن العقل المنطقى ليس هو الملكة الوحيدة التى يستطيع المرء أن يدرك بها حقيقة الوجود الحى .

تلك أهم النتائج ؛ والناظر إليها يلمح فيها القسّمات العامة لمذهب فى الوجود منشرع الآن فى بيانه .



الوجود الناقص

التناهى الخالق

لا وجود إلا بالزمان ، والزمان سر التناهى ، فكل وجود لفناء .

ولكن الفناء تحقق الإمكان ، وكل تحقق فعل ، والفعل هو الخلق ،
فالتناهى إذن خلاق .

فالوجود كما انتهينا نوعان : فزيائى وذاتى ؛ الثانى وجود الذات المفردة ،
والأول كل ما عدا الذات ، سواء أكان ذاتاً واعية أم كان أشياء . وليس
ثمة فارق ضخم بين وجود الغير كذوات واعية ، أو كأشياء جهادية ؛
فكلاهما بالنسبة إلى الذات المفردة من ناحية المعنى سيات ، والاختلاف بعدئ
ليس إلا فى الدرجات ، وبالتالي فى موقف الذات بإزاء الواحد والآخر .

فالوجود الذاتى وجودٌ مستقل بنفسه ، فى عزلة تامة من حيث الطبيعة عن
كل وجود للغير ، ولا سبيل إلى التفاهم الحق بين ذات وذات ، إذ كل
منهما عالم قائم وحده ؛ وعلى حد تعبير كبير كجورد : « كل فرد هو بذاته
عالم ، له قدس أقداسه الذى لا يمكن أن تنفذ إليه يد أجنبية » .

أما وجود الغير فلا نسبة له إلى الذات إلا من حيث الفعل ؛ ولذا لا تنظر
إليه الذات إلا من هذه الناحية ، وتبعاً لها يتحدد موقفها بإزائه . والفعل
ضرورة للذات لأن الفعل تحقيق لإمكاناتها ، فلكى تحقق نفسها لا بد لها إذن
أن تفعل ، والفعل لا بد أن يتم فى وجود الغير وهواسطته ، ولذا كان عليها
أن تتصل بهذا الوجود المغاير . فانتقال الذاتية من العزلة المطلقة إلى الغيرية
لتحقيق الإمكان ضرورى إذن .

وفى هذا نحن عرضنا مسائل الوجود الرئيسية ، ألا وهى : الفردية ،

والطبيعة والفعل ، والاتصال ، ووجود الغير كأداة ، أى الإحالة. فلنشرع إذن فى بيانها .

الفكر الحديث صراع (١) بين الذات والموضوع من أجل تحرر الأول من الثانى ، صراع بلغ أوجه فى المثالية الألمانية التى كاد أن يتم على يديها هذا التحرر . ولكنها بدلاً من توكيد الذات بمعنى الذات الفردية ، استبدلت بهذه ذاتا كلية سمّتها الأنا المطلق أو الصورة المطلقة أو الروح الكلية إلخ ، كما رأينا من قبل فى عرضنا لمذهب هيغل . ثم سار كيركجورد خطوة أخرى فى هذا السبيل ، ولكن نحو توكيد الذات المفردة ، بعكس المثالية الهيكلية ؛ وتلاه نيتشه فتقدم فى طريق الذاتية المفردة بسرعة أكبر . ولكنها لم ينتهيا فى الواقع إلى توكيد الذات المفردة بالمعنى الوجودى الخالص ، نظراً إلى تأثر كليهما بنزعات غير وجودية . فالأول سادت تفكيره نزعة دينية ، فكان من شأن هذا أن ربط فكرة الذات المفردة بفكرة الوحدة التنسكية ، فكرة القديس والمثاله ، مما جعل نظريته مشوبة بصيغة تقويمية ظاهرة منذ البداية . ولا بأس فى الواقع من أن ينظر إلى المسألة من وجهه نظر تقويمية ، ولكن على شرط أن يأتى ذلك بعد النظرة الوجودية الخالصة ؛ فهذه لا بد أن تسبق كل تقويم أخلاقى أو دينى . وطابع التقويم هذا نجده كذلك عند نيتشه ، وبشكل أكثر صراحة ووضوحاً . فإنه حينما يتحدث عن الذات المفردة ، إنما يفكر دائماً فى الإنسان الأعلى . ولذا غلب عليه هذا التفكير ، فلم يظفر ، أو لم يأتنا ، بنظرة فى وجود الذات المفردة من حيث طبيعتها فى الوجود ، لا من حيث ما يجب أن تفعله لتبلغ كما لها وتحقق علاها بذاتها فوق بقية النوات الأخرى. وفضلاً عن هذا كله فإن كليهما لم يُقَسِّم مذهباً واضح المعالم على أساس وجود الذات المفردة»

(١) راجع خطوات هذا الصراع بالتفصيل فى كتابنا : « شوبنهاور » ،

وإن كنا ندين لكثير كجورد هنا بكثير من الملاحظات والأفكار الموجهة .
والعلة في أن إدراك الذات المفردة لم يتحقق بعد من الناحية الوجودية أن
الأمر قد نظر إليه حتى الآن من ناحية نظرية المعرفة ، من ناحية الفكر ،
لا من ناحية الوجود ، وهذا يعود بدوره إلى أن ملكة الإدراك كانت العقل
بتصوراته المجردة ؛ ولن تتم النظرة الوجودية إلا إذا قلنا بمصدر آخر للمعرفة
من شأنه أن يجعل المرء على اتصال مباشر بالذئوع الحى للوجود . فما هو
هذا المصدر وتلك الملكة ؟

إن الشعور بالوجود لا يكون قوياً عن طريق الفكر المجرد ، لأن الفكر
المجرد انتزاع للنفس من تيار الوجود الحى وانعزال فى مملكة أخرى تذهب
منها الحياة المتوترة الحادة ولا يسودها فعلٌ وحركة ، بل صيغ خارجية عن
الوجود لا تنبض بدمه . إنما يبلغ الشعور بالوجود أعلى درجة فى حالة الفعل
الباطن الذى أنشأ أظفاره فى الحياة المضطربة ، أى فى حالة التزوع
المشوب العاطفة ، فهى حالة تنتسب إذن إلى الإرادة والعاطفة أولى من
انتسابها إلى العقل والفكر . ولذا يجب أن ننشدها فى مقولات للعاطفة والإرادة
نضعها مكان مقولات العقل التى لم يُعَن الفلاسفة بغيرها حتى الآن .

ولو وضع لوحة هذه المقولات يجب أن نراعى الطابع الديالكتيكى لكل
ما هو موجود ، لأن الوجود كما قلنا فى الفصل الأول نسيج الأضداد ،
كلٌ ما فيه يتصف بطابع التناقض ، لأن الإمكان حين يستحيل إلى فعل
لا يفقد بهذا طابع الممكن ، إذ هذا طابعه الأصيل ، والفعل لا يكفى لمحو
هذا الطابع . والممكن جامع بين النقيضين ، لأن الإمكان بمعناه الحى الحقيقى
الإيجابى لا بد أن يشمل القطبين المتنافرين ، وإلا فلا معنى للإمكان إذا كان
من ناحية واحدة ، بل سيكون حينئذ فعلاً ، لا إمكاناً . فإذا كان كل وجود
فى أصله أو ماهيته إمكاناً ، كما أوضحنا ، فلا بد أن يكون فى الوجود
المتحقق طابعُ الماهية والأصل ، طابع الإمكان ، أعنى طابع التناقض .

ومن الضروري إذن أن نقول بوجوده حتى بعد الانتقال من الإمكان إلى الواقع ، أو من الوجود الماهوى إلى الآنية . فكل موجود يتردد إذن بين قطبين متنافرين يضمهما في داخل ذاته . وهذا الاستقطاب هو في سياقه وتطوره ما نسميه بالديالكتيك ؛ فالفارق بين الاثنين أن الأول منظور إليه من ناحية السكون ، والثاني على العكس منظور إليه من ناحية الحركة ؛ فالديالكتيك هو السياق الحركى للاستقطاب . وهيجل قد أصاب في اكتشاف الديالكتيك ، لكنه فهمه بمعنى يبعد بينه وبين ما نقصده هنا . فالديالكتيك عند هيجل منطق عقلى ، أولى من أن يكون سياقاً وجودياً . أما الديالكتيك الذى نعينه فهو السياق الوجودى الصادر عن العاطفة والإرادة ؛ فهو منطق العاطفة والإرادة ، بينما ذاك منطق العقل . وهذا الطابع العقلى الذى للديالكتيك عند هيجل هو الذى أفسد عصبه الحقيقى ، أغنى التعارض ، مما اضطر هيجل إلى القول بفكرة « الرفع » *Aufhebung* ، أى إزالة التعارض بوساطة مركب الموضوع . ومع أن الحركة لا تزال فيه مستمرة بفضل نقيض الموضوع المضاد لهذا المركب ، فإن مجرد إدخال « الرفع » فيه تشويهٌ للتعارض والتقابل . ولو كان هيجل جريئاً في منطقته لاحتفظ للديالكتيك بطابع التعارض باستمرار ؛ ولكنها النزعة العقلية ، التى من شأنها أن تنظر إلى الأشياء من ناحية السكون ، قد اضطرت به إلى أن يوقف الحركة في هذه المحطات التى سماها مركبات الموضوع . أما نحن فنريد أن نحفظ بالطابع الحركى على الدوام ، لأن العاطفة والإرادة والفعل بوجه عام تمتاز بالحركة المستمرة والمدة الدائمة السيلان ، والتغير الشامل للأضداد . فلا مناص إذن من أن نجعل للديالكتيك هذا الطابع . ونسميه بالتوتر . فالتوتر معناه قيام الضدين أو النقيضين مع بعضهما في وحدة تشملهما لا يتخللها أى سكون أو توقف .

فالمقولات إذن لا بد أن تمتاز بالتقابل ، ثم بالتوتر . ولنا سنجد لوحها مكونة من زوج زوج ، ولكل زوج وحدة متوترة فيها جمعٌ معاً للمقابلين

مع الاحتفاظ بما لهما من استقطاب في أوج شدته . ولذا لن نسمى الوحدة باسم جديد ، بل باسم مركب من المتقابلين معاً حتى نحفظ تماماً بهذا التوتر .

ولنبداً بتقديم لوحة المقولات ، كي نعرض كل مقولة بعد بالتفصيل . ونحن قد انتهينا إلى وضعها من تأمل الأحوال السائدة المحددة لكل ما عداها بالنسبة إلى كلٍّ من العاطفة والإرادة . ولذا انقسمت أولاً إلى قسمين : واحد خاص بالعاطفة ، والآخر بالإرادة . وكل منهما ينقسم بدوره ثلاثة أقسام ؛ وكل قسم من الثلاثة يتركب من متقابلين ووحدة متوترة ، فلدينا إذن ثلاث مرة أخرى . وعلى هذا نستطيع أن نعرض اللوحة كما يلي : أولاً بالنسبة إلى العاطفة ، وثانياً بالنسبة إلى الإرادة :

عاطفة		إرادة	
أصل :	تألم	مب	قلوب
مقابل :	سرور	كراهية	طمأنينة
ومره متوترة :	تألم	سائر	مب طاره
قلوب مطمئن			
		خطر	أمان
		طرفة	مرواحة
		نهابط	نهابط
		خطر آمن	طرفة متصلة
		نهابط	نهابط

ويجب أن نلاحظ أن كلمة « أصل » لا نقصد منها أن المقولة المقابلة مشتقة منه ومتفرعة عنه ؛ بل كلا الأصل والمقابل إيجابى ، وكلاهما محدّد للآخر لا يفصل عنه ، وهذا ما يتبين بوضوح في الوحدة المتوترة . فنحن ننكر كل هذه التبريرات الزائفة التى يلهو بها مثلاً فريقُ التشاؤم وفريق التفاؤل ، فلا نقول مع الأولين إن الألم وحده إيجابى ، أما السرور فسلبى كما لا نقول على العكس مع الآخرين ، بل نؤكد إيجابية كليهما ونحتفظ بهذا التناقض أو التضاد في كل قوته وحدته ، لأنه طابع الوجود كما بينا . ولعل في هذا حلاً لما بين كلا الفريقين من إشكال دائم ، لا لأنه حل وسط ،

بل بالعكس : فكل حل وسط هو قطعاً فاسد خير منه ألف مرة أى حل متطرف ؛ — بل لأنه حل جامع للقطينين ■ بكل ما فيهما من نفور وتناقض ، فى وحدة خصبة .

وليس المجال هنا طبعاً مجال دراسة هذه المقولات ، خصوصاً الأولى منها ، من الناحية النفسانية . فهذا البحث لا صلة له بشئ من هذا . ولكن نظرنا يتجه إلى بيان مدلولها الوجودى ، أعنى معناها من حيث تكوين طبيعة وجود الذات المفردة .

أما التألم فشعور الذات بأن شيئاً يحثها فى وجودها العينى . فهى تريد أن تحقق إمكانياتها فى العالم الذى كذفت به ، لأن الاتجاه الأسمى فيها هو تحقيق الإمكانيات قدر الوسع والطاقة ؛ وتحقيق الإمكانيات يصطدم بالغير لأنه لا يجرى فى داخل الذات وحدها ، بل لا بد أن يجرى فى الغير ، وإن كان ذلك كوسيلة لإثراء الذات بأفعال جديدة ، أى بتحقيق بعض من إمكانياتها باستمرار . فإذا ما لاقى فى هذا التحقيق مقاومة ، تألمت . وهذا يوضح لنا الأحوال المعروفة عن الألم مما لاحظته النفسانيون دون أن يستطيعوا تفسيره من الناحية الوجودية ، ولا إدراك معناه . وأولها أن التألم يزداد مقداره ونوعه تبعاً لازدياد السرى فى سلم الكائنات ، حتى إن أدناها فى مراتب التطور أقلها تألماً ، وأعلاها أكبرها شعوراً بالألم . فهذا يفسره النفسانيون على أن ذلك راجع إلى رقى الشعور كلما علا الكائن فى سلم التطور ؛ وهذا ليس من التفسير فى شئ ، بل هو ترديد لنفس المعنى بعبارة أخرى . ولكنه يفسر من الناحية الوجودية بسهولة ، وذلك على أساس أن الرقى فى مرقاة التطور معناه تحقيق الكائن لإمكانيات أكبر ■ نوعاً ومقدراً . والتحقيق يلتقى مقاومة من جانب الغير . وإذا ■ فكلما زادت الإمكانيات التى ستحقق ، زاد الألم الناتج تبعاً لزيادة المقاومة . وفى الحيوانات ذوات الخلقة الواحدة لا نرى شعوراً بالألم أو لا نكاد ، إنما يبدأ ذلك فى ذوات الأكثر

من خلية ، ويزداد بازدياد عدد الخلايا ، وهكذا حتى نصل إلى الإنسان .
والإنسان بدوره يتدرج من هذه الناحية في سلم يبدأ من الرجل البدائي
مستمراً حتى رجل الحضارات العليا في أعلى مراحل تطورها . فهنا ظاهرة
مشاهدة لم تجد تفسيرها المقنع حتى الآن ، من الناحية النفسانية : وهي ازدياد
التألم بقدر ازدياد علو المرء في درجة التطور الحضارى . فمن الملاحظ أن
الشعوب البدائية قليلة الشعور جداً بالألم ، وهذا ما نسميه نحن سرورهم
أو خلوصهم من البلبال إذ نراهم محتفظين دائماً تقريباً بنوع من المرح الهادئ ؛
حتى إن موقفهم من الموت والأحداث الخطيرة التي تهددهم موقف مليء
بالابتسام وعدم الاكتراث . والحال على العكس من هذا بالنسبة إلى المتحضر :
فهو سريع التأثر بالألم ، مع أنه أقل تعرضاً للأخطار الخارجية من البدائي
الذى هو فريسة هينة لكل عوامل الطبيعة من ظواهر وحيوانات مفترسة .
هنا ظاهرة مشاهدة تحتاج إلى تفسير : أما النفسانيون فيعزونها كما قلنا إلى
ضعف الشعور عند البدائي ، ولكن هذا تكرار للظاهرة وليس تفسيراً لها .
والاجتماعيون يحيلون هنا إلى الشعور الجمعى الذى يفنى فيه الشعور الفردى
الذاتى ؛ وهذا تفسير أعجب ، لأن الأخطار تهدد الفرد الواحد دون مشاركة
للجماعة فى كثير من الأحيان ، فكيف نفس نفس الموقف ؟ إنما التفسير الواجب
أن يقال هنا هو التفسير الوجودى ، على أساس ما قلناه وهو أن تحقيق الإمكانيات
ضئيل لدى المتحضر ؛ لذا كان الأول أقل تعرضاً للمقاومة ، وكان الثانى
أكثر ؛ والمقاومة تنتج الألم ؛ فالألم يزداد إذن بازدياد التحضر .

وهذا التطور فى التألم ينطبق على التطور الحضارى نفسه فى داخل كل
حضارة . فنحن نعلم أن عصر المدنية فيه يتألم الناس أكثر منهم فى عصر
الحضارة ؛ والسعادة بالتالى فى هذا الدور الأخير عند الإنسان أكبر منها
فى دور المدنية . فى الحضارة اليونانية مثلاً نشاهد أن ازدياد التألم قد ظهر
فى دورة المدنية بوجه خاص عند الرواقين والأبيقوريين أنفسهم . وبدلاً
من هذه النظرة الباسمة المقبلة على الحياة التى اتسم بها اليونانى فى العصر

الهومييرى ، نرى فى العصر الهلينى وجوها شَفَّها السَّقَمُ وبراها التَّألم. وفى الحضارة الأوربية نشاهد الظاهرة بعينها : فالعهد السابق على الثورة الفرنسية كان عهد إشراق وسعادة أكبر جداً من العهد التالى لها ؛ والسنوات السابقة على الحرب الماضية أكثر هناء ، عند الناس ، من السنوات التى تلتها . وهكذا نستطيع أن نشاهد هذه الظاهرة جلياً فى داخل تطور كل حضارة ، حتى إننا نرى المتشائمين يزدادون بكثرة هائلة فى طور المدنية فى كل الحضارات كما هو واضح خصوصاً فى الحضارة الأوربية : فالقرن التاسع عشر لا يتضمن تقريباً من الناحية الروحية غير سلسلة من المتشائمين ابتداءً من ليوبردى وشوبنهاور وادورد فون هرتمن ونيتشه وبودلير ودوستوفسكى واشترندبرج حتى اليوم عند هيدجر . وتفسير هذه الظاهرة هو على نحو ما قلنا : فقد ازدادت إمكانيات الإنسان القابلة للتحقيق بواسطة النهضة الصناعية الهائلة التى حدثت فى ذلك القرن ، ففتحت المجال واسعاً أمام أكبر عدد من الإمكانيات ، وبالتالى لملاقاة أكبر مقدار من المقاومة ، وبالتالى أيضاً لمعاناة أكبر نصيب من التألم . ولذا كان روسو مصيباً فى قوله إن الحضارة تسلب الإنسان السعادة .

فالتألم إذن مصدره الحدُّ من تحقيق الإمكانيات ؛ هو شعور من الذات الماهوية بأن ثمت مقاومة تعانيتها من جانب الغير وهى تحقق ما بها من إمكانيات . فهذا هو المعنى الوجودى للتألم . ولما كان تحقيق الإمكانيات الطابع الأسمى لوجود الذات على هيئة الآنية ، فإن التألم إذن طابع أصيل للوجود الذاتى ، لا سبيل مطلقاً إلى القضاء عليه أو التخلص منه إلا بالقضاء على مصدره ، وهو تحقيق الإمكانيات ، وبالتالى القضاء على الوجود الذاتى .

وهو يتدرج تبعاً لمقدار المقاومة ونوعها : أما من حيث المقدار فإنه يتراوح بين الشدة والضعف ؛ ومن حيث النوع يتدرج من السمو إلى الوضاعة . ويتعين النوع وفقاً لطبيعة الغير : فإذا كان من النوات العاقلة صدور المقاومة

كان أسمى منه لو كانت من الأشياء ، لأن هذه أدوات فحسب ، أى لا صفة لها غير الإحالة ؛ بينما تلك ادواتٌ . وغايات معاً : أدوات بالنسبة إلى غيرها ، وغايات بالنسبة إلى نفسها ؛ ولذا فإن الألم الصادر عن الذات الحية للغير أرفع رتبة من ذاك الصادر عن شيء جمادى مغاير . وفكرة الزهد والتعشف تقوم على هذه الحقيقة ، ونقصد بالزهد الزهد فى الماديات لا فى الذوات الأخرى الشاعرة بذاتها . كما أن المعنى الوجودى لفكرة التضحية يستخلص أيضاً من هذه الحقيقة : إذ التضحية لا تسمى بهذا الاسم وبالمعنى الشريف ، إلا إذا كان التألم صادراً عن ذاتٍ تزداد روحيتها حتى تستحيل إلى روحية خالصة على هيئة مبدأ أو فكرة أو رسالة أو مذهب الخ . فالعلة فى سمو معنى التضحية إذن هو شرف الموضوع الآتى منه المقاومة ، لا ما تقوله النظرة النفسانية المبتذلة ، من أن ذلك بسبب الفائدة التى تعود على الكل من تضحية الجزء فى سبيل مصلحته ، أو تضحية الأدنى فى سبيل الأعلى ، أو كما يقول ماكس شيلر (١) : « إن الجزء التارك أو المتروك يتألم ويموت هدلاً من الكل ، من أجل أن ينقذ هذا الكل ويحفظ ، أو ينمو ويزدهر ، حسب الأحوال . فى كل تألم يستبدل الجزء نفسه بالكل ويحول بهذا بين الكل وبين تألم أكبر » . فهذا التعليل ليس مؤدياً إلى فهم معنى التضحية من جانب المضحي نفسه ، وإنما هو فرض من الآخرين لتبرير أو لحث الذات الأخرى على التضحية ؛ ولذا فإنه تفسير من وجهة نظر الغير ، لا من وجهة نظر الذات ، ولذا كان فاسداً . أما تفسيرنا الوجودى فيتناول الأمر من ناحية المضحي نفسه ، أى من ناحية الذات ، ولا بد أن يكون التفسير كذلك لأن التضحية فعلٌ من الذات ، فيجب أن يفهم من جهتها هى .

والتضحية تكون الدرجة العليا للتألم ؛ ولذا فإنها فى النقطة التى يجتمع فيها أعلى تألم مع أعلى سرور ، فالأطراف فى تماسٍ كما يقال . إذ لا يشعر المرء

(١) ماكس شيلر : « معنى الألم » ، ص ١٩ ، ترجمة فرنسية ، باريس سنة ١٩٣٦

فيها بألم خالص ، كما لا يشعر بسرور خالص على النحو المُعاني في لحظات السرور الأخرى ، وإنما تجمع بين الناحيتين وتضمهما في نوع من الوحدة لو أنها عمّقت لكانت وحدة التوتر . فالشهيد الذي يعلو جبينه هذا « الأسف الباسم » الذي تحدث عنه بودلير ، وقال إنه ينبثق من أعماق المياه ، ويقصد به - بطريقة رمزية - اضطراب السرور مع الألم وتوترهما بشدة ، هو الذي يحقق هذه الوحدة المتوترة بين الألم والسرور . والمثل التاريخي الواضح عليه سقراط : فحركة السرور التي أبدأها وهو في أشد حالات المحنة ، أي حين كان على وشك تجرع السم ، لو فسرت وجودياً لما فسرت إلا على أنها صادرة عن وحدة التوتر الشاملة لأعمق سرور مع أشد تألم . ولذا لا يبلغ الشعور بالشخصية والذاتية والحرية في لحظة من لحظات الوجود الذاتي قدر ما يبلغ هنا بالنسبة إلى مقولة الألم والسرور . فالوحدة المتوترة إذن حال ذاتية وجودية فيها يصل الشعور بالذاتية أوجّه ، وبالتالي بالوجود ، لأنها تشعر بالطابع الأصيل للوجودية ألا وهو التناقض ؛ والشعور هنا عن تجربة حية لهذا التناقض في كل شدته وعنفه واستقطابه وتمزقه المتصل . وهي هنا جامعة بين حال التألم والسرور في توتر مستمر ، ليس فيه رفع لأحدهما أو تخفيف له ، بل بالعكس كما قلنا هي الدرجة الشاملة لأعمق سرور وأشد تألم ؛ وهي معقد الصلة بين الاثنين . والواقع أن كلاً من السرور والألم وجهٌ لشيء واحد هو الوحدة المتوترة التي تسمى في هذه الحال الألم السار أو السرور المتألم ؛ ولذا لا يمكن الفصل في الواقع بين هذين الوجهين : ففي كل فصل بينهما تزييف للاثنين معاً .

وهذا يظهر بصورة أوضح حينما نحلل المعنى الوجودي للسرور . فالأصل كما قلنا الوجود الماهوي ، وينقل إلى الآنية بواسطة تحقيق الإمكانات ، وتحقيق الإمكانات هو الفعل ، والفعل إذن توكيد لإمكان ، وفي التوكيد شعور بالذاتية : إذ فيه نقل لها من القوة إلى الفعل ، وكل ما يشعر بالذاتية على نحو ليس فيه مقاومة هو السرور . لذا كان أرسطو نافذ النظرة حينما

جعل السرور في مجرد تحقيق الفعل ، واللذة تاجاً يعلو جبين الفعل ، فتفسير السرور من الناحية الوجودية هو أنه شعور بتحقيق الإمكان على صورة الواقع ، منظوراً إليه من ناحية ليس فيها مقاومة . والفارق بين هذا وتفسير أرسطو (١) أن هذا الأخير ينظر إلى السرور نظرة سكونية بوصفه كمالاً ، أى تحققاً بالفعل ؛ فهو خارج عن كل صيرورة ، وليس حركة مستمرة تنطوى على تغير دائم ، بل حال من السكون كتلك التي تكون فيها الصورة بعد أن تتحقق . أما التفسير الوجودي فيحتفظ له بكل حركته وتغيره ، لأنه ينظر إليه من ناحية التعارض بينه وبين التألم في حال الوحدة المتوترة ، وهي حال "حركية" .

والسرور يزداد بقدر ازدياد تحقق الإمكانات ، كالحال تماماً بالنسبة إلى التألم . ويتوقف في نوعه على طبيعة الإمكانات المتحققة : فالتحقق الذي يزيد في إثراء الوجود هو الأسمى ؛ والإثراء لا يتم بمجرد إضافة من الغير ، بل يقوم في الدرجة الأولى على إخصاب الذات وتنمية قواها الباطنة وكسبها نفسها لنفسها ؛ ومن هنا فإن التحقيق المؤدى إلى إفناء الذات في الغير ، مادياً كان أو روحياً ، أى سواء أكان أشياء أم ذوات أخرى ، تحقيق باطل بالنسبة إليها ، لأن فيه صرفاً للذات عن ذاتيتها إلى غيرية الغير . والدرجة العليا للسرور إذن هي تلك التي تملك فيها الذات نفسها بكل ما في وسعها تحقيقه من إمكانات ، دون أن تكون قائمة على الغير مستمدة لشيء منه . فهنا نوع من العزلة ، لكنها ليست عزلة النسل والترهب ، لأن هذه خالية من تحقيق الإمكانات ، وهي بالأحرى حالة خلو وفراغ ؛ بينما العزلة التي تكون فيها الذات الممالكة لنفسها ، عزلة مليئة حبل بالأفعال ثرة بالواقع ؛ وليس فيها أثر بالمعنى المفهوم ، لأن هذه سلبية فيها انحسار للنفس أو الذات وتضييق لها في إمكانات محدودة ، بينما العزلة تميل إلى الفيض

(١) راجع كتابنا : « أرسطو » ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٩٤٣ .

والبذل كى تحقق أكبر قدر من الأفعال ممكن ، ولذا فإن فيها بالأحرى نوعاً من الإيثار يزداد حظه بالنسبة إلى موضوعاته ، حتى يبلغ أوجه في الإيثار المحقق لأقصى الإمكانيات الذاتية المغنى في الآن نفسه لأكثر قدر من الذوات الغيرية : ولذا نجد فيه هذا الطابع المتناقض الذى يكون بتناقضه كل قوته .

وواضح أن الإيثار يلاقى التضحية في نقطة واحدة هي الذروة التي تقوم فيها الوحدة المتوترة ، وحدة الألم السار : ففي كاهيها طابع التوتر الصادر عن تعارض وتقابل في الاتجاه واستقطاب لا يمكن محوه أو إضعافه ، بين التألم والسرور .

وبالإيثار قد انتقلنا إلى الثالث الثانى في مقولات العاطفة ، وهو المكون من الحب والكراهية متحدتين في وحدة متوترة هي الحب الكاره : لأن الإيثار يتضمن معنى الحب بالنسبة إلى الغير ، وذلك حين ينتقل الشعور من الذات المفردة إلى ذوات أو أشياء مغايرة . ولكن لا تحسن مع هذا أننا قد انتقلنا بهذا من الذات الوجودية إلى غير الوجودى ؛ بل بالعكس تماماً ، فلا زلنا هنا في نطاق الوجود الذاتى ، ولكنه اتسع حتى شمل وجود الغير . وما ينسبونه إلى الحب من أنه فناء للذات في الغير ليس بصحيح إطلاقاً ، إذا فهم على أنه فقدان لوجود الذات ، بل الحب يحيل المحبوب إلى طبيعته ويفنيه فيها ، ولذا يتصوره دائماً على نحو ذاته : فالصورة التي لديه عن هذا الغير صادرة عن ذاته وتكاد أن لا تتشابه في شيء مع صورة الغير الموضوعية ؛ فعشيقنا دائماً من نسج خيالنا ، أو بعبارة وجودية ، عشيقنا داخل وجودنا وعنصر مكون له في ذاته . والحب بالمعنى الوجودى إذن هو امتصاص الذات للغير وإفنائها له في داخلها ؛ والدافع إليه تملك الغير كأداة لتحقيق الممكن ؛ ومن هنا ارتبطت به فكرة التملك الخالص وهو ما يسمونه الإخلاص في الحب أو الأمانة في الزواج الخ ، لأن في هذا تحقيقاً للوجود الذاتى على نحو أكمل . ولذا يظل طابع الملكية قائماً بالحب حتى في أعلى درجاته ؛

إذ الحب الصوفي الإلهي نفسه يصبو إلى أن يضم الذات الإلهية في ذاته الخاصة ، وهو ما عبر عنه القديس برنارد فقال : « إن من يُحِبُّ الله بروح متوقدة يتحول إليه » ، أى تستحيل ذاته إلى ذات إلهية ؛ إنما الفارق بين الملكية والحب أن الموضوع فيهما مختلف : فوجود الغير - كما قلنا في الفصل الأول وكررنا مراراً - ينقسم إلى وجود لذوات شاعرة ووجود لأشياء جهادية ؛ وإلى الوجود الأول يتجه الحب ، بينما تتجه الملكية إلى الوجود الثانى ؛ والغاية واحدة في كلا الأمرين بالنسبة إلى الذات ، فإنها لا تريد هنا وهناك إلا تحقيق إمكانياتها . ولما كانت الذوات في مرتبة أسمى من الأشياء من أجل تحقيق هذه الغاية ، فإن الحب أسمى من الملكية . وهذا كله يفسر لنا طبيعة الشعور في عاطفة الحب : فإنه في الدرجة الأولى منه شعور باتساع الذات ونموها ، وفي أعلاه بتعمقها وانتشارها مع وحدتها - حتى تشمل كل الغيرية ، إلى درجة أن يكون مُمَلَّكاً للغيرية كلها ، كما هي الحال في الحب الصوفي الإلهي ؛ وليس لهذا غير معنى واحد ، هو أن الذات قد اتسعت ؛ جودها حتى انتظمت كل شيء فلم يعد ثمت غيرها . ولهذا فإن الحب الذى يبدو في أول الأمر إثارة ، ينتهى بأن يكون في أسمى درجاته أثرة - بهذا المعنى - إلى الحد الأعلى . وهذا يكشف عما فيه من طابع دياكتيكى كغيره من الظواهر الوجودية للحياة العاطفية . وهذا الحب الشامل ليس حباً ، تزول فيه المفارقات والتعارض ، بل بالعكس : يشمل كل تعارض ولا يقوم على غير هذا التقابل الحاد المتوتر . فالحب ليس سكونياً ، بل هو حركة صادرة عن قلق مستمر ، هو كما يعرفه أفلاطون « ابن الفقر والثراء » معاً ، فهو بالتالى طموح مستمر من جانب الفقر لتحقيق الثراء ، والطموح حركة لا تقف ؛ وإلا فإنها إذا وقفت ، كان في ذلك تحصيل للكائن المعشوق ، وبالتالي وقوف عند حد تحقيق إمكانية معينة ، مع أن الوجود الماهوى إمكانيات لا متناهية ، فلا تقف الحركة إلا إذا وقف تحقيق الإمكانيات ، وهذا لا يكون إلا فى الموت ، لأن الوقف هنا قطع وليس كما لا ؛ ولذا فإن الحب لا بد أن يكون حركة مستمرة .

ولما كان الحب كما فسرناه وجودياً لإفناء المعشوق في الذات ، فإنه يتصف أولاً بأنه لا يشترط فيه التبادل . فمن يُحِبُّ حقاً ، لا يَعتَهِ أن يكون موضوع حبه يبادله حباً بحب ، إن كان يريد الحب بمعناه الحق ، على هيئة تغير وحركة باستمرار . وهذا ما عبر عنه جيته في الكلمة التي قالها فيلين في رواية « فلهلم ميستر » : « إذا كنت أحبك ، فهل هذا يعنيك ؟ » فعنى هذا القول أنه ليس يعنى المحب أن يكون حبيبه يبادله حبه ؛ بل الأخرى به أن لا يبادله إذا أراد حباً عميقاً ، لأن تبادل الحب يقضى على الحب نفسه كحركة متوثة تسعى لإثراء الذات باستمرار ؛ وهذا هو السر في تبدد الحب بمجرد خطوة المحب برضا الحبيب : إذ بالرضا تقف الحركة ، وهي مصدر الإثراء ، أى يقف الحب عن تحقيق الغاية منه . ولذا نرى كبار المحبين هم هؤلاء الذين لم يصلوا إلى تحصيل موضوع الحب ، سواء على هيئة زواج وعلى أية صورة أخرى ؛ والروائيون يعنون دائماً بهذه الناحية ، وإلا وقعت حوادث القصة بالضرورة ، كما نرى في القصص التي تنتهى إلى زواج أو ما يشبهه . وهذا يفسر لنا ما يسمونه إخفاق الزواج القائم على الحب ، إذ يشعر كلاهما بخيبة أمل لا يبلغ مداها التعبير ، وما ذلك في نظرنا إلا لوقوف حركة الحب بمجرد تحصيل موضوعه في الزواج .

ويتصف ثانياً بأنه على ارتباط وثيق بالخلق والإنتاج ، لأنه كما قلنا محاولة لزيادة التحقق بالغير وإثراء الذات بانتقال إمكانيات جديدة إلى حال الفعل . وهذه النظرة إلى الحب بحسبانه خالفاً لتحقيق الذات هي التعبير أو التفسير الوجودى لارتباط الحب بغريزة النسل ، وهي نظرة أدركها الإيروس الأفلاطونى ، فإن الإيروس (أو الحب) عند أفلاطون قد نظر إليه على أنه قوة منتجة مولدة ؛ وبلغت في المسيحية درجة عليا للتعبير عنها في فكرة الحب الخالق للكون . الحق أن نظرية أفلاطون هذه قد شوهتها من هذه الناحية فكرته عن الخلق في هذه الحالة : فالخلق هنا إيجاد تكررارى للصورة النوعية ، وليس تحقيقاً لصورة أكمل ، فهو بالأحرى حفظ (كحفظ النوع)

أولى من أن يكون إبداعاً لشيء جديد « كما لاحظ ماكس شيلر بحق » الذى عزأ تشويه نظرية أفلاطون هنا إلى بقية مذهبه ، خصوصاً فى أن الغاية من كل فلسفة ، ومن الحب كذلك فى أعلى صورته إذ هو وسيط بين الجهل وبين الفلسفة ، هى تأمل الصور ، « وتأمل الصور من جانب الفيلسوف هو أبعد شيء عن الخلق والإيجاد ، إذ ليس هذا التأمل للصور إلا مشاركة فى الماهية ، واتحاداً بها . وهذه الوظيفة ، وظيفة الحفظ ، هى تلك التى يقوم بها الحب فى أعماق أرواحنا ، فى نظر أفلاطون (١) » ؛ يضاف إلى هذا فكرة « التذكر » ، إذ هى لا تجعل المحبوب شيئاً جديداً سيُتملك ، وبالتالي سينضاف إلى ما تحقق ، بل تنظر إلى موضوع الحب على أنه شيء قد كان وُقِّدَ فى عالم علوى ؛ وعليها ، أى النفس ، أن تشتاق إلى هذا الشيء الماضى البعيد ، والحب تبعاً لهذا حيناً إلى ما كان ، وليس تحصيلاً لجديد يتحقق به إمكان لم يتحقق بعد . ولهذا كله كانت نظرية أفلاطون هذه غير صريحة فى تحديد معنى الخلق ، إن لم تكن بعيدة عن معناه الحقيقى . أما المسيحية فقد وضعت هذه النظرة أساساً فى نظرتها إلى الوجود وفعل الخلق الكونى : فالله عندها قد خلق الكون بواسطة الحب الذى يحمله بوصفه أباً نحو الابن وهو المسيح ، مما يتكون عنه الروح القدس التى بها يتم تنفيذ فعل الخلق ؛ والحب إذن موجود قبل فعل الخلق ، حتى إن الله فى النهاية هو الحب .

ولكن الحب فى الدرجة العليا منه يصير كما قلنا أثرة ، لأنه شعور بالذات وكأنها وحدها الموجودة حقاً ، مما يولد إحساساً بالكراهية لكل ما عدا الذات . ولذا فقد أصاب من حللوا الكراهية بربطها بالحب وكأنها صادرة منه : فنيشيه يتحدث عن الحب الأعمق ، الذى لا يعرف لنفسه اسماً ويتساءل : « أو ليس أسمى كراهية ؟ » . وعلماء التحليل النفسى ينظرون إلى

(١) ماكس شيلر : « الحب والمعرفة » ضمن كتابه السالف الذكر ، ص

الكراهية على أنها غالباً حبٌّ مكبوت مقاوب . وتفسير هذا وجودياً أن الحب كما قلنا إفناء للغير في الذات ؛ فكل ما يعوقه عن هذه العملية يستحيل إلى موضوع لشعور مضاد ، هو ما نسميه الكراهية : فالكراهية إذن بالمعنى الوجودي شعور من الذات ضد إباء الغير الدخول في حوزتها . وواضح أن هذا التعريف صادرٌ مباشرة عن فكرة الحب . لأن الدخول في الحوزة كما قلنا هو هدف الحب . وبهذا المعنى يقول ماكس شيلر : «الكراهية هي إذن دائماً وباستمرار تُفَرِّقُ قلوبنا وشعورنا ضد إبداء لمساق الحب» . (١) غير أن شيلر ينظر إليه من الناحية النفسية « ولذا يحاول أن يعدها شيئاً سلبياً ، والحب هو الإيجابي فيقول : «إن قلبنا قد فُطِرَ منذ أصله على الحب ، لا على الكراهية ؛ وما الكراهية إلا رد فعل ضد حب زائف أياً كان » (الموضع نفسه) . وهذا صحيح من الناحية الوجودية إذا فهمنا أن النزعة الأصلية للوجود هي الحب ، إذ فيه تحقيق إمكانيات وإثراء للذات ، وهذا نزوع أصيل في الوجود ؛ أما أن نفهم ذلك على أن الكراهية سلب بمعنى لا وجود ، أي ليست صفة للوجود يتعين بها ، فإن ذلك القول لن يكون صحيحاً ، إذ الذات في محاولتها إغناء نفسها لا بد أن تصطدم بما لا يريد الدخول في حوزتها من الأشياء أو الذوات الغيرية ، مما يولد عندها الشعور بالكراهية نحو هذا الغير النافر المتأبى ، فالكراهية إذن طابع ضروري للوجود . وتبلغ أوجها حين يلقي الحب أشد إباء ، وذلك يكون حيناً يبلغ الحب هو الآخر أوجه ، ولذا فإن النقطة العليا لأعلى حب هي بعينها النقطة التي فيها أشد كراهية ؛ فهنا ، كما في ثالوث المقولات السابق ، القمة مشتركة بين التقيضين أو الضدين .

وفي هذه القمة المشتركة بين الحب والكراهية تقوم الوحدة المتوترة ، لأن ها هنا حباً عالياً وكراهية شديدة قد اجتمعا معا في وحدة تضمهما معاً ، فيها توتر شديد بين هذين القطبين وعراك باطن مستمر . والشعور

(١) ماكس شيلر : « مؤلفاته المتروكة بعد وفاته » ، ص ٢٥٣ ، ج ١

بالوجود فيها بالغ حده الأعلى ، لأنه توكيد للذات إيجابياً — بواسطة الحب — وسلبياً ، بواسطة الكراهية . وهذه القمة العليا تتحقق في « الغيرة » لأنها جامعة لأعمق محبة بالنسبة إلى المحبوب ، وأشد كراهية لما عداه أو لكل ما يبعده عنه ؛ فهي بالمعنى الوجودى إذن توكيد مطلق للذات واستبعاد لما يغيرها ، وهى لهذا حبٌ كارهٌ .

ولو نظرنا الآن في هذا الثالث الثانى وقارناه بالثالث الأول ، لوجدنا أن هذا كان يقول بمجرد التحقق للإمكانيات على صورة الآنية ؛ أما الثالث الثانى فيزيد عليه رغبة الذات فى العلاء بنفسها باستمرار ، وتحصيل تحقيقات فى الوجود أتم ، وهو لهذا قوة دافعة بالذات إلى إغناء نفسها حتى تبلغ أقصى درجة ممكنة لتأم التحقق الفعلى ، ونزوعٌ مستمر نحو بلوغ هذه الغاية ، ومن هنا امتاز بالحركة الدائبة وبالحلق والإيجاد . وليس للفريزة الجنسية معنى غير هذا من الناحية الوجودية : فهى نزوع إلى تحقيق أكبر درجة من الفعل حتى تبلغ الذات كمالَ التحقيق لما بها من إمكانيات ؛ ونظراً إلى أن هذه الإمكانيات لا متناهية ، فإن الغاية دائماً بعيدة ، متباعدة كلما سارت الذات فى سبيل التحقق العينى . وتلك قوة الحب الخالقة التى تحدث عنها أفلاطون والمسيحية . والحب بهذا أيضاً يمثل النزوع إلى تعالى والإثراء الذاتى من الناحية العاطفية ، لا من الناحية الإرادية ، لأنه مجرد نزوع وليس تصميماً لفعل ؛ ولذا يصح أن يبقى معطلاً إذا لم تأت مقولة تعالى الإرادى فتقوم بتنفيذ ما يدعو إليه ؛ فهو إذن نداء يهتف باستمرار : « علواً بالقلوب ! » ، دون أن يحقق شيئاً بالفعل . ولكنه من أجل هذا أعلى من مقولة الألم والسرور ووحدهما ، لأنه يدعو إلى الزيادة فى التحقق ويدفع نحو تحصيل لفعل جديد ، بينا مقولات الثالث الأول تعبر عن أشياء كائنة بالفعل . وبعبارة أخرى نريد أن نقول إن الثالث الأول يشير إلى تحقق مضى وكان ، بينما الثانى ينبىء عن تحقق لم يأت بعد وسيكون ؛ أى أن الأول مطبوع بطابع الماضى ، والثانى بطابع المستقبل . ومن هنا نرى أن الزمانية طابع

ضرورى لهذين الثالوتين الكاشفين للذات عن طبيعة وجودها . ونقول ضرورى لأن الشعور بكل ثاوث منهما لا يتم إلا وفقاً لهذا الطابع : فالحب رأيناه يشير دائماً إلى آت لم يتحقق بعد ، وإلا انتهى ووقف ولم يكن ثم حب كما رأينا بالتفصيل ؛ والألم أو السرور يدلان دائماً على تحقق قد كان ونتج عنه هذا الشعور اللاحق ، وإلا لم يتم هذا الشعور بأية حال . فكل من هذين الثالوتين إذن يكشف عن طابع الزمانية بوصفه عنصراً داخلياً في تركيب الوجود .

وإذا كان الثالوث الأول قد كشف عن الماضي ، والثاني عن المستقبل ، فسنجد الثالث يكشف عن الحاضر .

والقلق من أهم الأحوال العاطفية التي عني بدراستها كيركجورد ، وفي إثره هيدجر . فعند كيركجورد أن « القلق نفور عاطف وعطف نافر » (١)، و « هو رغبة فيما يخشاه المرء ونفور عاطف ؛ والقلق قوة خارجية تأخذ بزمام الفرد ، ولا يستطيع منها فكاًكا ؛ بل لا يرغب في هذا ، لأنه خائف ، وما يخشاه المرء يغريه . والقلق يجعل الفرد بلا حول ولا قوة ، والخطيئة الأولى تحدث دائماً في لحظة ضعف (٢) . » ويجب أن يميز بينه وبين الخوف بكل أنواعه ، لأن الخوف وما أشبه له موضوع محدد ، بينما « القلق هو واقع الحرية كإمكانية مقدّمة للإمكانية . ولذا لا نجد القلق عند الحيوان ؛ إذ هو ليس بطبعه معيّنًا على صورة الروح » (٣) . وهو تمييز أوضحه هيدجر فقال : « إن القلق يختلف في جوهره عن الخوف . فإننا إذا شعرنا بالخوف فذلك من موجود «معين» أيّاً كان يهددنا على هذه الصورة «المعينة» أو

(١) كيركجورد : « فكرة القلق » ، ص ٨٤ ، ترجمة فرنسية ، باريس

سنة ١٩٣٥ .

(٢) كيركجورد : « يوميات » ، ص ١٠٥ ، مذكرة رقم ٤٠٢ ، ترجمة

إنجليزية ، لندن سنة ١٩٣٨ .

(٣) كيركجورد : « فكرة القلق » ، ص ٨٤ ، الطبعة نفسها .

تلك . « فالحوف » من « شئ » خوف « من أجل » شئ معين كذلك . فلما كانت خاصية الخوف أن يكون المخوف « منه » والخوف « من أجله » محددين ، فإن الإنسان الخائف والخوف يكون « مقيداً » بما يشعر به (مخيفاً له) . وفي محاولته إنقاذ نفسه منه — أى من هذا الموضوع (الخوف) المعين ، يعوزه الأمن بإزاء هذا « الآخر » ، أى يفقد شعوره هوجه عام ، أما القلق فلا يسمح بحدوث هذا ، بل على العكس ، يحدث أمناً بَيناً . أجل ، إن القلق هو « دائماً قلق » ، ولكنه ليس قلقاً من هذا الشئ أو ذاك . وإنما القلق « من » هو دائماً قلق « من أجل » أو « على » ، ولكن ليس على هذا أو ذاك . ومع ذلك . فإن « عدم تحدد » ما منه وعليه يقلق ليس افتقاراً خالصاً مطلقاً للتعين ؛ وإنما هو الاستحالة الجوهرية لتقبل أى تعين كان . (١) وخلاصة هذا التحليل أن الخوف مرتبط بشئ معين نخاف « منه » ، وشئ معين نخاف « عليه » ؛ أما القلق فليس مرتبطاً بشئ معين ، وإن كنا نميز فيه بين « منه » و « عليه » ؛ إذ هو لا تُعينُ صرف ؛ ولذا فإن موضوعه هو العدم وما ليس بموجود فى أى مكان ؛ إذ ما يقلقنا فى القلق ليس أشياء حاضرة فى الوجود العيني ، بل إمكانية التحقق نفسها فى هذا الوجود ، وهى إمكانية خالية من كل تعين غير مجرد كونها إمكانية ، ولهذا فإنها إمكانية أو حرية كإمكانية مُقَدِّمة للإمكانية ، على حد تعبير كيركجورد . وما « عليه » القلق ، يتميز بما « منه » القلق هو وضوح فى الوجود من حيث أن الأول هو الوجود الحقيقى بالمعنى الأسمى الصادر عن الوجود الماهوى ، بينما الثانى وجود غير حقيقى صار إليه الوجود الماهوى فى حالة آتيته ووجوده فى العالم بين أشياء وذوات أخرى ؛ فى الأولى إظهار للإمكانيات الذاتية ، وفى الثانية إنتهاء لكل إمكانية ذاتية ، بواسطة هذا

(١) هيدجر : « ما هى الميتافيزيقا؟ » . ترجمة فرنسية (لأننا لم نستطع أن نحصل على الأصل) ، ص ٣٠ — ص ٣١ . باريس ، سنة ١٩٣٨ . وراجع رسالتنا : « مشكلة الموت » ، ص ٩٤ — ص ١٠٠ (من المخطوطة) .

التعین . ولما كان القلق غير مرتبط بأى موجود عینی ، فأى شىء هو موضوعه إذن ؟ موضوعه العدم .

ذلك أن الوجود الماهوى حين يصير متحققاً فى العالم ، تفقد الآتية بهذا السقوط فى العالم بعضاً من إمكانياتها ، إذ لا تتحقق كل هذه الإمكانيات حتى بالنسبة إلى شىء واحد ، وبالتالي ستظل أشياء منبوذة لم تتحقق . فالآتية إذن بوصفها فى العالم يعوزها شىء ، وهذا العوز أو النقص هو العدم الذى يشعر به الإنسان فى حالة القلق . ولذا يقول هيدجر : « إن القلق يكشف عن العدم » (« ماهى الميتافيزيقا ؟ » ، ص ٣١ ، الطبعة المذكورة) . إذ نحس فى هذه الحال بأننا معلقون ، يحملنا القلق ، إذ يشعرنا بفرار الموجود بأسره وانزلاقه ، ونحن من بينه ؛ ولا وجود فى هذا الانزلاق الشامل إلا للذات المحققة لحضورها فى القلق ، وإن كان حضوراً معلقاً فى الهواء ؛ وإذا بنا فريسة للعدم ، ففترتج علينا القول ، لأن كل قول يؤذن بوجود ، والموجود قد انزلق وزال فى هذ البُحْران . ولكن ليس معنى هذا أننا نقوم بعملية سلب ونفى للموجود كى نبلغ العدم ، بل الشعور بالعدم فى حالة القلق يأتى قبل كل نفي وسلب ، دفعةً واحدة لا تتميز فيها خطوات أية عملية عقلية من هذا القبيل أو من غيره . ولهذا أيضاً فإن العدم ليس فكرة نكوّنها ، وليس موضوعاً موجوداً قائماً إلى جانب الموجود بوجه عام ؛ ولذا فإنه ليس شيئاً يجذبنا إليه ، بل هو بالعكس يدفعنا وينبذنا ، وينبذه لنا يدفع كل الموجود إلى الانزلاق والفناء .

ولكن القلق لا ينتهى بنا إلى هذه النتيجة السلبية فحسب ؛ بل يكشف لنا عن الجانب الإيجابى للوجود فى نفس الآن . ذلك أن العدم ناشئ عن تحقق إمكانيات دون أخرى ، وهو الوجود العینی ، وبغير العدم إذن لن ينكشف لنا هذا الوجود العینی . ذلك أن الشرط فى إيجاد هذا التحقق ، هو نبذ إمكانيات وأخذ أخرى تتعین فى الوجود الحاضر فى العالم ، وهذا النبذ

هو الفعل الناشئ عنه العدم . فلما كان النبذ ضرورياً للأخذ ، وإلا لم يحدث تعين ، كان العدم شرطاً للتحقق ، أى للوجود العيني . ومن هنا فإن العدم شرط للوجود في العالم ؛ وإذا كان القلق يكشف لنا عنه فهو يكشف لنا في نفس الآن عن هذا الوجود - في - العالم .

فالقلق إذن هو الذى يسمح لنا ، في رأى هيدجر وكيركجورد ، بفهم إمكان الانتقال من الإمكان إلى الواقع ، وذلك بفضل فكرة العدم : إذ العدم شرط للوجود العيني ، نظراً إلى أن هذا الانتقال لا يتم إلا بتحديد الإمكان وتعينه ، وتحديد معناه حثّه ، وحده معناه نفيه ، ونفيه لا يتم إلا بفكرة العدم ، بوصف أنه الغير مطلق : فالعدم إذن هو الذى يسمح بالانتقال من الإمكان إلى الواقع .

وهذا العدم هو الأصل في كل نفي وسلب نقوم به في داخل الوجود . ولذا أصاب هيجل كل الصواب حين جعل لكل قضية موجبة أخرى سالبة ، ولكل موضوع نقيضه ، وجعل منطق الوجود يقوم على هذا السلب المستمر . وإنما أخطأ كما رأينا في قوله بإمكان رفع السلب في مركب الموضوع ، وإن كان السلب سيستمر مع ذلك . فالعدم هو العنصر المكون للطابع الديالكتيكي لهذا الوجود العيني أو يعبر عنه . وإذا كنا أحياناً نغفل هذا الطابع أو نتناسى العدم ، فإن القلق لا يلبث أن ينبهنا إلى حقيقته الوجودية : ابتداءً من القلق الدقيق الذى ينير الذهن ويمس الكيان الباطن برفق ، حتى القلق المريع الصادر عن فكرة الموت ، مما يهزنا أعنف هزة ويملؤ كياننا كله رعدة هائلة وقشعريرة ممزقة ، مارّين بكل أنواع القلق الناشئة عن التفكير في مصائرنا ومستقبلنا وقضاء حوائجنا الخ . وهذا القلق لا بد أن يشيع في كل إنسان ، لأنه طابع أصلي في الوجود ، حتى في أشد الناس طمأنينة ، بل وفي السعادة نفسها ، وإن اختلفت درجته واختلف مقدار الشعور به فيما بين الناس .

ولأن القلق يشعرونا بالعدم ، فإنه يرتبط بالحاضر ، ويقوم في الآن . أجل ،

إننا نقلق عادة على شيء نخشى أن يحدث بعد ، أو من شيء نخاف أن يتم ، أو لا ندرى هل سيتم على وجه حسن كما نهوى أو لن يتم ، وفي هذا كله نجد طابع المستقبل . كما نجد نادراً طابع الماضي ، وذلك حين نقلق على شيء مؤسف قد كان ؛ ولكن الواقع ، كما لاحظ كيركجورد (« فكرة القلق » ، ص ١٤٤ ، الطبعة المذكورة) ، أننا لا نقلق من مكروه ماض ، إلا خوفاً من تكراره في المستقبل ، وعلى هذا فالقلق يرتد في النهاية إلى المستقبل . ولكن هذا هو ما يبدو ظاهراً ولأول وهلة ؛ أما إذا تعمقنا معنى القلق ، فإننا نجد أنه ، وإن أشار إلى المستقبل ، فإنه يقوم في الآن الحاضر ، على أساس هذا العدم الذي يثير القلقُ شعورنا به : فإن الشعور في هذه الحالة لا يتعلق بلحظة ذات كيان ، إنما ببرهة لا تُسَمَك لها إطلاقاً ، وهي مانسميه الآن . ولذا نجد أن القلق يبدأ غزوه لنا بجعلنا نشعر بالزمان يتباطأ قليلاً ، حتى لا نكاد نشعر به يمر ، وإذا زاد القلق وبلغ أوجه شعرنا بأن الزمان قد وقف نهائياً ، وهذا الشعور هو قوف الزمان هو الشعور بالآن ، لأن الآن كما رأينا عند عرضنا لفكرة الآن عند أفلاطون ثم أرسطو لا تجرى فيه حركة ، وبالتالي لا يكون فيه جريان للزمان . فالشعور بالآن لا يتم حقاً إلا في حالة القلق الهائل . وهذا يفسر لنا لماذا نشعر بطول الزمان جداً في حال القلق والخوف ، بينما نشعر بقصره كل القصر في حال الأمن والسرور .

ولما كان الآن مرتبطاً بالقلق ، فقد ربط كيركجورد بين السرمدية والقلق ، فقال إن القلق صلة ما بين الزمان والسرمدية ، كالآن سواء بسواء . ونظن نحن أن التفسير الأوضح للصلة بين السرمدية والقلق إنما يأتي من طريق فكرة العدم ، إذ العدم يشعر بالتوقف كما رأينا ويدل على أن لا حركة ، إذ يدل على اللا وجود ، وكل وجود لا بد متحرك ؛ والسرمدية ينظر إليها على أنها تُخلو من الحركة ، وبالتالي من الوجود بالمعنى المفهوم عادة من الوجود ، أعني الوجود المتحرك ؛ ومن هنا كان في الشعور بالعدم شعور بالأبد وبالسرمدية ، وفي هذا شعورٌ بالعدم في نفس الآن .

و خلاصة ما قلناه عن القلق حتى الآن ، هو أنه الكاشف لنا عن العدم في الوجود العيني ، وفي وسعنا أن نطمئن إلى هذه النتيجة التي انتهى إليها كل من كيركجورد وهيدجر ، وإن كان الأول قد نظر إليه من الناحية النفسية وربطه بالخطيئة الدينية ، بينما نظر إليه هيدجر من الناحية الوجودية ، ولذا استطاع أن يبين هذه النتيجة بتفصيل ووضوح بعكس كيركجورد الذي أشار إليها إشارة غامضة ؛ كما استطاع أيضاً أن يبين مدلوله الوجودي ، فقال إن ما « منه » القلق يقلق هو الوجود في العالم بما هو كذلك « أي لا من من حيث هو موجود معين ، ولكن من حيث الوجود عامة في العالم . وما « عليه » يقلق القلق هو إمكانية الوجود في العالم إمكانية على الوجه الصحيح ، أي الحرية لاختيار الوجود الحق . (« الوجود والزمان » ، ص ١٨٦ — ص ١٨٨) . ذلك أن مجرد تحقيق إمكانيات لا يكون إلا بنبذ إمكانيات ، كما رأينا ؛ وهذا النبذ كما رأينا أيضاً هو الذي يصدر عنه العدم الداخلي عنصراً في الوجود العيني ؛ فالذات تقلق « من » هذا التحقيق ، أو الوجود في العالم ، بسبب ما نبذ من إمكانيات ، أي بسبب العدم ؛ فالعدم يمكن أن يقال عنه إذن إنه ما « منه » تقلق الذات في حال القلق . والإمكانيات التي لم تتحقق بعد تقلق الذات « على » عدم تحققها بعد . فإمكانية الوجود في العالم بكل ما لها من ثروة ولا نهائية هي إذن ما « عليه » تقلق الذات في حال القلق . ولذا يبلغ هذا « القلق على . . . » أوجّه في حال انقطاع إمكان الوجود في العالم ، أعني في حال الموت . فالقلق الصادر عن الموت هو قطعاً أشد قلق يعانيه الإنسان في حياته ؛ لأنه إنهاء لإمكان الوجود في العالم ، وليس مجرد نبذ إمكانيات وأخذ أخرى ، حتى إنه في وسعنا أن نرد ألوان القلق المختلفة إلى هذا النوع الأقوى والأشد . وفي قلق الموت ، مع ذلك ، شعور بالطمأنينة ، لأن الموت سكون ، من حيث كونه انقطاعاً ؛ ولهذا يمتاز بهذين القطبين المتناظرين : القلق والطمأنينة ، وفي التوتر بينهما يقوم عنف الإحساس بالموت . وهذه

الطمأنينة التي نشعر بها في الموت لا نحصلها إلا على نحوين : نحو دنيوى ، وآخر دينى . أما الدنيوى فهو الذى أشار إليه أبيقور في قوله إنه لا داعى للخوف من الموت إطلاقاً : إذ طالما كنا نحيا ، فالموت ليس شيئاً ، وإذا متنا فلن نكون بعد شيئاً ، ولذا فهو لا يعنيننا فى شىء . أما الدينى فهو القائم على فكرة الآخرة ، وأن الموت بابٌ يفتح على الأبدية والنعيم المقيم ، وهذا ما يقول به أيضاً كيركجورد ومن أثرت فيه النزعة الدينية من الفلاسفة . ولكننا لا نستطيع ، من الناحية الوجودية ، أن نأخذ بهذا القول أو ذاك بل نريد أن نحتفظ للموت بكل توتره وعنق القشعريرة التى يثيرها ، دون أن نحاول الخلاص ، أو بالأحرى والأصرح الفرار ، من هذا القلق الضرورى الذى يكون طابعاً أصيلاً للوجود . وإنما الطمأنينة التى نعنيها هنا هى تلك الناشئة عما يسميه نيتشه « حب المصير » ، وذلك بأن نحسب هذا العدم الذى يُقلق « منه » عنصراً جوهرياً فى تركيب الوجود فى العالم ، ولولاه لما تحقق هذا الوجود كما قلنا ، وأن القلق هو الكاشف لنا عن الحرية ، لأنه لولا العدم لما كانت الحرية ، إذ الحرية اختيار ، والاختيار نبذ لإمكانيات وأخذ لأخرى ، والنبذ مصدر العدم . أما الطمأنينة بالنسبة إلى ما يقلق « عليه » فيمكن أن تأتى بالرضا عما تحقق بالفعل من إمكانيات ، والرجاء فى تحقيق أكبر قدر ممكن ، وبهذا الرجاء تأخذ الطمأنينة طابعاً حركياً يخرج بها عن حالة الركود والجمود التى كادت أن تنتهى إليها الطمأنينة الصادرة عن حب المصير . ولذا نستطيع أن نعدّ الرجاء نقطة عليا للطمأنينة فيها تلتقى الحركة بالسكون ، والجزع بالامن ، والقلق بالطمأنينة ، كما فى حال القلق من الموت تقريباً ، وتظهر الصلة بين الرجاء والقلق من ناحية أخرى فى طابع الزمانية « الظاهر » بالنسبة إليهما ، وهو المستقبل .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الوحدة المتوترة للقلق والطمأنينة توجد فى حالين هووجه خاص : حال القلق من الموت ، وحال الطمأنينة فى الرجاء ، وإن كان التوتر ليس قوياً كل القوة فى كلتا الحالتين : إذ يميل القلق إلى

السيادة في حال الموت ، وتميل الطمأنينة نحو السيطرة في حال الرجاء ؛ ولكن الأمر يتوقف بعد على طريقة فهمنا لكل منهما .

أما طابع الزمانية في حال الطمأنينة فهو في أعماقه الآن والحضور . إذ أننا إبانها نشعر بتباطؤ الزمان ، كما شعرنا في حال القلق تماماً ، حتى إذا ما بلغت درجتها العليا السكونية ، خيل إلينا أن الزمان قد وقف ، وإن كنا شاعرين مع ذلك بامتلاء اللحظة الزمنية . وهذا يجعل طابع الزمانية هنا الآن الحاضر ، للأسباب التي قلناها من قبل فيما يتصل بالقلق ؛ ولأن الامتلاء للحظة يدل على الحاضر بكل معناه وقوته ، إذ فيه حضور تام من الذات في نفسها (١) .

وبهذا نكون قد انتهينا من بيان مقولات العاطفة . والنتائج التي نستخلصها من هذا البيان يمكن أن تتلخص فيما يلي :

(١) هناك مجال لمقارنة معاني المقولات التي بينها هنا بالمعاني التي لها عند الصوفية المسلمين ، فتمت تشابه كبير أحياناً بينهما . فشلا يعرف كتاب « جامع الأصول في الأولياء الخ » للشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخاني النقشبندی ، القلق بأنه : « في الولايات : قلق يصفى الوقت وينفى النعت ، وفي الحقائق : قلق ينفي الرسوم والبقايا ولا يرضى بالعطايا والصفايا ، وفي النهايات : قلق لا يبقى شيئاً ولا يذر وينفى عن كل عين وأثر » (ص ٣٥٧) ؛ والغيرة بأنها : « في النهايات : الغيرة على إثبات وجود غير الحق » ؛ والمحبة بأنها : « في النهايات : حب الذات للذات في الحضرة الأحدية مع بقاء رسم الحدوث في عين الأزلية » (ص ٣٥٦ طبع مصر سنة ١٣٢٨) . كما يلاحظ من ناحية أخرى أن الرجاء يطلق أحياناً بمعنى الخوف « وأن بعضاً من الصوفية يقرب بينهما حتى يكاد أن يجعلهما حالاً واحدة ، كما فعل أبو طالب المكي في « قوت القلوب » ج ٢ ، ص ١٢٠ طبع مصر سنة ١٩٣٢ ، مستشهداً على هذا الاستعمال بتفسير الآية : « فمن كان يرجو لقاء ربه » (٨١ : ١١٠) على وجه : بمعنى يخاف الله ، وكذلك الآية : « مالكم لا ترجون لله وقاراً » (٧١ : ١٢) أجمعوا على تفسيرها : ما لكم لا تخافون لله عظمة الخ . كما أن نمة مجالاً واسعاً لمقارنة تحليلات الصوفية النفسية العميقة بمثلاتها في فلسفة هيدجر ويسبرز وكيركجورد .—راجع الآن كتابنا : « الانسانية والوجودية في الفكر العربي » ص ٦٥ — ص ١٠٤ القاهرة سنة ١٩٤٧ .

١ - أن كل مقولة تكشف عن جانب من الوجود : فالثالث الأول عن الوجود بعد أن تحقق ، والثاني عنه وهو ينزِع إلى التحقق ، والثالث في حال التحقق الفعلي على هيئة حضور بالفعل ؛

٢ - أن كل جانب من هذه الجوانب يشير إلى طابع للزمانية باطن فيه بطوناً ضرورياً ؛ فالأول إلى الماضي ، والثاني إلى المستقبل ، والثالث إلى الحاضر ؛

٣ - أن الزمان ، بالتالي ، طابع جوهرى للوجود يعين كفياته ويحدد طبيعته أحواله ؛

٤ - أن التوتر هو التركيب الأصلي للوجود ، وفيه يبلغ الشعور بالوجود - وذلك إبان وحدة التوتر - أعلاه ، فتكون الذات على اتصال بالنبوع الحى للوجود .

٥ - أن أحوال العاطفة أحوال وجودية تعبر عن أحوال للوجود الذاتى فى حال التحقق ، وبالتالي تُدرَس من هذه الناحية « أى ناحية وجود الذات ؛ أما إذا درست من ناحية صلتها بالغير ، فإن هذه الأحوال ستكون نفسانية وليست وجودية . ولما كانت صلة الذات بنفسها أسبق (فى المرتبة الوجودية) من صلتها بالغير ، فلا بد أن تتقدم الدراسة الوجودية لأحوال العاطفة على كل دراسة نفسانية . حقاً إن انبعاث هذه الأحوال فى الذات يمكن أن ينظر إليه على أنه تأثير من الغير فيها ، ولكن معناها الحقيقى ليس فى هذا ؛ بل فى كونها تعبيرات عن الوجود الذاتى نفسه وهو يتحقق ؛ أى أن النظر الصحيح إليها إنما يكون من ناحية كونها صلة من الذات إلى الذات ، لا من الغير إلى الذات أو العكس .

فالعاطفة إذن حالٌ معبرة عن الوجود الذاتى فى تحقيقه العيى ، حال وجدانية لا فكرية ، بمعنى أن الذات فيها على اشتباك مع نفسها ، يعكس الحال فى

الفكر حيث لا يكون العقل غير مرآة تعكس . وكلما زاد هذا الاشتباك ، بواسطة اشتداد حال العاطفة ، والاشتداد يتم في أعلى صورة في حال التوتر . يزيد شعور الذات بنفسها . والأمر في الفكر بالعكس ، فكلما صفت مرآته . أى صار موضوعياً أكثر ، قلت صلته ، وبالتالي شعوره ، بالوجود . هذا فيما يتعلق بالصلة بين كل من العاطفة والفكر بالنسبة إلى الوجود ؛ أما فيما يتناول العلاقة بين العاطفة وبين الفكر ، فالمشاهد ظاهرياً أولاً أن لكل عاطفة أو حال عاطفية مقابلاً فكرياً ، هو إدراكنا لهذه الحال . وواضح ما هنالك من فارق كبير جداً بين التألم بوصفه عاطفة ، وبينه بحسبانه موضوعاً للمعرفة فتألمى الخاص الذى أحياه في نفسى غير معرفتى بأننى تألمت أو أن غيرى هو الذى تألم ، وفي الحال الثانية الفارق أبين جداً منه في الأولى طبعاً . فليست المشكلة في هذا ، وإنما في أيهما أسبق : الفكر أو العاطفة ، بالنسبة إلى إدراك الوجود ؟ وبعبارة أخرى — لأن الأسبقية هنا في المرتبة الوجودية كما هو قصدنا هنا دائماً — أيهما الأقدر على هذا الإدراك ؟

ليس من شك في أن الشعور بالوجود في حال الألم أقوى منه في حال معرفة الألم ، إذ في الأول اتصال مباشر بين الذات وبين الوجود ، بينما هنا في حال المعرفة اتصال غير مباشر ، فلا بد أن نحس بالألم أولاً ونحياه لكي نقوم بعدئذ بمعرفته ، والاتصال المباشر ييسر إدراكاً أعمق . فالشعور بالوجود ، وبالتالي إدراكه ، في حال الألم أكبر منه في حال معرفتنا بالألم . والألم إذن هو الذى يجعلنا نعرف (بالمعنى الكامل الملىء لهذا اللفظ) ، لا العكس . والأمر أوضح في حال الحب . وبهذا المعنى يقول جيته : « لا يأخذ الإنسان في معرفة شيء إلا بعد أن يحبه » وستكون المعرفة شاملة عميقة بالقدر الذى يكون به الحب ، أو الانفعال الوجدانى ، قوياً شديداً . فالحب عند جيته إذن هو الذى يجعلنا نعرف ، وبقدر ما يكون تكون المعرفة . وهذه مسألة فصلها ماكس شيلر في الفصل العميق الذى كتبه عن « الحب والمعرفة »

(١) ولا نحسبنا في حاجة إلى سوق الشواهد على هذه الظاهرة ، فكل منا يعرف الآلاف منها . فالحب العميق هو ذلك الذى يتم من أول نظرة ، وكما يقول شكسبير : « من ذا الذى أحب ، ولم يكن ذلك من أول نظرة ؟ » وهذا يدل على أن الحب هو الذى يبدأ أولاً ، لا المعرفة ، لأن مجرد النظرة الأولى لا تكون معرفة . وفضلاً عن هذا فإن ما نقصده هنا ليس الأسبقية الزمنية ، بل الأسبقية في القدرة على الإشعار بالوجود وإدراكه ؛ ولا شك في أن الحب الذى يشعر به إنسان نحو آخر من شأنه أن يزيد في قدرته على معرفته به ، لا بالمعنى المبتذل الذى يقوم على أن الاتصال يكون حينئذ أوثق . ولكن بمعنى أن الحب ؛ صفه عاطفة وجدانية هو بذاته ملكة للمعرفة . نوكد هذا خلافاً لما يقال عادة من أن الحب يُعْمى ويُضِلُّ ؛ ونفسره وجودياً قائلين إنه في الحب يكون ثمت اتصال تام بين الطرفين ، وبتعبير أدق ، تحيل الذاتُ العاشقة الذاتَ المعشوقة إلى طبيعتها ، كما رأينا في معنى الحب الوجودى . وهى بالتالى تجعلها أيسر في الفهم ، إذ أن التعقل لا يتم إلا باحالة الموضوع المتعقل من جنس الملكة العاقلة . فكذلك الحال هنا . والأمر في حال القلق أبين منه في الألم والحب : حتى إن الشعور بالوجود لا يبلغ درجة أعلى مما هو في حالة القلق ، ففيه شعور بأخطر المسائل الإنسانية من مصير وخطيئة ، وفيه إحساس بالسرمدية على هيئة الآن ، وفيه أعلى شعور بالحرية والإمكان ؛ والقلق يحفر أعماق الكائن وينزل مسباره إلى أخفى خفاياه . فدرجة الشعور بالوجود إذن ترتفع من الألم إلى الحب إلى القلق ، فتبلغ هنا القمة . ولا توجد معرفة أيا كانت درجتها في النفوذ يمكن أن نشعرنا بالوجود في أعماق أعماقه مثل ما يفعل القلق .

وفضلاً عن هذا كله ، فإن المسألة تتضح أكثر وأكثر إذا نظرنا في الذات من حيث غايتها من الاتصال بالغير . فإن هذا الاتصال ليس له عندها من

(١) ماكس شيلر : « أخلاقيات » Moralia . برلين ١٩٢٣ . وقد ترجم هذا الفصل إلى الفرنسية في كتاب « معنى الألم » المذكور سابقاً ، باريس ، سنة ١٩٣٦ .

قيمة إلا من حيث كونه مؤدياً إلى تحقيق إمكانها ؛ أى أنها تنظر إليه على أنه أداة لها ؛ ومهمتها إذن ، لا أن تعرف هذا الغير كما هو ، تلك المعرفة الموضوعية « المراتبية » إن صح هذا التعبير ، وإنما أن تُفيد منه ، وهذه الإفادة لا تكون إلا بالاتصال به مباشرة والدخول فى حومته ، وهذا يحدث آثاراً عاطفية لا تصورات فكرية . فالأصل إذن العاطفة لا الفكر .

والحال أظهر فى الإرادة منها فى العاطفة . إذ الإرادة قوة للوجود الذاتى بها يحقق ما به من إمكانيات على هيئة وجود بالفعل فى وسط الأشياء والذوات . وهذه القوة مصدرها الحرية التى للذات فى أن تعين نفسها بتحقيق إمكانياتها ، فتختار من بين الممكن أحد أوجهه وتتعلق به ثم تحققه بواسطة القدرة . وهذا الاختيار ليس معرفة للأفضل أو الأنسب ، إنما هو فعل تعلق بأحد أوجه الممكن . وهذا الفعل أولى قد تصاحبه معرفة وقد لا تصاحبه ، فعل نسبته إلى الذات أنه مكون لها فى تعيينها ، وليس مجرد معرفة بما عليه تتحقق إمكانياتها .

ولما كان الممكن لانهية له ، وكان التقابل صفة جوهرية فى كل موجود ، كانت الإرادة فى حالة عدم تيقن بالنسبة إلى ما يجب عليها أن تتعلق به من أوجه الممكن : إذ يبدو لها أن الأشياء الممكنة تكاد أن تتساوى فلا يكون لديها حينئذ إلا أن تخاطر بأخذ أحد الأوجه ، وإلا ملكتها البلبلة والثبات عليها الأمر ، فتقف عن كل اختيار . وهذه نتيجة لا تستطيع الذات أن تنتهى إليها ، إذا كانت تريد تحقيق نفسها . فليس أمامها إذن إلا أن تخاطر ، فبهذا وحده تحقق أفعالا وإمكانيات ، أى تحقق وجودها . أما الوقوف أمام التساوى والتذبذب بين حالى التقابل الذى يتصف به كل وجود ، فلن ينتهى بها إلا إلى عدم الفعل ، وبالتالي عدم تحقق إمكانيات وجودها . وهذه الحال الأخيرة نشاهدها عند أصحاب المعرفة الذين يختلط عليهم حال الوجود المشكل ، فإما أن يقول بالسوية وعدم الاكتراث ، وإما أن يتذبذب ويتمرد ،

وفي هذا وذاك لا ينتهى إلى تحقيق شيء . أما المخاطر ، الذى يتعلق بوجه من أوجه الممكن تعلقاً يصدر فى الغالب عن فعل لا معقول ، فهو وحده الذى يستطيع أن يحقق إمكانيات وجوده قدر المستطاع ؛ ولا عليه بعد إن أخطأ ولم يصب نتيجة مرجوة ، فالمهم أنه حجب الوجود على الأقل فى هذه التجربة بدلاً من التوقف العاجز الذى لا يحيا فيه المرء غير عجزه وفراغ إرادته ، بل وسلب حريته ؛ لأن الحرية لا يقوم الشعور بها إلا فى حال الفعل ؛ وههنا فعل ، وهناك عدم فعل . ولذا نرى أصحاب الإرادة ، بسبب نزعة المخاطرة هذه ، لا بد أن ينتهوا إلى خير مما انتهى إليه أصحاب المعرفة ، من حيث تحقق الإمكان ؛ ومن هنا نرى الأولين يمتدون بجنودهم فى أعماق الوجود ، بدرجة تختلف تبعاً لمقدار ونوع أفعالهم طبعاً ؛ بينما نرى الآخرين مُستأصلين لا يكادون يرتبطون بالوجود فى شيء . وهذا يدل على أن الإرادة تشعرنا بالوجود أكثر مما تفعل المعرفة أو الفكر . حقاً إن الاختيار يتم غالباً عند هؤلاء المخاطرين كفعل لا معقول ، ولكن هذا خير من اللافعل على كل حال . وبعد ، فن فى وسعه الزعم بأن الوجود معقول كما خيل إلى المثاليين والعقليين بوجه عام ؟ ونقصد بالمعقول هنا ما يسير على قاعدة المنطق التقليدى . أو ليس فى القول بأن الوجود نسيج الأضداد ، وإن كل شيء يحتوى على النقيضين فى آن واحد ، قضاء على مبدأ هذا المنطق المعقول ، مبدأ عدم التناقض ؟ إن الوجود الواقعى لا معقول من ألفه إلى يائه ، لأنه كما رأينا نسيج من المتقابلات ، وكل متقابل له من الدرجة ما لمقابلته تماماً ، أعنى الدرجة فى حقيقة الوجود ، فلا مجال بعد للتحديث عن المعقولة ، بمعنى السير على مبدأ عدم التناقض ، إنما يصح قيام هذا المبدأ فى مملكة الفكر وحدها ، مملكة المجردات أى اللاوجود بمعنى انقطاع الوجود .

وإذن فكل فعل للإرادة ينطوى فى الواقع على مخاطرة ، ولذا قلنا بأن المقولة الأولى للإرادة هى الخطر أو المخاطرة : الخطر بوصفه صفة للوجود ، والمخاطرة بوصفها فعلاً لمن يتعلق بهذه الصفة . وهذا ما أدركه نيتشه تمام الإدراك

فجعل الإرادة في أصلها إرادة الخطر ؛ وعنده أن « الحياة هوجه عام معناها الوجود في حال الخطر » (١) ؛ والمعنى الأسمى للوجود هو الحياة في خطر : « إن السر ، الذى به تجنى أعظم الثمار وتنعم بأعلى الوجود ، هو : الحياة في خطر . » (ج ٥ ، ص ٢١٥) ؛ ولهذا فإن على الإنسان أن يضع وجوده كله في مقامرة ورهان ، حتى يستطيع أن يؤكد ذاته إلى أعلى درجة : « أن يجعل الإنسان حياته في خطر ، هذا هو نتيجة إرادة فياضة سخية ؛ لأن كل خطر كبير يستثير حبنا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة » (ج ١٦ ، ص ٣٣٤) ، ولأن هذا العيش في خطر هو خصوصاً ما يؤكد حرية الذات إلى أقصى درجة ، : « إذ ما معنى الحرية ؟ أن تكون لدى المرء إرادة المسئولية الذاتية ؛ وأن يحافظ على البعد الذى يفصل بينه وبين غيره ؛ وأن لا يكثر للتعب والقسوة والحرمان ، بل ولا للحياة نفسها . . . وعلى الإنسان أن ينشد النموذج الأعلى للناس الأحرار هناك حيث يتغلب على أكبر مقاومة . . . فإن الخطر العظيم يجعل منه شيئاً يستحق التوقير » (ج ٨ ، ص ١٤٩ - ص ١٥٠) . بل لا يقتصر نيتشه على تأكيد ضرورة الخطر بالنسبة إلى الإرادة وحدها ، بل وأيضاً بالنسبة إلى المعرفة : « لقد تغنوا أمامى بشيء عن النعيم الساجى للمعرفة - ولكنى لم أجده . أجل ، إني لأحتقره الآن وأزدريه . فأنا لا أريد معرفة بغير خطر » (ج ١١ ، ص ٣٨٥) .

ونستطيع نحن أن نفسر هذا من الناحية الوجودية بتحليلنا لمعنى الخطر . فالوجود الذاتى حين يريد تحقيق إمكانياته يرى نفسه بازاء أوجه للممكن عدة ؛ والفعل هو تحقيق أحد هذه الأوجه . ولكن نظراً إلى أن الممكنات تبدو كأنها متساوية نتيجة لطابع التقابل الموجود فى ماهية الوجود هوجه عام ، ونظراً إلى أن اتخاذ أحد الأوجه فيه نبذ لبقيتها ، وفى هذا النبذ إدخال لفكرة

(١) نيتشه « مجموع مؤلفاته » ، ١٦ مجلداً ، سنة ١٩٠١ - سنة ١٩١٢ ،

ج ١ ، ص ٤١٤ . وراجع كتابنا عنه : « نيتشه » ، ص ٢١٩ ، القاهرة سنة ١٩٣٩

العدم في شعور من يختار ، مما يولد بدوره قلقاً كما بينا من قبل — فإن المختار يكون في حال من التذبذب والبلبله بين أوجه الممكن على نحو لا يسعفه منه إلا أن يتحمل مسؤولية الاختيار الكاملة ، ويقرر الاختيار ؛ وهذا التقرير لا يمكن إذن أن يتم إلا بنوع من المقامرة ، لأن اليقين فيما يتصل بالنتيجة معدوم ، وإن كان ذلك على درجات — فإن النتيجة لهذا كله هي أن تحقيق الإمكانات لا يمكن أن يتم دون مقامرة عليها. وهذا هو الخطر . وكلما قل نصيب تعيين أوجه الممكن من اليقين ، زاد قدر الخطر . وعدم اليقين يزداد قدره كلما ازدادت قيمة الفعل ، لأن الفعل الكبير هو ذلك الذي يؤدي إلى نتائج كبيرة عديدة ، تؤثر بدورها في إحداث نتائج لا تنتهي ، مما يجعل القدرة على حصر قيمة الفعل من ناحية آثاره أقل وأضال ، وهذا بالتالي يجعل نصيبه من عدم اليقين أوفر . ولما كان اليقين الكامل بالنسبة إلى شيء مستحيلاً ، لأن النتائج مستحيلة الحصر ، فإن كل فعل تأتى به الذات في تحقيقها لنفسها ينطوى على خطر ؛ والذات في أفعالها لا بد لها من أن تخاطر . فالخطر إذن طابع ضروري للوجود ، يزداد قدره وفقاً لازدياد قدر الفعل . ولهذا فإن صاحب الأفعال الجلييلة هو المخاطر الكبير ؛ ومن لا يخاطر ، لا يظفر من الوجود بشيء ؛ والنفوس العالية هي تلك التي تنشد أكبر خطر .

ولما كان التصميم على الفعل هنا يقتضى مقداراً من المسؤولية يتناسب طردياً مع قدر الخطر وجسامة الفعل ، ولما كانت الحرية هي الأساس في الشعور بالمسؤولية ، فإن الشعور بالحرية لا يتوافر في شيء قدر ما يتوافر في المخاطر . والمخاطر الأكبر هو الحر الأكبر . والمهم في حال المخاطرة أن الحرية فيها تصدر عن شعور بالإمكانية المطلقة للفعل ، أى الإمكانية على تحقيق الممكن على أى نحو يريده المرء ؛ وفي هذا توكيد للحرية بمعناها الكامل الملىء ، أى بمعنى أنها القدرة المطلقة على قول نعم أو لا ، وعلى تعيين الذات نفسها على النحو الذى ترتئيه .

أما القلق الذى قد يصاحب المخاطرة فيجب أن يخلى مكانه للوحدة المتوترة ، أى يستحيل إلى قلق مطمئن : قلق من حيث عدم اليقين ، وطمأنينة تصدر عن الشعور بالرضا عن تحمل كل مسئولية . فهذه المقولة إذن موجودة فى مقولة المخاطرة . والحب ينتسب أيضاً إلى هذه المقولة ، نظراً إلى أن الحب رغبة فى تحقيق أكبر قدر من الإمكان . وهذا لا يتم إلا بالمخاطرة ، والمخاطرة يلجأ إليها الإنسان راضياً مقبلاً إذا كان يرى فى الفعل الناتج عنها تحقيقاً لأكثر قدر من الإمكان بالنسبة إلى شيء معين ، فعاطفة الحب إذن هى التى تحدد المخاطرة وتدفع إليها وتسرى فى سياقها وتغذيها . كما فى وسعنا أن نتيقن مقولة الألم والسرور ووجدتهما المتوترة فى المخاطرة : فالألم ينشأ عن الشعور بأن ثمة مقاومة لإطلاق الإمكانية صادرة عن النتائج الضخمة المترتبة على تحقيق أحد الأوجه الممكنة ؛ والسرور ينتج عن الشعور بهذه المسئولية المؤكدة لذاتها ، أو بعبارة أخرى عن الشعور بالحرية . وعلى هذا النحو نستطيع أيضاً أن نتيقن بقية أعضاء كل ثلاث للعاطفة فى مقولة الخطر .

والمخاطرة تتم بفعل واحد لا نستطيع أن نعين فيه أجزاء ؛ ولذا فإنها تتم فى الآن وتشعر بطابع الحضور فى الزمانية ؛ ومن هنا أيضاً تشعر بالسرمدية . وبهذا نستطيع أن نفسر أقول كبار الساسة أو القواد الذين يتحدثون عن أفعال يقدمون عليها وكأنها ستقرر مصائر أمم لألف سنة مثلاً ؛ فهذا الشعور صادر عن أنهم يخاطرون بجسامه ، والمخاطرة تتم فى الآن ، ويقوى الشعور بالآن بقدر درجة المخاطرة ، وبالتالي هم يشعرون بنوع من السرمدية ، فيعززون هذه السرمدية ، لا إلى مصدرها الحقيقى وهو المخاطرة بحسبانها فعلاً ذاتياً منهم ، بل إلى نتيجة هذا الفعل فى تقرير المصائر ، وإن كانت المسألة سترد إلى هذا فى نهاية الأمر من حيث ظنهم بالنتائج التى سترتب على أفعالهم .

وهذا الشعور بالسرمدية هو الذى نجده فى مقابل الخطر وهو الأمان ، إذ نحس هنا بعدم التغير ، والثبات يعطى دائماً فكرة السرمدية . والأمان

مصدره اليقين ؛ ولذا يمكن أن يفسر وجودياً على أنه شعور الإرادة بوضوح التصميم ، وهو ووضوح ضرورى فى الواقع لىكى يتم الفعل . فعلى الرغم مما هنالك من غموض يثيره الخطر ويدعو إليه ، فإن الخطر حينما يستحيل إلى تصميم وعزم يضاء بهالة من الوضوح قد يكون مبعثها مجرد الانتقال إلى الفعل . فى مجرد الانتقال شعور مطمئن نصفه ثقة والآخر تسليم ، لأنه خروج من حال التعارض بين الممكنات إلى حال السكون إلى متعين ، وخلاص من البلبلة والتذبذب فى حال الاختيار كفعل ، إلى الاستقرار عند معاوم : أما الثقة فيوحى بها الإحساس بأن تحقيقاً أياً كان سيم ، أى مجرد الفعل ، أما التسليم فيشعر به كل من يقول « لقد أبحرت » على حد تعبير بسكال . فالعناصر المكونة للأمان إذن عديدة .

ولا ضير على الذات من هذا الأمان ، طالما كانت هذه العناصر حقيقية . إنما الخسران كل الخسران أن تكون أوهاماً . والتوهم هنا طبيعى من ناحية ، عديد الدواعى من ناحية أخرى : فهو طبيعى من حيث الثقة ، عديد الدواعى بسبب ما يقتضيه الخطر من قوة هائلة على تحمل مسؤوليات ضخمة ومتاعب كبيرة . وهذه الدواعى بالضرورة موقنة ، وإلا كانت كاذبة : إذ عدم اليقين طابع لكل ما فى الوجود ، وليس فى الوسع التخلص منه على أى نحو إلا لمدة قصيرة ، وكمعبر لخطر آخر ؛ والواقع أن كل أمان ليس إلا نقطة انتقال عاهرة جداً بين خطرين ، وهو بالتالى وسيلة فحسب ؛ والضرر الأكبر فى جعله غاية ، إذ بهذا تنتفى المخاطرة ، وبانتفاء المخاطرة ينتهى الإقبال على تحقيق الإمكانيات ، وبهذا تنتهى الذات إلى حال من الجمود والركود أى إلى الفناء . وهذا هو فعلاً الشعور المصاحب للأمان ، وما ذلك إلا لانتهاء الخطر . وتلك ظاهرة مشاهدة فى الأفراد ، وفى الأمم أوضح منها فى الأفراد . فما جرّ الويل على أمة أكثر من شعورها بالأمان ! وعلى هذا فليس الأمان بطابع للوجود الحقيقى بوجه عام . ومن هنا كانت الوحدة المتوترة الجامعة لهما عنصراً ضرورياً للموجود : فالخطر الخالص مستحيل

التحقيق ، والأمن الخالص مضادٌ للوجود الحى ، فلم يعد غير الخطر الآمن هو الذى يكفل للذات الوجود الحى وتحقيق الإمكانيات فى حرية ومسئولية . ونكر ما قلناه بالنسبة إلى كل وحدة متوترة ، وهو أنها تحوى المتقابلين بكل ما لتقابلهما من حدة وشدة وتمزق ، وليس فيها أى معنى من معانى التوفيق أو « الرفع » للتعارض أو التخفيف على أية صورة كانت ، بل بالعكس : كلما ازداد قدر التوتر فى الوحدة ، كان ذلك إيذاناً بأنها حقيقية .

وإذا كانت المخاطرة كما قلنا فعلاً واحداً ، أى مكتملاً فى ذاته « منظوياً على نفسه ، مما يعبر عنه زمانياً بالآن » فإن الانتقال من مخاطرة إلى أخرى ، وبالتالي من فعل تحقيق للممكن إلى فعل تحقيق آخر ، لن يتم على وجه الاتصال ، بل منفصلاً ؛ أعنى أن الذات فى سيرها بالتحقيق لإمكانياتها لا بد أن تثب من فعل إلى الآخر ، أما السير المتصل فغير ممكن . ولذا فإن المقولة الثلاثية الثانية للإرادة هى مقولة « الطفرة » . وهى مقولة عني كبير كجورد بالإشارة إليها ، ومن قبله مندلزون الذى نعتها بأنها السمو الشعري . وكبير كجورد قد فهمها على أنها الوثبة الضرورية التى تخرج بها الذات عن ذاتها إلى هذا الموضوع الأسمى ، الذى هو الله . فقد وجد هوة سحيقة بين الله وبين الذات المفردة ، فحاول أن يعبرها ، فلم يجد من وسيلة غير الطفرة . فالمشكلة التى تناولها هنا هى مشكلة الصلة بين الله وبين العبد كما تقول الأديان ، أو الصلة بين الواحد الأول وبين المادة كما تقول الافلاطونية المحدثة خصوصاً . وقد حُلت فى هذه وفى تلك على أساس فكرة التوسط : فالإله أو المسيح وسيط بين الله وبين الإنسان ، والعقل والنفس أو الأيونات العشر وسائط بين الأول وبين المادة الإنسانية . والتوسط قد يجوز القول به إذا كان الوجود متصلاً ولم تكن كل ذات فى عزلة تامة عن غيرها من الذوات ؛ ولكن الأمر ليس على هذا النحو . ولذا فإن فكرة التوسط فكرة « خطأ » فى تطبيقها على الوجود ، ما دام الوجود منفصلاً بطبعه . ولذا أخفقت أيضاً المحاولة التى قامت بها الرياضيات الحديثة فى حساب اللامتناهيات من أجل إدخال الاتصال

في شئ منفصل بطبعه ، وهو العدد : إذ مهما صغرت الكسور التي نتصور وجودها بين وحدة عددية وأخرى تليها مباشرة ، فإنها قابلة للانقسام إلى غير نهاية ، وما دامت اللانهاية لا يمكن أن تعبر بطريقة متصلة ، فإنه لا بد أن تبقى ثمت هوة ، مهما كان من ضآلتها ، بين الوحدة والوحدة ، أي أن الاتصال بينهما مستحيل . والأمر كذلك في الوجود كما بيناه . فالوجود في نظرنا مكون من ذوات كل منها قائم بنفسه ، مغلق عليه في داخل ذاته ، ولا اتصال مباشراً بين ذات وأخرى ، أي أننا نتصور الوجود على نحو الحكم المنفصل . وإذا كان كذلك ، فلا مجال إذن للقول بالاتصال المباشر . وقد يكون في مذهبنا هذا تجديد لفيثاغورية عَفَى عليها الزمان ، ولكن هذا لن يجعلنا أقل جسارة في تأكيد هذا الانفصال في طبيعة الوجود إلى أقصى درجة ممكنة . فذهبنا نحن أن الوجود مكون من ذوات منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ، تقوم كل منها في استقلال كامل عن غيرها من الذوات ، وقد عُغِلَقَ من دونها كلُّ بابٍ يفتح مباشرةً على الأخرى ، ولا سبيل بعد هذا للاتصال إلا عن طريق الوثبة من الواحدة إلى الأخرى . لذا قلنا بأن الطفرة مقولة للإرادة ضرورية .

وقد قلنا إن كبير كجورد قد قال بها ؛ كما أن يسبرز تحدث عنها من بعد أيضاً . ولكننا نفهم منها ، أو على الأقل من وظيفتها ، غير ما يفهمان . فكبير كجورد ، كما رأينا ، قد قال بها من وجهة نظر دينية إصلاحاً لفكرة التوسط في المسيحية بين الرب والعبد ، وإن كان قد أشار إلى عمومها إشارة غامضة بعض الشيء ، حين ربطها بكيفية اتصال الذات بالموضوع ، والموضوع هنا يقصد به « هذا الآخر المطلق » ، أي الله . ثم تحدث عن العملية نفسها ، عملية الطفرة ، على أنها العلو : فيها يتم الخروج من البطون والحياثة الذاتية (الوجود الذاتي) إلى العلو (الإلهي) . وهذا الجانب غير الديني هو الذي أخذه يسبرز وفصله ، خصوصاً فكرة العلو . وواضح أننا لا يمكن أن نفهم الطفرة بهذا المعنى والوظيفة : لأننا نتحدث عنها بمناسبة اتصال الذات بالغير ،

والغير إما أن يكون ذوات أخرى أو أشياء . وعلى كل حال فحديثنا هنا لا يتجه إلى هذا الجانب الخاص ، جانب الصلة بين الله والإنسان ، بل نحن نتحدث في داخل هذا الوجود دون أن نخرج عنه إلى أى شىء آخر خارجه ، على هيئة وجود أعلى منفصل عن الوجود عموماً . ولذا لا نستطيع أن نقصر وظيفة الطفرة على هذا الجانب وحده ، بل وليس يعيننا هنا فى شىء ؛ ولا نريد أن نخرج عن الوجود إلى « ما فوق » الوجود ، ما دام هذا بحثاً فى الوجود عينه ، وإلا وقعنا فى إشكالات قد يكون من شأنها أن تقلب وضع المسائل عن النحو الذى فعلناه .

أما نقد موقف يسبرز ففسير شائك ، لسبب واحد هو أنه استعمل كلمة « العلو » بطريقة غامضة جداً ، فيها تذبذب بين المعنى الدينى الذى نراه عند كيركجورد ، وبين المعنى الدنيوى ، إن صح هذا التعبير هنا ، أى المعنى الخاص بالوجود لا ذاك المتصل بما فوق الوجود ، ذلك المعنى الدنيوى الذى نجده عند هيدجر . ويظهر أن الهجنة فى موقفه إنما نشأت عن أنه تأثر بهما معاً ولم يستطع أن يوفق ، ولا أن يأتى بمركب جديد . والواقع أن التوفيق هنا مستحيل : إذ فكرة الوجود عند هيدجر تنفى نسبة الوجود بمعناه الحقيقى إلى ما فوق الوجود . وهو مصيب فى هذا ما فى ذلك من ريب : إذ أن فكرة « الوجود فوق الوجود » فكرة متناقضة أو هى لا شىء : فإما أن يكون وجوداً ، وهو بالتالى لا بد أن يتصف بالزمانية ويخضع لكل المقولات التى بينهاها ، وهذا ما لا يرضى بالقول به من يقولون بما فوق الوجود ؛ وإما أن يكون غير الوجود ، وحينئذ لا يكون ثمت معنى لأن نقول إنه مع ذلك وجد ، ولكن فوق الوجود . وهذا هو المأزق الذى لا نخرج منه والذى يقع فيه كل لاهوت سلبى وكل مذهب فى الصفات يقول بالسلبية . ولا نخرج لنا إذن منه طالما كنا فيه . إلا إذا تجنبناه منذ البداية ، بأن قصرنا الوجود على ما فهمناه حتى الآن من معناه ، أى على الوجود الذاتى الخاضع للزمان السائر وفق مقولات الإرادة والعاطفة ، دون أن نمس الوجود

الآخر اللازماني الثابت الذي بالفعل باستمرار والذي هو فعل محض لا يداخله شيء من الإمكانية. وبهذا التمييز الواضح التام بين الوجودين ، وبين العلمين المتعلقين بهما ، إن جاز بعد أن نستخدم كلمة وجود لهذا الفرع الآخر ، نقول بهذا « وبهذا وحده ، نستطيع أن نتلافى كل هجنة وخلط في البحث .

فإذا كنا لا نستطيع أن نقرر يسبرز على موقفه هذا المهجين ، فإننا نميل إلى موقف هيدجر ، فنفهم العلو على أنه الفعل الذي ينتقل به الوجود الماهوي إلى الوجود في العالم : فهو علو بمعنى خروج من الإمكان إلى الواقع بالنسبة إلى الآنية (١). غير أن هيدجر لم يستعمل فكرة الطفرة ، ولعل ذلك بسبب اللون الديني الذي أعطاه لها كيركجورد . وعلى كل حال فإننا هنا نوكد استعمالها نتيجة للمقدمات التي سقناها خاصة بطبيعة الوجود .

فالوجود وجود الذات ؛ ولكن الذات ليست واحدة ؛ وإلا وقعنا في تلك التجريدات المثالية التي عينا كل العناية منذ اللحظة الأولى بأن نهاجمها ونتجنبها ، من أمثال الروح الكلية ، والأنا المطلق الخ . ولا بد لنا من جعل هذه النقطة واضحة كل الوضوح ، حتى لا يدفع غموضها خصماً إلى اللجاج والادعاء بأننا نرتد على أعقابنا على آثار المثالية . ولذا نقول بكل وضوح وتمييز : إن الوجود وجود الذات ، وهذه الذات ليست واحدة ، بل ثمت كثرة لا نهاية لها ، وكل ذات مستقلة عن غيرها مغلقة على نفسها ، تكون بذاتها كلا واحداً ، والاتصال معدوم بين الذوات ، فهي على هيئة وحدات عديدة لا سبيل مطلقاً إلى اجتياز ما بينها من هوات بطريقة متصلة ، إنما السبيل لذلك بواسطة الطفرة من الذات إلى الذات .

والأصل في هذه الطفرة أن الذات في تحقيقها للإمكان لا بد لها من الاتصال بماهيتها « أعني بوجودها الماهوي ؛ كما لا بد لها من الاتصال بالغير ؛ ولما

(١) راجع شرح معنى العلو عند هيدجر بالتفصيل في رسالتنا : « مشكلة

كان تمت هوة بينها وبين كل من الوجود الماهوى ، أغنى الإمكانية المطلقة وبينها وبين وجود الغير ، فلا مجال للاتصال إلا بالطفرة ؛ والطفرة هنا نفهمها بالمعنى المطلق ، أى الذى لا يستلزم أى وسط تجرى فيه . وإلا وقعنا فى الاتصال ، أى فيما حاولنا تجنبه ، إذ تبسّطت المسألة إذن إلى مسألة سرعة لا انتقال مفاجيء منفصل .

أما كيف تيسر الطفرة على هذا النحو ، فتلك هى المشكلة التى لا نستطيع أن نحلّها بطريقة معقولة ، لسبب بسيط هو أنها بعينها اللامعقول الأكبر . ولكى نفهم فكرتها على هذا النحو لابد من القول بفكرتين : اللامعقول ، واللاعلية .

أما اللامعقول فيدعونا إلى القول به جوهر الوجود نفسه . فقد رأينا كيف أن العدم عنصر جوهرى فى الوجود ينكشف لنا فى حال القلق . ولا بد من القول به نظراً إلى أن الممكن لا يمكن أن تتحقق كل أوجهه ، وبالتالي يبقى تمت منفذ ينفذ منه التحقق فى الوجود ، أى العدم ، فالعدم إذن عامل جوهرى فى تركيب الوجود . ولذا نقول نحن إن اللامعقول هو التعبير الفكرى عن العدم الوجودى ، أو بعبارة أخرى هو الوجه الفكرى الذى يظهر عليه العدم . وتلك مسألة أوضحناها فى بحث لنا سبق ، فلا داعى للعود (١) من هذه الناحية ، أغنى ناحية المذاهب الفكرية .

وقد أتت النتائج الأخيرة للفزياء مؤيدة لما نقول هنا عن اللامعقول ، فصفة اللامعقول كما يقول مايرسون صفة (٢) « لواقعة نعتدها يقينية ، ولكنها تظل وستظل غير مفهومة ، ولا ميسرة لإدراك العقل ، وغير قابلة أن ترد إلى عناصر معقولة خالصة . بل وليس الأمر مقصوراً على عدم

(١) راجع كتابنا : « شوبهور » ، ص ٢٠٥ - ص ٢٠٧ ، القاهرة سنة ١٩٤٢ .

(٢) إميل مايرسون : « الهوية والواقع » ، ص ٣٣٧ ، ط ٤ ، باريس سنة ١٩٣٢ .

إمكاننا مطلقاً فهم هذا اللامعقول ، إنما يذهب ما يرسون إلى أبعد من هذا فيرى أننا لن تقترب باستمرار من هذا الفهم ، وكل اقترابنا إنما هو من الحد الذى عنده ينتهى التفسير العلى ، وهو حد لا يمكن مطلقاً اجتيازه . فالمشاهد أولاً أن ظاهرة اصطدام الأجسام غير قابلة لأن تفهم من ناحية ما يجرى بالفعل للجسمين إبان الاصطدام . وكذلك حال التأثير عن بُعد : « فالتعدى فى التأثير بفعل المادة ، والقوة على نقل مادة أخرى ، شئ لا معقول إذن بالمعنى الذى ذكرناه من قبل ، أى بمعنى أنه يظل وسيظل غير قابل للرد إلى عناصر معقولة خالصة » (ص ٣٥٠) . وعلى هذا تسقط فكرة العلية بكل أنواعها من علية علمية ، وأخرى لا هوتية ، وثالثة فاعلية : فالأولى نحاول فيها أن نطبق العلية على كل الظواهر العلمية ، فنجد دائماً ناحية فيها تكيف وإياها ، ولكنه تكيف ناقص ، وليس فى وسعنا ، كما يقول بوترو ، « أن نجد فى العلة كل ما يجب من أجل تفسير المعلول ، إذ هى لن تحتوى مطلقاً على هذا الذى يتميز به المعلول منها ؛ هذا الظهور لعنصر جديد ، هو الشرط الضرورى لمعلول العلية . وإلا فإنه إذا كان المعلول هو بعينه وبكل أجزائه العلة ، فإنه لن يكون وإياها غير شئ واحد ، ولن يكون إذن معلولاً حقيقياً » (١) . وبعبارة أخرى : إذا كانت العلة تتضمن كل ما يكفى لتفسير المعلول ، فكيف نفسر تميز المعلول عن العلة ، ما دما نفرق بينهما ؟ أو ليس فى هذا دليل على أن تمت عنصراً جديداً قد دخل الحدث الناتج ، لا نستطيع أن نجد ما يفسره فى العلة نفسها ؛ وليس فى وسعنا — بالتالى أن نرد المعلول إلى العلة ، مع أن هذا هو التفسير العلى وبالتالى المعقول ، لأن التفسير العلى هو ذاك الذى يرد الواقعة إلى عناصر معقولة خالصة ؟ وعلام يدل هذا ، إن لم يكن على أن تمت عنصراً لا معقولاً ، لا بد من القول به ، يتم وجوده فى أثناء الحدث ؟ وليس لنا أن نقول هنا

(١) إميل بوترو : « عدم الضرورة فى قوانين الطبيعة » ص ٢٩ ، باريس ،

سنة ١٨٧٤ (اوردته مايرسون : ص ٣٢٢) .

إن العلة ليست معروفة لدينا كلها ، ولذا بقى شيء لم نفهمه ، فاللامعقول إذن مصدره عدم الفهم الشامل لمضمون العلة - نقول لم يبق مجال للمثل هذه الإحالة إلى مجهول التي طالما لجأ إليها أصحاب المعقولية المطلقة لكي يبرروا إخفاقهم في التفسير ، مما كان يضطرهم كثيراً إلى افتراض علل خارجة كذلك الملك الذي تحدث عنه ليبنتس فقال إن هذا اللامعقول يمكن أن ندرك معقوليته « لو شاء ملك أن يوحى إلينا بها » (١) . والواقع أننا هنا بإزاء النوع الثانى من العلية ، أعنى العلية اللاهوتية ، القائلة بفكرة الخلق ورد الحوادث كلها والأفعال جميعها إلى علة عالية واحدة هي الله ، ولذا فإنها تنطبق على الظواهر التي نعدّها خارجة عن نطاق العلم والتقدير . أما العلية الفاعلية فزيج هجين من النوعين السابقين ، إذ تشارك اللاهوتية في أن الظواهر التي تنطبق عليها خارج نطاق العلم ، ولكنها لا ترتفع إلى رد العلية والفاعلية إلى قوة عالية ، بل تردّها إلى اللامعقول .

فالعلة بهذه المعاني الثلاثة لوفهمت على أساس الفعل المباشر لكانت فكرة خطأً ، ولذا تفضى كل منها إلى اللامعقول في نهاية الأمر ، بوصفه الحائط الذي يجب أن يصدم به التفسير العليّ ويرتدّ دونه من غير أن يكون في وسعه اختراقه . وهذا ما انتهت إلى الاعتراف به الفزياء المعاصرة ، خصوصاً نظرية الكم عند هيزنبرج ودى بروى ، مما عرضنا تفصيله في موضع آخر (٢) .

فما انتهى إليه العلم إذن من القول باللامعقول واستبعاد التسلسل العليّ المتصل ، هو ما نوّكده نحن هنا من الناحية الوجودية في قولنا بالطفرة الوجودية . والغريب أن الشبه بين مذهبنا ونتائج الفزياء لا يقتصر على هذا القدر من

(١) ليبنتس : « مؤلفاته الفلسفية » ، نشرة جرهرت ، ج ٧ ص ٢٦٥ (أورده مايرسون أيضاً ، ص ٣٣٧) .

(٢) راجع كتابنا : « اشبنجلر » ، ص ٣٠ - ص ٣٤ ، القاهرة سنة ١٩٤١ .

القول باللامعقول واستبعاد التسلسل العيلى، بل يمتد إلى إلغاء فكرة المتصل في تركيب المادة والضوء على السواء (٢). أما إلغاء فكرة المتصل في المادة فقد تم مبكراً جداً ، منذ اللحظة التى نادى فيها بمقريطس بمذهبه الذرى ، وعلى أساسه يتركب العالم من جواهر فردة غير قابلة للقسمة . ومع أن هذه الفكرة قد لاقت معارضة شديدة من جانب أنصار المكان المتصل والحركة المتصلة في العصر القديم والأزمنة الحديثة ، فلإنها انتهت في القرن الماضى وهذا القرن إلى تثبيت دعائمها . فالنظرية المضادة « وهى القائلة بالاتصال ، قد زعمت أن للمجسّمات والسوائل اتصلاً بافترضها أوساطاً متصلة ، وعلى هذا الأساس أقامت ميكانيكا سميت فيما يتصل بالمجسّدات « نظرية المرونة » وفيما يتعلق بالسوائل « علم القوة المائية » . ولكن تبين للفزيائيين أن اتصال المجسّمات والسوائل ليس إلا وهماً ، إذ هى مكونة في الواقع من ذرات في حركة ، فيخيل إلينا بنظرنا غير الدقيق أنها متصلة . ثم حاول أنصار نظرية المتصل توكيد موقفهم عن طريق النظرة إلى الضوء على أساس ما فعله ويجنس ، الفزيائى الهولندى المعروف ، من القول بأنه مركب من موجات ، لا من ذرات كما ادعى نيوتن : فعنده أن الضوء تموج ينتشر في وسط متصل هو الأثير . وساعد على القول باتصال الضوء اكتشاف يونج لظواهر التداخل والانعطاف ، وتأيد فرينل لهذه النتائج ؛ مما أدى إلى وضع فرع من الفزياء هو علم البصريّات ليس فيه استعانة بفكرة المنفصل . فقدرت الاهتزازات الضوئية على أساس دوال متصلة تكون معادلة ذات مشتقات جزئية هى ومعادلة انتشار الموجات الضوئية . غير أن هذا كله قد انتهى إلى غير ما قصد أصحابه : فإن التحليل الرياضى المتصل ، وعليه تقوم نظرية انتشار الموجات الضوئية ، لم يمكن إقامة أسسه بطريقة دقيقة إلا ببرد المتصل إلى المنفصل ؛ وفضلاً عن هذا بقى الانفصال في تركيب المادة ، والواجب أن تقوم نظرية

(٢) راجع فيما يتصل بما سيلي كتاب لوى دى بروى : « المادة والضوء » ،

الضوء في وفاق مع نظرية المادة ، بينما نحن نرى هنا من ناحية أن المادة مكونة من جواهر كيميائية بسيطة ذات خواص ثابتة : فالكهرباء مكونة من عناصر هي الكهبريات ، وهي مشبهة لنفسها باستمرار ، ومن ناحية أخرى نرى الضوء مركباً من موجات متصلة تسير في أثر عُدَّ مكاناً متصلاً . أما فكرة الأثير فقد زعزع دعائمها أينشتين في نظرية النسبية المحدودة كما رأينا في الفصل الثاني ؛ وفضلاً عن هذا فليس في المستطاع القول معاً بمادة منفصلة وأثير متصل . فأدى هذا كله إلى أزمة شديدة في الفيزياء ، حلها نظرية الكم منذ عشرين سنة تقريباً .

جاءت هذه النظرية واستعادت فكرة الضوء القديمة القائلة بأنه يتكون من أجزاء مفردة ، فقالت بأن الضوء مركب من جسيمات هي الضوئيات (الفوتونات) ، تشابه جسيمات المادة ، وتحفظ بفراديتها في انتقالها في المكان ، وجاءت الوقائع مؤيدة لهذا الفرض . فلن النظرية التوجية للضوء ، حسب ما وضعها فرينل ، تقول بأن منبع الضوء يرسل موجة كروية تنتشر في الأثير المحيط بها ؛ وكلما سارت نما قطرها إلى درجة أن الطاقة الضوئية تقل باستمرار ، مما يؤدي إلى إضعاف الضوء وتقليل فعله أبداً كلما بعدت المسافة . ولكن النظرية الجديدة قالت على العكس من ذلك إن الجسم ، أياً ما كان بعده عن منبع الضوء ، يحتفظ دائماً بكل طاقة ويحدث أثره في أى مكان . وقد تبين فعلاً أن التأثير الضوئي الكهربى يتم بأن تكون كل الآثار التي يحدثها الضوء في الذرات واحدة ، أياً ما كان البعد عن المنبع ، مما يدل على أن الطاقة الضوئية مركزة على هيئة جسيم ، وعلى أن الضوء مكون إذن من جسيمات أو فوتونات فردة ليس بينها اتصال .

وإلى النتيجة عينها انتهت آخر نظرية فزيائية ، وهي الميكانيكا التوجية . فعلى الرغم من أنها حاولت في البدء أن توفق بين المتصل والمنفصل عن طريق فكرتها الأساسية : وهي أن كل جسيم ترتبط به موجة ، والجسيم

يمثل الانفصال والموجة الاتصال ، وعلى هذا قالت « إن الواقع لا يمكن أن يفسر بواسطة المتصل الخالص وحده ، بل لا بد أن نميز في داخله بين شخصيات أو فرديات . ولكن هذه الفرديات ليست على نحو الصورة التي يعطينا إياها المنفصل الخالص : وإنما هي ممتدة ، ويؤثر بعضها في بعض باستمرار ، وأكثر من هذا مثاراً للدهشة ليس من الممكن تحديد مكانها وتعيينها من الناحية الديناميكية بدقة كاملة في كل لحظة » (١) . نقول ، على الرغم من هذا وفضلاً عما في هذه المحاولة من صعوبات جمّة ، أصحاب الميكانيكا التوجية هم أول من أدركوها ، فإن ذلك لم يكن من شأنه أن يغير من تلك الحقيقة ، وهي أن لكل ذرة سلسلة منفصلة من الأحوال الثابتة الممكنة كما أثبت ذلك شريدنجر ، وبالتالي لكل ذرة فرديتها المستقلة عن بقية الفرديات ، مما يدل في النهاية على أن الواقع منفصل وليس متصلاً ، خصوصاً وقد جاءت أبحاث فرمي ، العالم الإيطالي الممتاز ، فأيدت الاتجاه نحو الفردية وجعلت اتصال الموجة بالجسم لا تؤثر في فردانية الذرة ، إنما كل أثره هو في ضرورة القول بأن الذرات سيئة التحديد في الوضع ، ولذا قال فرمي بفرديات فزيائية سيئة التحديد ، ولكن هذا لا يخفف من طابع الانفصال في شيء ، وكل ما يقول به هو أن الذرات ليست بيئة المعالم . ولذا نرى دي بروي ، وهو من أنصار هذا التوفيق بين المنفصل والمتصل ، والمؤسس الحقيقي للميكانيكا التوجية ، يقول : « إن اعتبار الموجات يسمح باستعادة الاتصال والجبرية بين قياسين متوالين . ولكن ذلك فيما يتعلق بتطور الاحتمالات فحسب » (ص ٢٨٧) ، أي أن «تطور الاحتمالات ابتداءً من القياس الأول يخضع لجبرية دقيقة تمثل بانتشار الموجة ، ولكن هذا ليس من شأنه أن يؤدي بوجه عام إلى جبرية دقيقة في المظاهر الجسمية التي يكشف عنها مباشرة الفحص المجهرى . وفضلاً عن هذا ، فإنه لما

كان كل قياس جديد يدخل عنصراً جديداً مجهولاً ، فإن الحساب الكامل لتطور الموجة يجب أن يحسب من جديد بعد كل قياس . والنتيجة لهذا كله ، أن الجبرية الدقيقة لا يمكن أن تقوم إلا بالنسبة إلى الظواهر التي فوق المستوى الذرى ، أما فيما عداه فلا جبرية دقيقة . والعلة في هذا أن أثر الثابت المعروف بثابت بلانك يمكن أن يفعل في المجال الأول ، بينما هو واضح جداً في المستوى الذرى والمستوى تحت الذرى ؛ وأن فكرة الموجة المضافة إلى الجسم لا تغير شيئاً من هذه الحقيقة ، وهي أن المادة والضوء متصلان على السواء ؛ وليس على الفزياء إذن إلا أن « ترفض فكرة الاتصال وتقتصر على استخراج القوانين ، التي هي إحصائية بالضرورة ، تلك القوانين التي تهيمن على الطفرات من قيمة إلى أخرى » (ص ٢٨٤ - ص ٢٨٥) ؛ والواقع الفزيائى إذن يبدو في المستوى المجهارى مركباً من وحدات تمثل انقلابات متوالية ذات انتقالات مفاجئة ، « انقلابات لا يمكن أن تقوم بوصفها بواسطة التحليل اللامتناهى في نطاق الاتصال والجبرية » (ص ٢٨٨) . وبهذا نقضى على فكرة الاتصال في الطبيعة ، تلك الفكرة التي سادت التفكير العلمى في بدء العصر الحديث وعلى أساسها زعم بعض العلماء أن في الوسع دراسة الظواهر الفزيائية بواسطة التحليل القائم على حساب اللامتناهيات ، وهو الزعم الذى عبر عنه لينتس في كلمته المشهورة : « إن الطبيعة لا تقوم بالطرفة » .

وهكذا نرى أن نتائج الفزياء المعاصرة تسير في نفس الاتجاه الذى قلنا به فيما يتصل بالوجود الذاتى بوجه عام . ومن الواضح أنه إذا كنا في الفزياء نهى الذرات فردية كاملة ونقول بانفصال في تركيب المادة والضوء ، فمن باب أولى أن نجعل للذرات الواعية استقلالاً كاملاً وعزلة ، وأنه لا سبيل إلى الاتصال إلا بواسطة الطفرة ؛ وإلا كنا نمنح المادة من الاستقلال والفردية ما نحرم منه الذات الواعية ! فالقول بوجود الطفرة ضرورى إذن في الوجود الذاتى ضرورته في الوجود الفزيائى ، بل وأكثر جداً . ومن

الغريب بعد هذا أن نتحدث عن الجسيم فنقول « إن كل جسيم في كل مظهر من مظاهره لا بد له أن يقوم بنوع من الاختيار بين إمكانيات عدة ، إن صح هذا التعبير » (ص ٢٥٤) ، ولا نقول عن الوجود الذاتي إنه يختار من بين الممكنات في الوجود الماهوى ما يريد تحقيقه !

ولا يجب مع ذلك أن نعد هذه الإهابة بالفزياء دليلاً على حاجة علم الوجود إلى تبرير نتائجها بواسطة نتائج الفزياء . فما أبعد الأمر عن هذا ! إذ علم الوجود سابق بطبعه على الفزياء وعلى أى علم آخر ، ونتائجها تأتي مقدمة لبقية العلوم أياً كان نوعها ، وليست نتائج هذه هى مقدمات ذاك . فحتى لو لم يقل العلم الفزيائى بوجود الطفرة فى الطبيعة الفزيائية ، لما أثر هذا فى النتائج التى انتهينا إليها خاصة بضرورة القول بالطفرة ، وإنما نحن قد استعنا هنا بتوضيح فزيائى مأخوذ من ميدان يبشر بأخطر النتائج فيما يتعلق بنظرتنا الكونية ، ألا وهو ميدان النظرية الكمية والميكانيكا التمجوية ، ولهذا السبب لجأنا إليه ، أى لما نتوقع منه من نتائج باهرة .

والوضع الأخير كما وضعته الميكانيكا التمجوية يؤيد أيضاً ما نقوله هنا من ضرورة المواصلة إلى جانب الطفرة : فهى تريد أن تحقق المواصلة بواسطة فكرة الموجة ، وبهربطها كل جسيم بموجة ربطت بين المتصل والمنفصل . وهذا ضرورى من الناحية الوجودية نفسها ، لأن الوجود يقتضى هذين العنصرين المتقابلين : المنفصل والمتصل ؛ أما المنفصل فلأن هذا تركيبه ، أما المتصل فذلك لكى يتحقق الفعل ؛ فنحن هنا كما فى كل موضع بازاء نفس التفرقة ، التى قلنا بها فى مستهل هذا الفصل وفى مواضع عدة ، بين الطبيعة وبين الفعل . وفكرة الموجة ذات الجسيم ، أو بالأحرى الجسيم ذى الموجة يوازيها من الناحية الوجودية الوحدة المتوترة على هيئة الطفرة المتصلة : فالطفرة يمثلها الجسيم ، والاتصال تمثله الموجة .

وضرورة المواصلة ناشئة كما قلنا عن ضرورة الفعل : إذ الفعل يستلزم لكى يحدث التأثير أن يكون ثمت ما يشبه التماس بين الذات والغير ، ولكنه

تماس لا نريد أن يفهم منه المعنى الفزيائى القديم ، إنما هو كيفية غامضة
عموض فكرة القوة فى الفزياء ، وهو عموض لا يقدح فى صحة الفكرة عينها ،
إنما يضاف إلى نوع اللامعقول الذى يجب القول به ضرورة ، وفقاً لما
يقتضيه الإشكال فى طبيعة الوجود . فهذه المواصلة إذن نوع من التوقف
تقوم به الذات فى طفراتها ، لأنها ليست قادرة على الطفرة المستمرة الآتية .
هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى لا بد منها لكى يتم الفعل فى تحقيقه بالغير ؛
ولذا فإنها تشبه هذا النوع من الامتداد الذى اضطررنا فى الفزياء إلى
القول به مضافاً إلى الذرة ، على الرغم من أن الذرة ليست بذات امتداد
(دى هروى : المرجع نفسه ، ص ٢٥٦ ، وقد اقتبسنا هذا الموضع من قبل) .
ولكن هذا التوقف يجب أن يكون مؤقتاً ، وكالتراجع القليل تهبواً لوثبة
أخرى ، وإلا وقعنا فى الاتصال ، وفقد الوجود ، بالتالى ، طابعه الأصيل ،
أعنى الطفرة . وعلينا إذن أن ننصور التطور سلسلة غير متصلة من الطفرات
ذوات المواصلات الدقيقة التى لا فائدة لها إلا أن تكون تأهباً لاستئناف سلسلة
الطفرات . والوجود الذاتى الحق هو ذلك الطافر باستمرار ، الذى لا يستطيع
أن يُخَيَّد إلى أية نقطة مواصلة أياً كانت ، بل سرعان ما يتحول عنها إلى
خرى ، وهكذا على الدوام ، طالما كانت الإمكانيات الوجودية قائمة ، ولا
توقف مطلقاً إلا فى حال اللامكانية المطلقة ، أعنى الموت .

ولكن على أى مستوى يسير هذا الطفور ؟

هنا تأتى المقولة الثلاثية الأخيرة فتحدده لنا على أنه طفور متعال ، وذلك
لأن فى تحقيق إمكانيات جديدة سمواً وارتفاعاً بالذات وإثراء لمضمونها ،
ومن هنا كان لا بد للتطور الطافر أن يسير متعالياً باستمرار . ولسنا نقصد
من هذا التعالى أن يكون على نحو ما نشهده فى حركة الصعود الفزيائية ، بل
كل ما نقصده هو أن هناك إغناء مستمراً للذات وزيادة فى إمكانياتها المتحققة .
والعلو الناشئ عن هذه الحركة لا يتجه إلى شئ خارج الذات ، بل يتم

فى الذات وبالنسبة إليها وحدها . أعنى أننا نرفض ما قاله كبير كجورد
ويسبرز من أن هذا العلو نحو موضوع « عال » على الذات « خارج »
عنها ، إذ أننا لا نريد مطلقاً وأياً ما كانت الدواعى ، أن نخرج عن هذا
الوجود إلى وجود أعلى منه ، مما يسمى فوق الوجود . وموقفنا النهائى
بالنسبة إلى هذا الأخير موقف الجهل المطلق والانصراف التام . ولا حتى
بوصفه حداً لا أكثر . كما يشاء يسبرز أحياناً أن يصوره (١) . ولكن
هذا لا يدعونا أيضاً إلى الأخذ بما قال به هيدجر بحروفه . إذ العلو عند
هيدجر قد خلا من كل طابع ديناميكى ، أما نحن فنؤكد هذا الطابع إلى أقصى
حد ، ولذا سميناه باسم « تعالى » ليدل على أن تمت فعلا وحركة من الذات
لإغناء نفسها وتحقيق إمكانيات أعلى باستمرار . والحق أن مذهب هيدجر
فى الوجود بوجه عام مطبوع بطابع استاتيكي . يشعر بالاستسلام ، ولذا
يمكن أن نعت فلسفته بأنها فلسفة مستسلمة إلى حد بعيد .

أما نحن فنقول بأن هذا تعالى خالق فعال مهاجم باستمرار ، ولا نقول
كما يقول هيدجر بأن الوجود قد سلم نفسه ، بل إن الوجود ظافر بإمكانياته
متحركة فى حركة مستمرة . إذ هو محاولة الذات أن تعلو على نفسها بأن
تغزو مواضع جديدة على الدوام ، وليس فى حركتها هذه غير الهجوم المتواصل
والاعتداء الدائم على الغير كى تحقق إمكانياتها وتمتلىء فعلا وثراء :

هو خالق ، لأن تمت صورا جديدة تتحقق باستمرار ، وتحققها بفعل
من هذا تعالى نفسه ؛

وهو إذن فعال ، وفعله صادر من الذات إلى الذات ، وإن استعانت فى
هذا السبيل بالغير كى تتحقق بواسطته وفيه ؛

وهو لهذا مهاجم ، لأن التحقق فى الغير يقتضى غزوه واكتساحه وفرض
سلطان الذات عليه وإشباع الفعل لديه ؛

(١) يسبرز : « فلسفة » ج ٣ ، ص ١٢٢ ، برلين سنة ١٩٣٢ .

وهو معتد ، لأن الهجوم ليس صادراً عن إحراج الغير وإلزامه ، بل عن فيض الذات بما فيها من قوى لم تتحقق بعد ؛

وهو لهذا أيضاً سر الوجود الأكبر الذى يناظره فى ميدان العاطفة الحبُّ بما له من طابع الرغبة فى الحوزة والامتلاك : فكلاهما يكون وجهاً يناظر الوجه الآخر لشيء واحد هو الذات فى محاولتها إغناء نفسها ؛ وفكرة الملكية فكرة مشتركة جامعة بين أهداف كليهما .

وهذا تعالى لا يجب أن يفهم على أنه مجرد إضافة تحقيقات جديدة ، وكأن الذات حينئذ مبلغ من المال يزداد . بل علينا أن نتصور هذا تعالى على أن فيه قضاءً على وضع ، للارتفاع إلى وضع أسمى من الأول . والصورة التى تتخذها الذات فى درجات هذا تعالى تختلف إذن كمّاً وكيفاً ، أو بالأحرى تختلف كيفاً أكثر منها كمّاً : فهى تركيب جديده يتلغ التركيب السابق فى داخله ويعلو عليه . وهذا يتضح أكثر بالنظر فى فكرة الكل والمجموع : أما الكل فوحدة ، بينما المجموع كثرة ، والذات فى تعاليها تنتقل من وحدة إلى أخرى ، لا من كثرة إلى زيادة فى الكثرة ، لأن الذات الفردية وحدة كاملة لا نستطيع أن نميز فيها أجزاء ؛ ولذا لا يصح حتى مجرد نعتها بأنها وحدة نظراً لما يثيره هذا من فكرة الجزء . هذا فيما يتصل بالذات فى كل درجة من درجات تعاليها ؛ أما إذا نظر إليها من ناحية وجودها الماهوى وتطورها فى تحقيق إمكانياتها ، فى الوسع الحديث عن الكل ، لأن الذات هنا لم تحقق كل إمكانياتها ، وهى إذن لا تكون كلاً ، بل بالعكس « هى وحدة ينقصها شيء باستمرار ، لأن العدم عنصر داخل فى تركيبها .

وهذه الصور التى تتخذها الذات فى تعاليها هى المظاهر التى تبدو عليها فى تحقيقها . فإذا استمرت فى تحقيق إمكانيات أعلى وأغنت نفسها بها ، كان فى ذلك تطورها على هيئة تقدم مستمر ، على النحو الذى تصوره هيجل تقريباً ، لكن بالنسبة إلى النفس المفردة ، لا النفس الكلية أو الروح

المطلقة كما يقول هو . ولسنا بهذا نحمل على الذات المفردة ما نعت هو به الروح الكلية ، لأنه فضلاً عن أن هذه تجريد خالص لا حقيقة له في واقع الوجود ، بينا الذات المفردة حقيقة وجودية ، بل هي الوجود الواقعي الحق الوحيد أو الأصيل — ، نقول فضلاً عن هذا الفارق فتمت فارق آخر في مساق التطور ، فإن ديبالكتيك هيكل من شأنه أن يجعل حظ كلا حدى الديالكتيك : الموضوع ونقيض الموضوع ، واحداً في تحديد مجرى التطور . أما نحن فلا نضيف إلى مقابل تعالى ، وهو التهابط ، هذا المقدار من الفاعلية في التطور ، بل نقول بأن التهابط درجة موقته ، وإن كانت ضرورية ؛ ومركب الموضوع — وهو الصورة الجديدة في تعبيرنا — ليس حالة سكونية تحل فيها الذات ؛ بل هو كما قلنا صورة — بالمعنى الارستطالي الكامل — ، أى تحقيق لإمكان على نحو يتناسب وثراء هذا الإمكان .

ولذا نستطيع أن ننتع هذا تعالى بأنه تعالٍ كينى ، يتغير فيه مضمون الذات من لحظة إلى أخرى ، طالما كانت سائرة في طريق تحقيق الإمكان الذاتى . وظاهر من تحليل هذا تعالى أنه مُوجَّه ، أو بالأحرى ذو اتجاه ، واتجاهه نحو شيء ليس بعد ، أى لم يأت بعد ، تحاول الذات بلوغه . ومن هنا فهو يشبه الحب من هذه الناحية كذلك ، أعنى ناحية الزمانية : ففيه اتجاه نحو مستقبل لا نهائى يُراد غزوه على الدوام . فالآن الزمانى الرئيسى المكون للتعالى إذن هو المستقبل .

ولعل في هذا ما يعيننا على فهم طابع الزمانية بالنسبة إلى المقولة الثلاثية السابقة ، مقولة الطفرة . فإن الطفرة تعدُّ تهقراً بالنسبة إلى تعالى : إذ أننا في تعالى نقذف إمكانياتنا أمامنا ، وفي الطفرة نحاول أن نرتد من هذه المواقع الأمامية إلى مواقع خلفية هي التى علينا أن نغزوها ونؤثر فيها بالفعل ، وهذا الارتداد يتم بواسطة الطفرة ، لأنها كما قلنا الأصل في التأثير والفعل . فلا نتوهم إذن من مجرد لفظ الطفرة أن تمت وثوباً مقدماً إلى أمام قبل نزوع

إلى هذا الأمام على هيئة تعالى : ولذا فالطفرة متأخرة عن تعالى ، وهي بالتالى تمثل طابع الماضى بالنسبة إليه هو كمستقبل .

وهكذا نرى أن المقولات الثلاثية المكونة للإرادة تتصف بآنات الزمان الثلاثة : الخطر بالحاضر ، والطفرة بالماضى ، والتعالى بالمستقبل « كما رأينا من قبل تماماً فى حالة مقولات العاطفة حيث وجدنا الألم يعبر عن الآن الماضى ، والحب يشيع فيه آن المستقبل ، والقلق يكشف عن الحاضر غير القابل للتجزئة .

أما التهابط فيمكن أن يفهم على نحوين : سلبى وإيجابى . فالإيجابى هو القضاء على الصورة التى أحرزتها الذات فى درجة سابقة لكى يتبها السبيل أمام الصورة الجديدة . وواضح أن التهابط بهذا المعنى ضرورى لكى يحقق تعالى أهدافه ، والارتباط بينهما إذن لا يقبل انفصالاً ، ومركبهما المتوتر هو إذن الطابع الرئيسى للوجود الذاتى ، والتعالى التهابط إذن مقولة جوهرية للإرادة . أما السلبى فعائق يدفع الذات عن تعالى ، فتخلد إلى نوع من التقهقر ، مما يؤدى بها إلى الانحلال . وهذا من شر ما تصاب به الذات فى تحققها : إذ هو ينتهى إلى فراغ من التحقق ، وتعليق للإمكانات ، وانقطاع عن الفعل . ولا سبيل إلى إنقاذ الذات من هذا الانحلال إلا بالوحدة المتوترة ، تأتى فتنتشلها منه بأن تشيع فيها تعالى .

فالملاحظ إذن فى التهابط السلبى أن الوجود الذاتى يفقد فيه حقيقته ، ويصبح زائفاً . وهذا الجانب الزائف من الوجود الذاتى هو الذى غنى هيدجر بايضاحه كل العناية ، فى حديثه عن «السقوط» ، خصوصاً السقوط فى العالم بين «الناس» ، مما بيناه من قبل فى رسالتنا «مشكلة الموت» بالتفصيل . وما دام هيدجر قد وفاه حقه ، فلا مبرر إذن لسكى نبحت فيه من جديد . اللهم إلا أننا نلاحظ على تحليل هيدجر أنه مشوب بطابع الاستسلام الذى كشفنا عنه عنده من قبل ، مما جعله ينظر إلى هذا السقوط

وكأنه ضرورة لا مفر من الوقوع فيها ولا سبيل إلى الخلاص منها . وصحيح أن سقوط الوجود الذاتي في العالم بين « الناس » ضرورى ، ولكن هذه الضرورة لا تستلزم قطعاً تحمل كل النتائج التى تنشأ عنه والى بينها هيدجر بالتفصيل (١) ، حتى قال إنه حتى لو فرضنا بأنه لا توجد ذوات أخرى غير الذات الواحدة المفردة لحدث هذا السقوط : « فالوجود المتوحد للآنية هو أيضاً وجود مَعْيِيّ وسط وجود مَعْيِيّ ومن أجله » (ص ١٢٠)، أى أن وجود الذات وحدها هو أيضاً نوع من الوجود وسط الغير ومن أجل الغير . أما الضرورة فمصدرها أن تحقيق الإمكانيات لا يمكن أن يتم إلا في العالم، والوجود — في — العالم وجود معي ، أى مع الغير الذى تحقق به وله الذات ما تريد تحقيقه ، فلا بد لها إذن من السقوط وسط الغير . أما ما ينشأ عن ذلك من إفناء للذات في الناس إلى درجة أنها لا تفكر بعد إلا كما يفكر الناس ولا تفعل إلا وفقاً لما يفعل الناس ويستحيل الاستطلاع المفيد عندها إلى فضول ، وما يتلو ذلك من اشتراك وغموض ، كل هذا ليس من الضرورى أن تعانيه الذات من جراء هذا السقوط . بل إن في وسعها أن تعتصم بنفسها وتؤكد ذاتها في مقابل « الناس » ، وبذا تستطيع أن تفكر لنفسها ، وتفعل لنفسها ، وتشتاق لنفسها . ونحن بهذا إنما نريد أن نهب هذا الوجود الذاتى نوعاً من الديناميكية والقدرة على تحقيق ما تقتضيه الطبيعة الذاتية الخاصة والوجود الماهوى الخاص كذلك ، بدلا من الإخلاق إلى هذا السقوط وضرورته . وإن كنا مع ذلك نعرف بأن هذا الجانب الأسيان من مذهب هيدجر له ما يبرره كل التبرير . ماذا أقول ! بل لا يكاد الوجود أن يقدم لنا غيره . فهو وجودٌ أسيانٌ كُلُّه سقوط وإفساد للذاتية الحقة . ولكننا ، مع هذا الاعتراف ، لا نريد أن نستسلم كما فعل هيدجر ، بل نؤكد جانب التعالى إلى جانب السقوط والتهابط . لأن التعالى حال أو بالأحرى نزعة

وجودية للإرادة لا شك فيها ، وإذا كانت كذلك فليس في الوسع تغافلها ، بل هي مقولة ضرورية للإرادة في الوجود .

وبذا ينتهى بيان مقولات الإرادة . وهو بيان أو نظرنا فيه لانتبهنا إلى نفس النتائج الخمس التى استخلصناها من بيان مقولات العاطفة . ولا عجب فكلتاها تعبير عن وجه من وجهى الوجود : فالإرادة تعبر عن وجه القوة أو الوجود بوصفه قوة ، والعاطفة عن وجه الحال ، أو الوجود بوصفه حالاً ؛ والفارق بين القوة والحال أن القوة فعل والحال انفعال ؛ القوة لتحقيق الإمكان ، والحال للتحقق بالإمكان ؛ الحال تفهم الوجود ، والقوة تخلق ما ينتقل إلى التحقق في الوجود .

والوجود على هذا كيانوس ذى الوجهين : وجه العاطفة ، ووجه الإرادة . والشعور الحى به لا يتحقق إلا بإدراك الوجهين معاً حتى نحيا الوجود على جانبيه : السابى والإيجابى . وهذا إذن المصدر والملسكة اللذان بهما نعرف الوجود الحى معرفة وجودية حقيقية ، الوجود الذاتى ، لا الوجود الفزيائى ، فهذا الأخير يدرك بملسكة أخرى هى العقل . ولذا فان مقولات العقل ، تلك التى لم يعن الفلاسفة بغيرها حتى الآن ، لا يمكن أن تنطبق إلا على الوجود الفزيائى ؛ وهذا هو السر في إخفاق المذاهب الفلسفية السابقة في إدراك الوجود الحقيقى ، أى الذاتى . والعقل ميسر فعلاً لهذه الوظيفة وحدها كما أثبت ذلك برجسون ، ومن تلاه مثل مايرسون . ولكننا لا نقول مع برجسون إن الملكة الأخرى هى ما يسميه باسم intuition أو الغريزة ، لأن في هذا إحالة إلى مجهول من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليس من شأن intuition أو الغريزة أن نشعرنا بالوجود الحى كما عرضنا أحواله وقواه ، إذ لا يزال يحمل معنى الروبة ، وكأن ثمت موضوعاً خارجياً تتجه إليه الذات في الإدراك .

أما الملكة التى نقول بها والتى بينا مقولاتها فلسنا ندرى ما ذا نسميها . لأن اللغة العادية لغة عقلية ، تصد عن الحس والتجريد معاً ، وليس من شأن

مثل هذه الأداة للتعبير أن تعبر بدقة عن أحوال العاطفة والإرادة من حيث هي أحوال للوجود . ولعل خير لفظ يمكن أن نعبر به عنها هو كلمة « **وهمراه** » ، على أن نفهم هذه الكلمة بمعنى الملكة ذات المقولات التي بينها والتي بواسطتها نشعر بالوجود في أحواله العاطفية وقواه الإرادية بطريقة مباشرة . فالوجدان إذن هو الملكة التي نعاني بها الوجود بما هو عليه في نسيجه المتوتر على حال العاطفة وقوة الإرادة . وقد استعملنا كلمة «معاناة» لكي نزيل فكرة العيان والروية وندل على أننا هنا بازاء إدراك لا يتم إلا في تجربة حية مباشرة ، لا يراعى فيها نسبة بين ذات وموضوع ، بل استبطان مباشر من الذات لنفسها . وما يجعلنا نفضل كلمة «وجدان» هو أنها تصلح أيضاً أن تكون بمعنى الوجود ، وفي هذا ما يقرب كثيراً من التعبير الدقيق عن هذه التجربة الوجودية .

وأول ما يلاحظ على هذا التعريف أن هذه الملكة من شأنها أن تزيل مشكلة الذات والموضوع التي تحطمت بازائها روؤوس الباحثين في نظرية المعرفة . ولم تأت فكرة الإحالة المتبادلة التي قال بها هسرل بحل لهذه المشكلة ، وإن خطت في هذا السبيل خطوات واسعة ، بقولها -- توفيقاً بين المثالية والواقعية -- إن تمت إحالة متبادلة بين الذات وبين الموضوع ، فلا وجود للذات إلا من حيث كونها تحيل إلى موضوع ، ولا وجود للموضوع إلا من حيث كونه يحيل إلى الذات ؛ ثم لفهمها لهذه التجربة على أنها تتعلق بالماهيات الخالصة وبما هو متضمن في الماهية بطريقة قبلية وعلى نحو ضروري ضرورة غير مشروطة بشرط ، لا بارتباط بين واقعة نفسية وموجود خارجي في واقع موضوعي ؛ ثم أيضاً بتفرقتها بين الأفعال العقلية ذات الاتجاه الباطن والأخرى ذات الاتجاه العالى . والأولى هي التي يكون في جوهر تركيبها أن موضوعاتها المحال إليها « إذا كانت موجودة حقاً ، فإنها تنتسب إلى نفس تيار التجربة كهذه الأفعال عينها سواء بسواء ؛ والثانية هي الأفعال المتجهة نحو الماهيات ، أو نحو التجارب المحيلة إلى ذوات أخرى لها تيارات تجربة

أخرى ، وكذلك كل الأفعال المتجهة إلى الأشياء والوقائع بوجه عام (١) .
فع أنها قد سارت في سبيل رد التجارب الشعورية إلى الذات ، فلإنها لاتزال
مطبوعة بطابع تصورى مجرد واضح : ففكرة الماهيات تعود بنا إلى الصور
الأفلاطونية ، وهذا إمعان في التجريد ، مع أننا نريد الوصول إلى العيى
المتقوم قدر المستطاع ؛ ونصيب الموضوع كبير يكاد يتساوى مع نصيب
الذات ، إذ يحاول هسرل أن يرد إلى الأفعال الباطنة الاتجاه تلك العالية
الاتجاه ؛ والتجربة المحيلة ذات طابع عقلى واضح ، فلا تكاد العاطفة أن
تلعب فيها دوراً ظاهراً أو رئيسياً على الأقل .

اما نحن فنرفض هذه المشكلة على أساس أنها تتصل بالوجود الفزيائى
لا بالوجود الذاتى ، فلا معنى لها بالنسبة إلى هذا الأخير ، لأن التجربة فيه ،
إن كان بها إحالة ، وفيها فعلاً إحالة ، فتلك الإحالة من الذات إلى الذات ،
ولا معنى بعد للإلتسام إلى ذات وموضوع ؛ فضلاً عن أنها تجربة مباشرة ،
فيها يتم إدراك الذات نفسها بلا واسطة من صور حسية أو كليات . والواقع
أن الصور الحسية ، والكليات المركبة عنها ، لا مجال لها إلا حيث نفرق
بين داخل وخارج أو ذات وموضوع ؛ فلا مجال لها إذن فى إدراك الذات
لنفسها . والإدراك بواسطة الوجدان يتم وفقاً للمقولات الثماني عشرة التى
عرضناها ، بمعنى أن الوجود الذاتى يدرکه الوجدان على هذه الانحاء الثمانية
عشر ، وإليها يمكن أن ترد جميع الأحوال أو الأفعال التى يعانها هذا الوجود
الذاتى . والوجدان بهذا يكون عالماً للإدراك يختلف تماماً عن عالم الإدراك
الذى يكونه العقل . ولكن هل معنى هذا أن ثمت عالين للإدراك مستقلين
تمام الاستقلال ؟ كلا ، وإنما عالم الإدراك العقلى وسيلة فى خدمة عالم
الإدراك الوجدانى ، وبهذا المعنى نود أن نفهم ما ينسب إلى العقل من وظيفة
إيجاد الأدوات والآلات . فنحن نفهم هذا على أن العقل يختص عمله بالوجود

(١) راجع إدموند هسرل : « أفكار لتكوين ظاهريات خالصة وفلسفة ظاهرياتية »

٣٦ - ٣٨ . وراجع رسالتنا : « مشكلة الموت » ص ٧٧ - ص ٨٠ (من المخطوطة)

الفزيائى ، والوجود الذاتى يتحقق ما به من إمكانيات فى العالم ، أى فى الوجود الفزيائى بأن يتخذ من الأشياء أدوات للتحقيق ، فالفعل إذن هو الذى يصنع هذه الأدوات ، وهو من أجل هذا فى خدمة الوجود الذاتى ؛ فالعالم العقلى إذن مهياً لخدمة العالم الوجدانى . والخطأ الأكبر يأتى من جعل العبد سيدياً ، وهنا جعل العقل الحكم الأول فى كل وجود : فزيائى وذاتى على السواء . وهذا فى الواقع هو ما عمله الفلاسفة غير الوجوديين ممن أفنوا الذات فى الموضوع ، وحكموا العقل فى كل ميدان ، مما أفسد إدراك الوجود الحقيقى .

ولا يجب أن يفهم موقفنا من العقل على أنه موقف تحقير لشأنه . بل بالعكس تماماً . إنما نحن نريد التفرقة الدقيقة بين ميدانه وميدان غيره ، وليس فى هذه التفرقة مطلقاً أى معنى من معانى التقويم ؛ وكل ما هناك أننا نحول دون طغيانه على ميدان غيره ، ونلزمه حدوده التى ليس له أن يتعدها فى الإدراك . والأصل فى هذه التفرقة تفرقتنا الأولى بين الوجود الذاتى والوجود الفزيائى : فالأول ميدان الوجدان ، والثانى ميدان العقل . فليكن هذا تنبيهاً أولاً وأخيراً .

أما عن تحديد طبيعة الوجدان من الناحية الفسيولوجية ، وهل هناك حقاً ملكة قائمة بذاتها من هذا النوع — فأمر لا نحسبنا بحاجة إلى الخوض فيه . أولاً لأن تحديد المراكز العقلية جسمانياً قد ثبت أنه مستحيل ، وكل ما قيل فى هذا الصدد لا يتجاوز الاحساسات ، وفضلاً عن هذا فلا زال أمرها هى أيضاً من تحديد مراكزها محوطاً بكل غموض . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى الإحساسات ، وهى آثار لمؤثرات خارجية ، فما بالك بالوجدان وليس فيه تأثير من خارج على هذا النحو ! أما فكرة الملكات ففكرة عتيقة قد عُنِيَ عليها من زمان بعيد ، فلا معنى بعد هذا لإثارتها بالنسبة إلى الوجدان . ومنطق الوجدان منطق التوتر . ولذا نرفض مبدأ عدم التناقض الذى

يقوم عليه المنطق العقلي ، بالنسبة إلى الوجود الذاتي . لأن هذا المنطق العقلي لا ينطبق إلا على الوجود الفزيائي . ذلك أن العقل في بحثه الفزيائي يميل دائماً إلى نشدان الهوية في كل ما يتناوله ، كما أوضح ذلك إميل مايرسون (١) ومن هنا جعل مبدأ الهوية (أو الذاتية كما يترجم أحياناً) أو عدم التناقض المعيار لكل تقويم منطقي . ومن الواضح أن هذا المبدأ قد أخفق في كل ما يدخله الزمان ، ولم ينجح خصوصاً إلا في العلوم الخارجة عن الزمان ، وعلى رأسها الرياضيات ؛ ولهذا سعت العلوم الفزيائية إلى التشبه بها وصوغ قوانينها في صيغ رياضية ، لكي ينطبق هذا المبدأ على حقائقها . وهذا قد أدى في الواقع إلى إفساد العلوم الفزيائية وبُعدها عن تصوير الواقع المتغير مما بينه نقدة العلم مثل هونكاريه ودوهم وإدوار لوروا ، على اختلاف في وجهة النظر . والعلة في هذا أن مبدأ الهوية أو الذاتية لا ينطبق ، ولا يمكن أن ينطبق ، إلا على الأشياء التي لا يدخلها الزمان ، فما دمنا نحسب للزمان حساباً في العلوم الفزيائية فلا سبيل إلى اتخاذ هذا المنطق القائم عليه في إدراك الواقع . وإذا كان هيجل قد خطا خطوة واسعة في سبيل وضع منطق يقوم على التقابل ، فإن اتجاهه العقلي قد جعله ينشد نوعاً من الهوية وعدم التناقض ، بما عبر عنه في فكرة « الرفع » التي بينا أنها الفكرة السائدة عنده ، ونقدناها في الفصل الأول على أساس أنها تناقض مبدأ الديالكتيك لديه هو نفسه .

أما المنطق الذي نقول به فلا يقول برفع مطلقاً ، بل بالعكس : يحتفظ للتقابل بكل حدته وتوتره ؛ ولذا فضلنا تسميته باسم « منطق التوتر » . وتبعاً لهذا فإن المقولة الثالثة من كل ثالوث مقولات ، أي وحدة التوتر ، هي المعيار الأصلي والمبدأ الرئيسي الذي يقوم عليه هذا المنطق الجديد .

وليس المجال هنا مجال تفصيل هذا المنطق وكيف يدرك على أساسه الوجود

(١) إميل مايرسون : « الهوية والواقع » ، خصوصاً ص ٣٧ ، ص ٣٢٢ ، باريس سنة ١٩٣٢ ؛ ثم « سلوك الفكر » ، §§ ٤٢٣ ، ٣١٧ .

الذاتى ؛ وما أقسامه ونتائجها التى نتوقع منها أن تكشف لنا عن طبيعة هذا الوجود الذاتى كما هى فى حقيقتها وواقعها . فهذا بحث نرجو أن نقوم به قسماً من أقسام مذهبنا فى الوجود ، هذا المذهب الذى لا نعرض هنا فى هذا البحث غير مقدماته والخطوط الرئيسية العامة التى يتسم بها ، بعد أن عرضنا فى « مشكلة الموت » أصوله التاريخية . وإلى أن يتم هذا البحث فى المنطق الجديد ، نجتزئ بذكر الأصول العامة التى يقوم عليها .

أول هذه الأصول أن الزمان عنصر جوهرى مقوم للوجود ؛ فيجب بالتالى أن يكون داخلاً فى التقويم المنطقى للحقيقة الوجودية . والزمان معناه التناهى ؛ والتناهى يعبر عنه العدم ؛ والعدم كما قلنا عنصر مكوّن للوجود منذ كينونته ، فهو داخلٌ إذن فى تركيبه الجوهري . فالمنطق لا بد أن يقوم إذن على أصل آخر وإن كان ذلك نتيجة للأصل الأول ، ألا وهو الزمان ، حتى ليكن أن يعدا شيئاً واحداً ؛ والعدم معناه اللاوجود — وإن كان ذلك بالمعنى الإيجابى — ، فإذا كان إذن عنصراً مكوناً لجوهر الوجود ، فالوجود واللاوجود إذن لا يفسّران بالنسبة إلى كل ما هو متحقق فى الوجود العيني . واتحاد الوجود واللاوجود فى موضوع واحد هو مانسميه بالتوتر . والتوتر إذن هو طابع الوجود الذاتى . ولذا كان منطق هذا الوجود منطق التوتر .

والتوتر إذن نقيض الهوية : لأن هذه تنشأ المتساوى والمؤتلف ، والتوتر يقصد اللامتساوى والمختلف . ذلك أن منطق الهوية يميل إلى جعل الصلة بين الموضوع والمحمول صلة مساواة أو ما يقرب منها ، مما وجد صورته العليا فى المنطق الرياضى الذى أحال القضايا الحملية إلى نسبٍ للتساوى (أو اللاتساوى فى القضايا السالبة) ؛ ولم يكن فى وسعه فى الواقع أن ينتهى إلى غير هذا المنطق الرياضى ، ما دام المبدأ الذى يقوم عليه هو الهوية ، وهو مبدأ كما قلنا تقوم عليه الرياضيات : فهو إذن نتيجة طبيعية لوضع المنطق

على أساس هذا المبدأ . والمحاولات التي قام بها بعض الفلاسفة المعنيين بالمنطق من أجل بيان ماهية الحمل في القضية قد أخفقت كلها في إدراكها لأنها ابتدأت من نفس المقدمة ، أعني مبدأ الهوية (أو الذاتية) ، وحاولت على أساسها أن تصل إلى تفسير الحمل الواقعي ، لا ذلك الحمل المجرد الموجود خصوصاً في الرياضيات . ولعل أشهر هذه المحاولات محاولة كَنْتْ ، التي انتهت به إلى التفرقة بين قضايا تحليلية وقضايا تركيبية ؛ والأولى هي التي لا تحتاج إلا إلى مبدأ الهوية أو عدم التناقض ، أما الثانية فتحتاج إلى مبدأ آخر (١) . أما ما هو هذا المبدأ « الآخر » فلم يستطع كَنْت أن يبينه ، فاكتمى بأن قال إن هناك مصدراً هو التجربة أو المعرفة القبلية منه نستمد هذه الأحكام ، دون أن يدلنا على « مبدأ » تقوم عليه . وبهذا كان لكنت الفضل في إحداث أزمة في مسألة الحمل المنطقي ؛ ولكنه لم يستطع أن يحلها ، وما كان في وسعه ذلك ، لأنه ظل ينظر إلى المنطق على أساس أنه يقوم بالضرورة في أصله على فكرة الهوية ومبدأ عدم التناقض . أما نحن فنستطيع أن نحل المشكلة ، بالنسبة إلى المنطق الوجودي ، على أساس القول بمبدأ التوتر بحسبانه مبدأ المنطق الوجودي . والحمل في القضايا الوجودية — التي تقرب مما يسميه كَنْت القضايا التركيبية — يقوم إذن على التوتر ، بمعنى أنه : نسبة جامعة بين طرفي الوجود واللاوجود . وبهذا التعريف الجديد لمعنى الحمل نحل مشكلته التي أثارها السوفسطائيون بكل وضوح ضد الإيليين ، ولم تستطع المذاهب التالية عند أفلاطون وأرسطو ، ولا في العصر الحديث أن تحلها ، لأنها استمرت على القول بمبدأ الهوية .

ولنتعمق قليلاً معنى الحمل كما عرفناه هنا ، حتى نستخلص بعض النتائج العامة التي سنصل إليها عن طريق منطق التوتر . لقد قلنا إنه نسبة جامعة بين طرفي الوجود واللاوجود ، ولنوضح هذا قائلين أولاً إنه يجب ألا يفهم من

(١) راجع خصوصاً : « مقدمة إلى كل ميتافيزيقا مستقبلية » §§ ٢ ، ٣ .

ص ١٤ — ص ٢٢ ، نشرة فورليندر ، ليبتيغ سنة ١٩٢١ .

قولنا « بين طرفين » أن هذين هما الموضوع والمحمول كما يفهمهما المنطق العقلى : إذ نحن لا نجزئ الحكم إلى حدود منفصلة نربط بينها برابطة . بل الحكم عندنا : فعل واحد ، يعبر عن وحدة ، هى الحال الوجودية . والخطأ الأكبر الذى وقع فيه المنطق العقلى هو أنه جعل الحكم أجزاء ، وزعم بالتالى أن تمت شيئاً « يضاف » إلى آخر ؛ ومن مجرد الإضافة يتركب كائن أو موجود أو صفة وجودية الخ ؛ فمثلاً بإضافة المنطق إلى الحيوانية يتكون الإنسان . ونظن أنه لا شئ أبعد عن تصوير الواقع من مثل هذا الحكم : إذ الموجود أو الصفة الوجودية ليس مجموعة مقادير يضاف بعضها إلى بعض ليتكون منها شئ ، وإلا لكان فى ذلك أوهامٌ عدة ، أولها أن الجمع لا يتم فى الرياضيات إلا بين وحدات من نوع واحد ، ونحن هنا نضيف مقادير من أنواع مختلفة ، لأن الحيوانية غير المنطق من حيث النوع . فحتى من وجهة نظر الرياضيات - التى اتخذوها هنا نموذجهم فى فهم القضايا أياً كانت - لا يصح هذا الجمع . وثانيها أن جمع الأشياء لا يتكون عنه مركب جديد يختلف عن الأصل فى جوهره ، بينما نحن نرى هنا أن الإنسان يختلف فى جوهره عن الحيوان وعن النطق ، فأى جمع بينهما لن يودى بنا إلى مفهوم الإنسان . ولعل هذا هو الذى أثار بعض المناطقة المعاصرين على نظرية الحكم كما عرضها المنطق التقليدى ، وجعلته يقول إن الحكم عملية واحدة أولية وليست مركبة من تصورات ، بل التصورات هى التى تتركب من أحكام . فى هذا شعور منهم بأن تصور الحكم على أنه عملية جمع مقادير ، هى هنا التصورات ، تصور خطأ شنيع الخطأ . ولكنه خطأ مفهوم من وجهة نظر المنطق القائم على مبدأ الهوية ، لأن الأمر قد انحل عنده إلى مقادير ، وصار النموذج الأعلى عنده الوجود الرياضى . وإذا كان الأمر هكذا ، فلم لا يتصور الحكم على هذا النحو ؟ والواقع أن من أدركوا خطأ هذا التصور لم يستطيعوا أن يعللوا السرفيه ، وعلى أى أساس قالوا بتعريفهم الجديد للحكم . أما نحن فنستطيع بسهولة أن نعلل الخطأ على أساس مبدأ التوتر . فالتوتر لا يتكون بالإضافة والجمع ، وإنما هو حال واحدة يلبسها الوجود

دفعه واحدة ، أو هو تركيب (لا من أجزاء) واحد هو والبساطة سيان من حيث عدم التجزئة ، أو بعبارة أدق من هذا كله : هو وحدة من الوجود واللاوجود لا تقبل التجزئة بحال . ولا يجدى الخصوم نقعاً أن يقولوا إن القسمة هنا عقلية ، لأنه إما أن تدل على معنى ، وذلك لن يكون إلا بأن تمت أجزاء بالفعل ، وإما أن لا تدل على معنى ، فتكون تناقضاً في الحدود لا مبرر له .

وإلى جانب القول بالوحدة في الحكم ، يقول لنا تعريفنا للحمل إنه نسبة من الوجود واللاوجود . فما معنى هذا ؟

إن اللاوجود أو العدم كما رأينا من قبل هو الشرط الضروري للتحقق ، والتحقق هو الانتقال من الإمكان الى الواقع ، أو من القوة الى الفعل ، والفعل هو إيجاد شيء لم يكن ، وهذا هو الخلق . وعلى ضوء هذا نستطيع أن نفهم وظيفة الحمل : فإذا كان التحقق مزيجاً من الوجود واللاوجود ، والتحقق هو الفعل ، والفعل هو الخلق ، فإن الحمل إذن هو التحقق منظوراً إليه من ناحية القول أو اللوغوس ؛ وعلى هذا فإنه لما كان التحقق خلقاً ، فالحمل يدل على الخلق ، أو بعبارة أخرى يتضمن الجدة ، لأن الجدة ليس لها معنى آخر غير الخلق ، والنتيجة لهذا إذن أن الحكم تعبير عن جدّة في الوجود . وهذا هو المعنى الذى فهم به كُنْتُ القضايا التركيبية ، وإن كان ذلك بطريقة غامضة ناقصة دون أن يستطيع تفسير الأصل في هذه الجدة كما لاحظنا من قبل .

وبفكرة الجدة هذه نستطيع أن ننقد المنطق من تحصيل الحاصل الذى تردى فيه حتى الآن . فأحكامه التحليلية لم تكن في الواقع غير تكرار عابث وتحصيل حاصل مستمر ، ولهذا كان يدور على نفسه باستمرار دون أن يستطيع الخروج من دائرة الفكر المجرد والتصورات الخالصة الى دائرة الوجود والواقع ، مما كان سبباً في الحملات الغيفة التى وجهت ضده ، وخصوصاً فيما يتصل بالأحكام والاقيسة . فالأولى اتهمت بتحصيل الحاصل ،

والثانية بالدور ؛ والمدلول واحد وإن اختلفت التسمية بحسب اختلاف الأحكام عن الأقيسة . أما بنظريتنا هذه « وبوضع المنطق على مبدأ التوتر فإن في الوسع أن نفسر الأحكام على أنها تتضمن جدة ، وكذلك القياس . ومسألة اتفاق الفكر مع نفسه ، وهى مسألة المنطق العقلى كله ، يجب إذن أن نلغيها ، ونستبدل بها مسألة أخرى هى **توتر الوجود مع ذاته الخالقة باستمرار** .

وتبعاً لهذا نقسم نحن الأحكام إلى نوعين : أحكام وجودية ، وأحكام هوية ، وهو تقسيم قد يشابه تقسيم كنت إلى أحكام تركيبية وأخرى تحليلية . فالأحكام الهوية هى القائمة على مبدأ الهوية التى لا تقوم فيها بأكثر من نسبة صفة إلى موضوع يتصف بهذه الصفة وتقيضها ، فعملية الحكم هنا عملية عزل للصفات الداخلة فى مفهوم الموضوع لإبرازها فى منطق . ولا قيمة لهذه العملية من الناحية الوجودية لأنها لا تأتينا بجديد يدلنا على توتر وجودى ، إنما قيمتها من الناحية العقلية أو اللغوية فحسب ، وكوسيلة لفض ما فى دخل المفهوم الرموز له بلفظ : ولذا كان نوعاً من التحليل العقلى أو اللغوى لا أكثر ، ومن هنا أصاب كنت فى تسميته باسم الأحكام التحليلية . أما الأحكام الوجودية فهى المعبرة عن واقع أو حال يكون فيها الوجودُ دفعةً واحدةً ، وكأنه مكوّنٌ لوحدةٍ هى حاله فى لحظة ما من الزمان .

غير أن هذا التقسيم ليس تقسيماً إلى شطرين منفصلين ينتسب إلى كل منهما قدرٌ معين من الأحكام . وإنما هو تقسيم لوجهة النظر إلى حكم واحد بعينه : فإذا نظر إليه من الناحية الوجودية كان حكماً وجودياً ، ومن الناحية العقلية كان هوباً . فإذا قلنا مثلاً سقراط فان ، ونظرنا إلى الحكم من الناحية الوجودية فهمناه على أن حالة الفناء حال وجودية أو تركيب وجودى لسقراط . والأمر يتوقف بعدُ على زمانية الحكم من حيث تعيين مدى هذا الفناء . ولذا فإننا نقسم الأحكام من الناحية الوجودية من حيث « الزمانية » ، بدلا من تقسيمها

في المنطق العقلى من حيث الجهة . وعلى هذا تنقسم الأحكام الوجودية من حيث الزمانية إلى ثلاثة أقسام : أحكام حضور ، ومُضَيّ ، واستقبال ، وهذا التقسيم يوازى شيئاً ما تقسيم كُنْتُ للجهة أو الكيفية : فالواقعية تناظر الحضور ، والضرورة تناظر المُضَيّ ، والإمكان يناظر الاستقبال . ولكن هذا التشابه ظاهرى غير مقصود : لأن الواقعية عند كُنْتُ واقعية عقلية ، بينما الحضور عندنا وجودى يدل على كون الأشياء متحققة بالفعل . والأمـر كذلك بالنسبة إلى كل من الضرورة والمضى أو الإمكان والاستقبال . إذ المضى معناه هنا أن شيئاً ممكناً قد تم تحقّقه ولم يعد بعد حاضراً . والاستقبال يدل على إمكانية لم يأن بعد تحقّقها . وهذا واضحٌ لبيان الفارق الهائل بين ما نقصده نحن وما يقصده كنت .

ومن الجلى تبعاً لهذا إذن أن الصلة بين الموضوع والمحمول ليست صلة تداخل أو تضمن كما يقول المنطق العقلى . فهذا لا يمكن أن يقال إلا بالنسبة إلى تلك النظرة إلى كل من الموضوع والمحمول على أنه مجموعة أفراد أو صفات يندرج تحتها شيء ما ، وهى نظرة كمية ، ولذا كان هاملتون على صواب فى قوله بهكم المحمول ، تبعاً لهذه النظرة . إذ لا معنى مطلقاً لتفرقة بين الموضوع والمحمول من هذه الناحية ، ما دمت تنظر إلى الأول على أنه مجموعة من أفراد أو صفات ، خصوصاً إذا لا حظنا أنه يكاد من الممكن دائماً أن يحل أحدهما محل الآخر ، بمعنى أن أى موضوع قد يصلح أن يكون محمولاً ، كما أن أى محمول قد يصلح أن يكون موضوعاً ؛ وكأن الأمر يتوقف إذن عند خصوص هذه النظرية ، نظرية كم المحمول ، على شيء عرضى لا صلة له إطلاقاً بالوجود هو وضع أحد الحدين بالنسبة إلى الآخر فى القضية . ومن الواضح أن هذا الوضع مسألة لغوية أكثر منها أى شيء آخر ، وبالأحرى لا تتصل بالناحية الوجودية أدنى اتصال .

إنما الصلة فى نظرنا صلة وحدة متوترة تمثل حالاً واحدة للوجود ليس فيها أى معنى من معانى الكم . فالصلة بين "سقراط" وبين "فان" فى المثال السابق

صلة حال وجودية فيها سقراط بوصفه موجوداً متصفاً بها ، واتصافه بها ليس زائداً على ذاته ، بسـل صفة من عين ماهيته . فالصلة إذن بين الموضوع والمحمول هي صلة اتصاف بحال وجودية يكون فيها الموضوع ، ويعبر عن مدلولها المحمول . ولكن الحكم على هذا النحو ناقص ، لخلوه من الزمانية ؛ ولذا يجب أن نتمه قائلين : سقراط فانٍ حاضراً ، أو ماضياً ، أو مستقبلاً ، وفقاً للأحوال : فحين وفاته مباشرة نقول إن : سقراط فانٍ حاضراً ، وبعد وفاته نقول : سقراط فانٍ ماضياً ، وقبل وفاته وإبان حياته نقول : سقراط فانٍ مستقبلاً . وهذه الزمانية ملحوظة في كل حكم ، وإن لم تكن دائماً ملفوظة ؛ ولا معنى مطلقاً لاستبعادها ، إذ سيكون الحكم حينئذ ناقصاً غير مفهوم بوضوح ، بل وأكثر من هذا لن يكون خليقاً بعد باسم الحكم الوجودي ، لأنه لا يعبر عن حال وجودية للذات ، وفي هذا تجريد يفهم من الناحية العقلية ، ولكنه لا يقبل من الناحية الوجودية . إذ كل وجود يقتضي الزمان ، ولا بد أن يكون مكيفاً بأن من آتاته ، أما الأحكام غير المكيفة بزمان ، مثل الأحكام الرياضية ، فليست أحكاماً وجودية إطلاقاً ، بل هي كما قلنا من قبل أحكام هوية مجردة عن الوجود .

أما تقسيم القضية من حيث الكم فلا يعنى الأحكام الوجودية في شيء ، لأن هذه لا تنظر كما قلنا إلى الموضوع أو المحمول أنه ذو كم . والواقع أن التقسيم من حيث الكم لا يفهم إلا بالنسبة إلى الأحكام الهوية التي تنظر إلى الحدود على أنها مجموعات من صفات أو أفراد ، والمسألة بعد مسألة إحصائية لا تتعلق بالوجود ، فلا معنى للحديث عنها بالنسبة إلى القضايا أو الأحكام الوجودية . وبالتالي لا مجال للتحدث عن الاستغراق ، إذ هو متصل بالكم وحده .

ولكن الأمر على غير هذا بالنسبة إلى التقسيم الثالث للأحكام ، أعنى من حيث الكيف . فإن فكرة السلب فكرة رئيسية في شرح الوجود ، وهي التعبير اللفظي أو العقلي عن العدم الذي قلنا عنه إنه عنصر جوهرى مقوم

للوجود منذ كينونته . ولكننا نعطي للسلب معنى أعمق وأخصب مما يقصده منه المنطق العقلي . إذ هو ينظر إليه على أنه مجرد عدم التوافق بين المحمول والموضوع . أما منطق التوتر فيفهمه أولاً على أن كل وجود تنقصه إمكانيات لم تتحقق ، وهذا النقص يعبر عنه بحكم سلبى . فإذا قلنا مثلاً : سقراط ليس طبيياً ، فعنى هذا أن تمت إمكانية هى الطب لم تتحقق بالنسبة إلى سقراط ، وتحققت بدلاً منها فلسفة مثلاً ، فكان فيلسوفاً لا طبيياً . فهنا إذن نقص فى التحقيق ، وهذا النقص هو العدم ، والعدم يعبر عنه بالسلب فى الأحكام . وعدم التحقق إما أن يكون مطلقاً أو مقيداً : فالمطلق هو الذى ينشأ عن استحالة الاتصاف بالحال الوجودية من جانب الموضوع لأن ماهيته ليس من بين إمكانياتها هذا الشيء ، كما نقول مثلاً : سقراط ليس حجراً ؛ والمقيد هو الصادر عن التقيد بوصف وجودى دون آخر ، وكان من الممكن أن يتصف بهما معاً ، لأنهما إمكانيتان له كما فى قولنا السابق : سقراط ليس طبيياً ، فإن الطب بالنسبة إلى سقراط إمكانية ، ولكنها إمكانية لم تتحقق . ولذا نستطيع أن نقسم السلب الوجودى إلى سلب مطلق ، هو للدال على استحالة الوصف بالنسبة إلى الوجود الماهوى للذات المعنية ؛ وسلب مقيد ، هو الدال على الإمكانية غير المتحققة . وهذا السلب المقيد هو التحذير بالعناية حقاً . وهو السلب الوجودى بمعنى الكلمة ، لذا يخلق بنا أن نحله شيئاً . فنقول إن هذا السلب المقيد لا بد أن يكون مكيفاً بزمان ، إذ لا يمكن إطلاقه من الزمان كما هى الحال فى السلب المطلق الذى قلنا عنه من أجل هذا إنه ليس وجودياً بمعنى الكلمة . ذلك أن السلب للإمكان إما أن يكون بالنسبة إلى الماضى ، أو إلى الحاضر ، أو المستقبل . فإذا قلنا مثلاً إبان حياة سقراط : سقراط ليس طبيياً ، فهذا مفهوم بالنسبة إلى الماضى والحاضر ، ولكنه لا ينطبق على المستقبل ، فن يدرى لعله أن يصبح بعد طبيياً . وإذا قلنا عن طبيب كف عن مزاوله المهنة حالياً : إنه ليس طبيياً (بعد) ، فإن السلب يتعلق بالحضور وحده ؛ وإذا قلنا عن سقراط أو هذا الطبيب بعد أن ماتا :

إنهما ليس طبييين ، فهذا السلب يتصل بالمستقبل وحده بالنسبة إلى الطبيب . ويتعلق بالمستقبل والماضي بالنسبة إلى سقراط ، والحاضر والمستقبل بالنسبة إلى كليهما معا . فعلينا إذن في بيان مفهوم السلب وتقسيم القضية أو الحكم من حيث السلب أن نراعى هذه الزمانية ، التي بغيرها لا يكون الحكم وجودياً حقاً . ولذا فنحن نرى من الخير أن تذكر الزمانية صراحة في منطوق الأحكام حتى تكون كاملة التعبير الوجودي . ونظن أن تحليل السلب على هذا الوجه فيه إيضاح كاف لوظيفته ، وإزالة للإشكالات العديدة التي أثارها المنطق العقلي حوله دون جدوى .

والسلب عندنا ليس مجرد نفي للتعين خالص ، كما يزعم المنطق العقلي ؛ إنما هو في مرتبة من التعين لا تقل عن مرتبة الإيجاب كثيراً ، إن لم تكن تساويها . فكنت مثلاً يزعم أنه « ليس في وسع امرئ أن يفكر في السلب متعيناً ، إلا إذا أقام ذلك على المقابل الإيجابي له . فالذين ولدوا عمياناً لا يمكن أن تكون لديهم أية فكرة عن الظلمة ، لأنه ليست لديهم أية فكرة عن النور . والمتوحش لا يعرف شيئاً عن الفقر ، لأنه لا يدري ما الثراء . والجهال ليس عندهم أى تصور لجهلهم ، لأنه ليس لديهم أى تصور للمعرفة ، الخ . وعلى هذا فكل التصورات السالبة مشتقة ؛ والوقائع (أى الإيجابيات) هي التي تحتوى على المعلومات أو المادة إن صح هذا التعبير ، أو المضمون المتعالى ، لإمكان تعين الأشياء تعيناً كاملاً . » (١) ولكن هذا غير صحيح إذا كان الأمر منظوراً إليه من ناحية واحدة ، أى من ناحية أن الظلمة والفقر والجهل لا تدرك إلا بأضدادها ، بينما هذه الأضداد تدرك بذاتها . فالواقع أنه لا واحد منها ولا مضاده يمكن أن يدرك مستقلاً عن الآخر . فكما أن الفقر لا يدرك إلا بالثراء ، فكذلك الثراء لا يدرك إلا بالفقر ، ولا معنى للثراء في ذاته . والأمر كذلك في بقية الأمثلة التي أوردها . فعلى أى شيء

(١) كنت : « نقد العقل المجرد » ، ط ١ ، ٥٧٥ = ط ب ، ٦٠٣ .

يدل هذا ؟ على أن مرتبة السلب كمرتبة الإيجاب في التعيين سواء بسواء ، وعلى أنه ليس بصحيح إذن أن أحدهما مشتق والآخر أصيل .

وشرح هذا من الناحية الوجودية يسير . إذ الوجود كما قلنا نسيج الأضداد ؛ والمتقابلات تكون وحدات لا انفصام فيها بين الضد والآخر ، والتجريد وحده هو الذي يجعلنا نغزل ضدًا عن ضده ؛ أما واقع الوجود فلا يسمح بشيء من هذا على الإطلاق . وقولي "سقراط ليس طبيياً" ، فيه من التعيين الوجودي بقدر ما في قولي : "سقراط فيلسوف" ، لأن الأمر يتوقف كله على سؤال السائل : فإن كان يريد أن يعرف صلة سقراط بالطب ، كان الجواب له : سقراط ليس طبيياً ؛ وإذا كان ينبغي أن يعلم صلة سقراط بالفلسفة ، فالجواب : سقراط فيلسوف . وكل حكم أو قضية فلا بد أن يكون جواباً عن سؤال موضوع أو مفترض وضعه . وفي كلتا الحالتين سقراط قد تعين وجودياً : وفي وسعي بعد أن أقيم من النتائج الوجودية ما يتفق وهذا الحكم . فكأن السلب والإيجاب إذن تعبيران مختلفان عن شيء واحد ، هو طبيعة الشيء المسئول عنه ، وكلاهما على درجة واحدة من الحقيقة الوجودية بالنسبة إلى هذه الطبيعة . فلا محل بعد هذا للحل الواحد أصلاً والآخر مشتقاً . والواقع أن كل إيجاب جواب عن سلب ، وكل سلب جواب عن إيجاب ؛ إنما الإيجاز في التعبير ، وما طبع عليه الفكر الإنساني من رغبة في الاقتصاد في التعبير والفكر معاً ، هو الذي يجعلنا لا نصرح بالسؤال في كلتا الحالتين ، وإن كنا نميل - لسبب لا أساس له من ناحية الوجود - أن نصور الأمر وكأن السلب لا يقوم إلا على أساس إيجاب ، والعكس ليس كذلك ، مع أن الأمر واحد تماماً في كلا الحالين . أما الأصل في هذا الميل فيمكن أن نرده إلى طبيعة العقل والمنطق العقلي من حيث قيامهما على مبدأ الهوية ، إذ أن هذا المبدأ ينحو نحو الهوية ويتجنب الاختلاف ، والسلب تعبير عن اختلاف ، ولذا يحاول تجنب السلب بأن يرده إلى الإيجاب المعبر عن الهوية ، زاعماً ، أو متوهماً ، أن في هذا نقصاً لقدر السلب من الناحية الوجودية ، وهو وهم لا يقوم على أي أساس من تلك الناحية .

ومن الواضح بعد هذا أن الاستدلال ، خصوصاً القياسى منه ، يجب أن ينظر إليه بنظرة أخرى ، إن كان لنا بعدُ الحَقُّ في الإبقاء عليه كما وضعه المنطق العقلى . فإن مبدأ القياس بحسب هذا المنطق هو أن ما يحمل على الكل يحمل على الجزء الداخِل تحتَه ، وبالطريقة عينها ، أى سلباً أو إيجاباً . ولكننا قد استبعدنا فكرة الكلية والجزئية من الناحية الوجودية ، فليس في الوسع بعدُ الأخذ بالقياس قائماً على هذا المبدأ. والمبادئ الأخرى التى وضعت له ، كتلك التى وضعها كنت وهاملتون ، لا تختلف هوجه عام عن هذا المبدأ . والعلة في هذا أن القياس قد أخذ نموذجَه من البراهين الرياضية الخاصة بالمساواة في صورتها العليا : $1 = 1$ ، $2 = 2$ ، $3 = 3$ ، $...$. ومن هنا أمكن أن تصاغ أشكال الأقيسة على أساسى رياضى ، مما يسدو ظاهراً من إمكان التعبير عنها بأشكال هندسية . بل إن اسم القياس مأخوذ من الرياضة في اليونانية ، إذ معنى الكلمة *συλλογισμός* في هذه اللغة : « العَد ، الحساب ، الجمع » . فلما كان الوجود الحقيقى أبعد ما يكون عن عالم الرياضة ، فن الواضح أنه ليس في الوسع الأخذ ، في المنطق الوجودى ، بنظرية القياس هاتيك . وفي هذا تفسير لما لاحظته نقاد القياس ، من أنه يدور حول نفسه ، كما في الرياضيات تماماً ، ومن أنه لا صلة له بالواقع الوجودى ، وإن كان هذا النقد يقوم على أساس فكرة عن الوجود تختلف عن فكرتنا نحن هنا .

ومن هذا العرض الإجمالى العام لبعض النتائج التى سيأتى بها المنطق الوجودى الذى ندعو إلى إيجاده يتبين لنا أن ثمت فارقاً هائلاً بين هذا المنطق والمنطق العقلى وأنه وإن شابه في الظاهر بعضاً من المحاولات التى قامت لإيجاد منطق وجودى ، وعلى رأسها محاولة هيجل الرائعة ، فإن الفارق لا يزال أيضاً كبيراً بين هذه المحاولات وما ندعو إليه . وهذا لأن العامل الأساسى الأكبر في تكوين هذا المنطق الوجودى الذى نريد إيجاده هو فكرة الزمان ؛ وقد رأينا بإيجاز كيف أن الزمانية يجب أن تدخل في كل تقسيم للأحكام ، وأن يعبر عنها صراحة أو يفهم وجودها ضمناً ويحسب له كل حساب . وأنواع المنطق التى

وضعت حتى الآن - ابتداء من منطق أرسطو حتى منطق هيجل والمنطق الرياضي المعاصر - لم تحسب للزمان أى حساب ، ومن هنا كان إخفاؤها فى الانطباق على الوجود ، لأن الوجود يقتضى الزمان عنصراً مكوّناً لجوهره فإذا استبعدناه من المنطق ، فقد استبعدنا انطباق هذا المنطق على الوجود الحقيقى . ولا أدلّ على استبعادهم للزمان من وضعهم للمنطق على أساس الرياضة ، مع أن الرياضة تجريد صرف ، لا تتعين بالزمان إطلاقاً ، بل تطرده من كل ما يخضع لها . فهل من عجب بعد هذا أن يخفق هذا المنطق كل هذا الإخفاق الشنيع فى الانطباق على الواقع ؟

فبإدخال الزمانية فى المنطق ندخل التوتر والخلق : التوتر لأنه الجمع بين السلب والإيجاب ، والسلب معناه الوجودى العدم ، والعدم مصدره التناهى ، والتناهى أصله الزمان ، فالسلب ناشئ إذن عن الزمان ، والعدم أيضاً شرط التحقق فى الوجود ، لأن التعين لا يتم إلا بالسلب والتحديد ، وهذا هو العدم ، فالعدم إذن شرط للإيجاب ، والتوتر إذن ناشئ عن الزمان . أما الخلق فلأن الزمان أصل العدم ، والعدم شرط الوجود ، فالزمان إذن أصل لشرط الوجود ، والوجود هنا تحقيق الإمكان ، والتحقيق فعل ، فالوجود ، بهذا ، فعل ؛ والفعل خلق ، لأنه نقل للإمكان إلى الواقع ، ففيه إيجاد فى الواقع لشيء كان ممكناً ولكنه لم يكن واقعاً ، وإذن الوجود خلق ؛ وإذن الزمان أصل لشرط الخلق ، وفى كلمة واحدة : الزمان خالق ، أو بعبارة أدق فاعل فى إحداث فعل الخلق وشرط لتحقيقه ، وهو هكذا من حيث كونه أصل العدم ، أى أصل التناهى . فالزمان بوصفه تناهياً إذن خلاق ، أو بعبارة أخرى ، التناهى ، ومصدره الزمان ، خالق .

وهنا نصل إلى النقطة الحاسمة فى مذهبنا الوجودى . فقد تبين لنا من كل ما عرضناه ، سواء فى المقولات وفى المنطق ، أن الزمانية عامل جوهرى فى تكوين الوجود منظوراً إليه من هذه النواحي ، وعلى أساسها حاولنا أن نفسر

أحوال الوجود . وفى خلال هذا كله ربطناها بفكرتين : التوتر ، والخلق ؛ وفى الفقرة السابقة مباشرة أوضحنا العلة الوجودية لهذا الربط بين تلك الأفكار الثلاث . أما التوتر فقد كشفنا عنه بما فيه الكفاية فيما نظن ، وبالنسبة إلى غرضنا من هذا البحث ، وبقي علينا أن ننتعمق معنى الخلق فى ارتباطه بالزمان .

والناس قد أدركوا من قديم الزمان أن العدم هو مَعْقِد الصلة بين الزمان وبين الخلق ، وإن كانوا فهموا المسألة على أنحاء مختلفة بكل الاختلاف ، يمكن مع هذا أن ترد فى النهاية إلى اثنين : النظرة الفلسفية (اليونانية) ، والنظرة الدينية . أما الأولى فترى أن العدم ليس معناه الخاوٍ من كل وجود على أى نحو ، بل هو اللاوجود ، بمعنى عدم التعين ؛ فالهوى الخالية من الصورة هى اللاوجود ، وحالها هذه عابرة ، لأنها حال انتقال بين صورة تزول وأخرى تحل . والخلق تبعاً لهذا هو الانتقال من حالة التعين بصورة ، بالنسبة إلى الهوى ، إلى حال الأخذ بصورة ما ؛ أى أنه التغير بالمعنى العام . وكل تغير لابد أن يتم بين طرفين يتعاقبان على موضوع غير معين . فلا يمكن إذن أن يجرى بين وجود وعدم ، بل من وجود إلى وجود ؛ إذ كل تغير يستلزم نقطة بَدء وجودية ، فإذا قلنا بأن الخلق تغير ، فلا يمكننا أن نفهمه على أنه انتقال من العدم المحض إلى الوجود ، لأن نقطة البدء الوجودية الضرورية فى كل تغير تعوزها حينذاك . ومن هنا قالت النظرة الفلسفية إن العدم لا يحدث عنه شيء ، ولا يُخْلَق شيء من المعلوم . وعلى العكس من هذا نرى النظرة الدينية تقول إن الخلق ، أو على الأقل فعل الخلق الأول الذى أوجد به الله الوجود ، يتم من العدم إلى الوجود ، العدم المطلق الثانى لكل وجود ، على أى نحو كان هذا الوجود . وتبعاً لهذا تقول ، بعكس النظرة الفلسفية القديمة (اليونانية) ، إن كل ما خُلِق فقد خُلِق عن العدم أول الخلق على الأقل . وكلتا النظرتين قد ربطتا الخلق بالزمان ، فقالت النظرة الفلسفية إن الزمان أزلى ، والحركة أزلية ، ما دام التغير أو الخلق أزلياً ؛ بينما قالت النظرة الدينية إنه مخلوق ، لأن الحركة أو التغير حادث مخلوق .

ولكنه رَبطُ خارجي محض ، ليس فيه أدنى بيان للصلة الإيجابية بين الزمان والحلق : إنما الزمان تابع لفعل الحلق ، بحسبان أنه مقياس للحركة ، الأزلية في النظرة الأولى ، الحادثة في النظرة الثانية . ولم توضح إحداها معنى العدم بوصفه عدماً ، ولذا لم يكن في وسع إحداها أن تبين المشاكل التي يثيرها تفسيرها له ، خصوصاً النظرة الدينية لأنها قالت به ، فكان عليها إذن أن توضح المقصود منه . وكل ما عنت به النظرة الدينية هو المعلوم ، أى الأشياء في حال العدم لا العدم نفسه ، كما هو ظاهر خصوصاً في علم الكلام الإسلامى ، في تلك المشكلة التي أثيرت حول : هل المعلوم شئ ، أو هو ليس بشئ ؟ والأصل في إثارتها مسألة الوجود والماهية : فن قال إن الوجود غير الماهية ، أمكنه تصور الماهية غير موجودة ، وسماها في هذه الحال بالمعدومة ، أى غير المتحققة في الوجود أو بالوجود بعد ؛ ومن قال إن الوجود عين الماهية ، قال إن المعلوم ليس بشئ . فالمعتزلة ، وهم الذين قالوا بالرأى الأول ، ذهب أكثر شيوخها إلى أن الماهيات والنوات أشياء حادثة وجودها وعدمها ، بينما ذهب أبو الهذيل وأبو الحسين البصرى (من المعتزلة) والأشاعرة إلى أن المعلوم ليس بشئ وإلى أنه « قبل الوجود : نفي محض وعدم صرف وليس بشئ ولا بذات » (١) . ووضح أن هذا ليس بحثاً في العدم بوصفه العدم ، بل في الأشياء حال عدمها . وشتان ما هما ! ولهذا لم يتبينوا الإشكالات العديدة التي يثيرها رأيهم هذا ، فثلاً لم يتبينوا هذه الصعوبة في هذا التصور ، ألا وهى ، كما لاحظ هيدجر : « إذا كان الله يخلق من العدم ، فيجب أن يكون في وسعه أن يكون على ارتباط وصلة « مع » العدم . ولكن إذا كان الله هو الله ، فلا يمكنه أن يعرف العدم ، إذا كان صحيحاً أن « المطلق » يستبعد من ذاته كل نقص في

(١) فخر الدين الرازى : « الأربعين » ، ص ٥٩ ، طبع الهند سنة ١٣٥٣ هـ = سنة ١٩٣٤ م . وراجع « المحصل » له أيضاً ، ص ٣٤ - ص ٤١ ، طبع مصر سنة ١٣٢٣ هـ = سنة ١٩٠٥ م .

الوجود» (١). وتفسير هذا أن الله ، لكي يخلق من العدم ، لا بد أن يكون عارفاً بالعدم ، ومعرفة العدم تؤذن بنقص فيه ، ولكنه الكمال المطلق الخالي من كل نقص ، فهو إذن لا يعرف العدم ، وبالتالي لا يمكن أن يخلق من العدم . والقضية : معرفة العدم تؤذن بنقص في العارف ، واضحة الصحة ، فإن شرف العلم بشرف الموضوع ، والعدم نقص فالعلم به في مرتبة ناقصة ، فالعالم به ناقص الرتبة من حيث العلم وهو يتنافى مع الكمال المطلق ، إذ هذا يقتضى من ناحية العلم أن يكون علماً في مرتبة كاملة على الإطلاق . ولذا نجد أرسطو يجعل علم الله علماً بذاته هو ، لا بأى شئ كان ، ونعته بأنه فكر الفكر وموضوع فكره ذاته . (« ما بعد الطبيعة » م ١٢ ف ٩ ، ص ١٠٧٤ ب ، ٣١ - ٣٨) .

أما النظرة الفلسفية فكان مفهوماً ألا تتعمق معنى العدم ، لأنها تستبعد . لذا نراها تحاول تفسيره لا كما هو في ذاته ، بل كما يودى بها ذلك إلى إنكاره . فالنظرة القديمة (اليونانية) تحسبه بثلاثة معان ، أوضحها أرسطو (« ما بعد الطبيعة » م ١٤ ف ٢ ص ١٠٨٩ ، ٢٦ - ٢٨) ، وهى : اللاوجود تبعاً للمقولات ، واللاوجود بمعنى الباطل ، واللاوجود بوصفه القوة في مقابل الفعل . أما المعنى الأول فيقصد به السلب كما يفهم في الحمل ، والثانى هو المعنى العقلى ، والثالث هو المعنى الوجودى . والثانى قد توسع فيه أفلاطون إذ حسب الخطأ هو تصور اللاوجود (« السفسطائى » ، ٢٦١ - ٢٦٣) ؛ كما سار المحدثون في فهمهم للعدم على أساس هذا المعنى الثانى . فكنت (٢) خصوصاً قد قسم العدم إلى أربعة أنواع : (١) العدم كتصور خال من كل موضوع ؛ (٢) العدم كموضوع خال لتصور ما ؛ (٣) العدم كعيان خال ليس بذى موضوع ؛ (٤) العدم كموضوع خال ليس بذى

(١) هيدجر : « ما الميتافيزيقا » ص ٤ . (من الترجمة الفرنسية المذكورة) .

(٢) « نقد العقل المجرد » : ط ١ ٢٩٢ - ٣٤٨ .

تصور ؛ والأول هو الموجود الذهني . والثاني هو العدم المعدول ، والثالث هو الموجود الموهوم ، والرابع هو العدم السالب . وظاهر من هذا التفسير أن العدم قد فهم بمعنى عقلى صرف ، هو كون التصور خالياً من الموضوع أو العيان عارياً من الموضوع ، أو الموضوع بلا تصور ، أى أن العدم هو السلب المنطقي العقلى . وفي هذا إنكار ظاهر للعدم من الناحية الوجودية ، وإن كان كنت لم يصرح بهذا بوضوح كافٍ .

أما الذى صرح به بوضوح فهو برجسون ، إذ تناول مشكلة العدم والوجود ، ولماذا كان تمت وجود بدلاً من العدم ، فى كتابه « التطور الخالق » (ص ٢٩٨ - ص ٣٢٣) لأول مرة فى شىء من التفصيل والتعمق . فقال إن العدم ليس بشىء ، وما هو إلا تصور باطل كتصور دائرة مربعة . ويسوق على هذا عدة أدلة : أولها أنه ليس فى الوسع تخيل العدم ، لأننا إذا تخيلنا زوال كل إدراك خارجى أو باطن فإننا مع هذا نبتين ، ولو بطريقة غير واضحة ، أن تمت شيئاً باقياً لازلنا ندركه . وثانيها : أننا لا نستطيع أيضاً أن ندركه عقلياً ، لأن إلغاء الموضوع فى الذهن يتضمن فى الآن نفسه إحلال موضوع آخر محله ؛ وبالتالي لا يمكن إلغاء الكل ، إذ لن يكون تمت ما يحل محل الكل الذى ألغيناه . وثالثها : أن التفكير فى شىء معناه افتراض وجوده ؛ أما افتراض عدم وجوده فعناه إضافة استبعاد هذا الشىء بواسطة الواقع الفعلى إلى فكرته . ولذا يقول إن السلب لا وجود له إلا بالإيجاب ، ومن الخطأ أن نضع السلب فى مرتبة واحدة مع الإيجاب . وينتهي من هذه البراهين إلى القول بأن السؤال القائل : لماذا كان تمت وجود أولى من العدم ؟ سؤال لا معنى له ، لأنه يفترض أن الوجود انتصار على العدم ، مع أن العدم كما تبين ليس بشىء . ويعلل السبب فى إثارة هذا السؤال - الباطل فى نظره - بأن يقول إن التفكير من أجل العمل والفعل ؛ وكل فعل إرادى ناشئ عن شعور بالنقص والحاجة ، فهو يبدأ إذن من النقص فى منفعة إلى تحقيق هذه المنفعة ؛ ونحن ننقل عادات الفعل إلى أساليب الامتثال والتفكير ، فننقل فى

تفكيرنا « من المعنى النسبي إلى المعنى المطلق ، لأنه يمارس فعله في الأشياء نفسها ، لا في المنفعة التي لها بالنسبة إلينا . وعلى هذا النحو تُغرس في نفوسنا هذه الفكرة ، وهي أن الحقيقة الواقعية تملأ فراغاً ، وأن العدم ، منظوراً إليه على أنه فقدان للكل ، يوجد قبل كل الأشياء في الواجب إن لم يكن في الواقع . وهذا الوهم هو الذي حاولنا تبديده ، مبينين أن فكرة العدم ، إذا زعمنا أن نرى فيها فكرة لإلغاء كل الأشياء ، هي فكرة قاضية على نفسها وترتد إلى كلمة مجردة (من كل معنى) - ؛ أما إذا كانت ، على العكس من هذا ، فكرة حقاً ، فلإننا سنجد فيها من المضمون بقدر ما نجد في فكرة الكل » (ص ٣٢٢) .

الفقرة

وأول ما يلاحظ على كلام برجسون هذا هو أنه لا يزال ينظر إلى العدم من الناحية العقلية بحسبانه إسقاطاً لكل تصور ذي موضوع ، وأنه يأتي عن طريق نوع من التجريد المستمر . ومن الواضح أنه إذا كان الأمر كذلك فالتجريد لن ينتهي ، ولا مناص لإذن من أن يبقى ثمت شيء ، ولا يلغى الكل بأسره . ولكننا وجدنا في حال القلق أن الشعور شعوراً بفناء كل الأشياء دفعة واحدة ؛ ولو تنبه برجسون إلى هذه الحال العاطفية لا تنهي إلى الاعتراف بإمكان إدراك العدم المطلق ؛ ولكنه استمر في التجريد العقلي على نحو ما فعل كنت العقليون السابقون . ففي حال القلق الصادر عن فكرة موت الخاص ، لن يبقى شيء هائلياً أمام التخيل . والحجة الثانية التي ساقها تقوم على نفس الطريقة التي سار عليها ، أعني طريقة التجريد المتواصل ، وهي عملية لا تنهي ، ما دمنا ننظر إليها كعملية ، أي كشيء متسلسل ، لا كفعل واحد نقوم به دفعة واحدة . أما الحجة الثالثة فقد رددنا عليها من قبل عند حديثنا عن المرتبة الوجودية لكل من السلب والإيجاب وأثبتنا أنهما في مرتبة واحدة ، ولا مبرر مطلقاً لحسبان السلب مشتقاً من الإيجاب دون العكس . وأعرب ما في كلامه هذا التفسير الذي وضعه للأصل في هذا السؤال : « لماذا كان وجود ولم يكن عدم ؟ » ، إذ هو تفسير ساذج لا يحل المسألة في شيء ،

فإن علينا أن نلاحظ أن هذا السؤال سؤال ميتافيزيقي أصيل « فكيف أمكن أن ينشأ عن حاجة عملية « هي الشعور بالحاجة والرغبة في إشباعها ؟ إذ الفارق بعيد جداً بين هذه الحاجة العملية وبين تلك الحاجة العقلية التي يحس بها الموجود مصدرراً لجزعه وقلقه على وجوده ، والدافع له إلى نشدان معنى لهذا الوجود . ولذا قلنا إنه سؤال أصيل ، أى يتعلق بأصل الوجود وبالمبرر الأول للوجود أياً كان . وإن من أشد المناهج فساداً لتفسير الأعلى بحسبانه ناشئاً عن الأدنى . وبرجسون لم يفعل هنا غير هذا ؛ فضلاً عن أنه أرجع الأمر إلى تصور عقلي لا أساس له من الوجود .

وهذا التفسير الفاسد لمعنى العدم يتمشى ، كما هو طبعى ، مع تفسيره الفاسد أيضاً لمعنى الإمكان ، وللزمان بوصفه خالقاً . فهو يزعم « أن الممكن هو ... سراب الحاضر فى الماضى ؛ ولما كنا نعرف أن المستقبل سينتهى بأن يصير حاضراً ، ولما كان تأثير السراب لا يزال مستمراً ، فإننا نصور لأنفسنا أن الحاضر الفعلى ، الذى سيكون ماضياً فى الغد ، فيه صورة المستقبل متضمنةً سابقاً ، على الرغم من أنه ليس فى وسعنا إدراكها (١) » ؛ أى أن الممكن ليس شيئاً سابقاً على الواقع يتحقق فى الحاضر ، بل بالعكس هو شىء لا حق على الواقع تنوهمه فى الماضى بعد أن يتحقق ، وكأنه التفاتة إلى الوراء : « فالواقع هو الذى يصير ممكناً ، وليس الممكن هو الذى يصح واقعاً » (ص ١٣٢) . فهنا أيضاً نرى برجسون يرد أمر الممكن إلى التوهم العقلي ، سالباً إياه كل حقيقة وجودية . والعجيب فى الأمر أنه يقول بهذا من أجل إنقاذ فكرة الخلق المطلق الذى يعزوه إلى الزمان . إذ هو يقول بخلق جديد مستمر ، جديد بمعنى أنه لم يكن موجوداً إطلاقاً ، ولا على نحو الإمكان ؛ والخالق عنده هو حينئذ الزمان . ونحن نلاحظ على هذا أولاً أننا نراه يقول

(١) برجسون : « الممكن والواقع » ، محاضرة منشورة فى « الفكر والمتحرك »

عن الحقيقة الواقعة إنها « نمو مستمر ، وخلق متصل إلى غير نهاية » (التطور الخالق « ، ص ٢٦٠) ، ومعلوم أن النمو يبدأ من بذرة تتضمن ، على هيئة الكمون ، مستقبل الكائن بأكمله ، وإن يكن ذلك بطريقة إجمالية . وثانياً ، وحتى لو سلمنا بأن الجسم النامي أو الكائن طوال النمو غير الكائن في البذرة ، وأن فكرة الكمون فكرة غامضة - ، فإنه لن يبقى بعد هذا إلا أن نفسر العلة في هذا النمو والخلق . أما برجسون فيعزوه إلى الزمان ، قائلاً إن الزمان خالق . ولكننا نلاحظ أن هذه الفكرة عن الزمان غامضة مضطربة أشد الاضطراب ، لأنه يصور لنا الزمان في هذه الحالة كأنه إله يخلق جديداً باستمرار بالنسبة إلى كل شيء على حدة . ويظهر أنه ينظر إلى الله فعلاً هذه النظرة ، إذ نراه يقول : « إن الله ... ليس شيئاً كمثل تكوينه ؛ إنما هي حياة مستمرة ، وفعل ، وحرية » (التطور الخالق « ، ص ٢٧٠) ، وهذه صفات يضيفها أيضاً إلى الزمان . وتساءل برجسون بعد هذا : ومن أين للزمان هذه القوة والقدرة المطلقتان ؟ فلا تظفر إلا بعبارات شعرية خلافة لا غناء فيها . ثم تحاول في غناء أن تستخلص نظرية واضحة للزمان عنده ، فلا تحلو بباطل ؛ ولذا نوافق هيدجر على حكمه على تحليل برجسون للزمان بأنه « تفسير للزمان ناقص غير محدد إطلاقاً من الناحية الوجودية » (الوجود والزمان « ، ص ٣٣٣) . وعندنا أن العلة في هذا هي سوء فهم برجسون لفكرتي الإمكان والعدم ، إذ فسرها على أنهما فكرتان زائفتان لا أساس لهما من واقع الوجود ، مع أن كل تفسير للزمان لا يقوم على أساس هاتين الفكرتين ، بوصفهما فكرتين حقيقتين إلى أعلى درجة وجودية ، لا بد أن يكون فاسداً . لأن الزمان يجب أن يفهم على أنه باطن في الوجود ، وأنه أصل الفناء ، وأنه شرط الانتقال من الإمكان إلى الواقع ؛ وبرجسون صوره على أنه عال على الوجود ، وإن لم يقل ذلك صراحة ، ولكن وضعه له في مرتبة إله خالق لأشياء جديدة باستمرار يفرض إلى هذا القول . كما أنه لم يدركه مطلقاً من ناحية أنه أصل الفناء ، وغابت عنه هذه الناحية الأساسية ، لأنه توهم أن كون الزمان خالقاً يتنافى مع كونه أصل الفناء ، بينما نحن نقول على العكس من هذا

تماماً إنه خالق لأنه أصل التناهي والفناء ؛ وأخيراً نراه صَوَّرَ الإمكان بصورة رجعية . كسراب ياقبه الحاضر في الماضي أو كظل للحاضر يرمى به في الماضي ، وليس في وسعه بعد هذا أن يفهم كيف يكون ثمت انتقال من إمكان إلى واقع ، بل كان عليه أن يقول على العكس إن الواقع هو الذي ينتقل إلى الإمكان . الإمكان الخاوي الموهوم طبعاً ، وليس من شأن هذا أن ييسر له فهم وظيفة الزمان في الفعل والخلق ، بل بالعكس : كان من شأنه أن يفسد عليه فهم وظيفة الخلق منسوبة إلى الزمان . ولذا نستطيع أن نقول عن الزمان عند برحسون إنه ألوهية أسطورية خالقة بفعل غير مفهوم على الإطلاق .

أما المعنى الثالث الذي أشار إليه أرسطو وألعبنا إليه منذ حين ، وهو اللاوجود بمعنى الوجود بالقوة في مقابل الوجود بالفعل ، فقد غنى به أرسطو من حيث أن نظرية التغير عنده تقتضيه : فهو اللاتين ، وهو قابلية التعيين بأية صورة . ولكن فهمه له على هذا النحو ، وإن كان قابلاً لأن ينتج أخطر النتائج لو أنه تعمقه أكثر ، جعله ينظر إليه وكأنه "خلو" مطلق من كل إيجاب ، مما يجعل فكرة الممكن فكرة خالية من كل مضمون حقيقي . ولذا ظلت فكرة اللاوجود بمعنى الإمكان فكرة غامضة لديه ، ولعل السبب في هذا أنه لم يقل به إلا كفكرة مساعدة على فهم التغير ، بعد أن أنكر الإيليون إمكانه ، وبالتالي قالوا إن الوجود وحده هو السكائن ، بينما اللاوجود غير كائن أو ليس بشيء . وتابعهم على هذا أفلاطون إلى حد بعيد ؛ أي أنه لم يقل به على أساس أنه عنصر ضروري مكون للوجودي ، وإن كان وصفه له يمكن أن يُستخلص منه ، أو على الأقل يُلزم عليه ، شيء من هذا القبيل ؛ وعلى كل حال فلا أرسطو الفضل في أنه جعل اللاوجود شيئاً من الوجود ، على نحو لم يوضحه . وهذا الاتجاه قد لاقى في هيجل نصيراً متطرفاً إلى أبعد حد . حتى قال إن الوجود الخالص والعدم الخالص شيء واحد ، كما أننا بالتفصيل في عرضنا لمذهبه في هذه الناحية في مستهل الفصل الأول من هذا البحث . ولكن هذا لم يغير الموقف مع ذلك كثيراً ، لأن هيجل قد جعل الهوية بين الوجود والعدم قائمة على أساس ما بينهما من صفات مشتركة سلبية :

هى عدم التعيين ، والمباشرة ، والخلو من كل صفة . وليس فى الصفات السلبية دليل على الاشتراك فى الصفات الإيجابية ؛ فضلاً عما فى كلتا الفكرتين من طابع عقلى تصوورى يباعد جداً بين ما قصد إليه وما نقول به نحن ، متفقين فى هذا مع ما يقوله هيدجر ، الذى أدلى بملاحظة شبيهة بهذه على نظرية هيغل ، وصرح برأيه فى عدم الوجودى فقال : « إن الوجود والعدم يكون بعضهما بعضاً ، لا لأنهما — منظوراً إليهما من ناحية تصور هيغل للفكر (المطلق) — متفقان فى اللاتعيين والمباشرة اللذين لهما ، ولكن لأن « الوجود » نفسه متناهٍ فى ماهيته ، ولا يكشف عن نفسه إلا فى علو الآنية التى تنبثق فى « عدم » خارج الموجود (١) » .

وليس من شك فى أن هيدجر هو أول من عنى ببيان المدلول الوجودى الميتافيزيقى لفكرة عدم ، بحسبان أن مشكلته هى المسألة الميتافيزيقية الرئيسية الأولية . أجل ، إن برجسون قد عنى به وقال عن فكرة عدم « إنها غالباً اللولب الخفى ، والمحرك المستور للفكر الفلسفى . ومنذ يقظة التفكير الأولى هى الدافعة قدماً وعلى مرأى من الشعور المشاكل المثيرة للقلق ، تلك التى لا يستطيع الإنسان تحديدها دون أن يصاب بدوار » (« التطور الخلاق » ، ص ٢٩٨) ؛ ولكنها عناية أفضت إلى خلاف ما وعدت به ، إذ انتهت كما رأينا إلى إلغاء فكرته بوصفها فكرة كاذبة لا أساس لها من الواقع الوجودى ، ولا أثر لها فى الكون والوجود . ولذا نستطيع أن نؤكد مطمئنين أن بحث برجسون فى فكرة عدم كان تفهقراً ظاهراً وعوداً إلى نوع من الإيلية والأفلاطونية ، زعم هومع ذلك أنه يريد بهذا التحليل القضاء عليه (« الفكر والمتحرك » ، ص ١٣٢) ، والواقع أنه توكيد له إلى أقصى حد ، وإن تم بطريق غير إيل ولا أفلاطونى . ولذا قلنا إن هيدجر هو أول من أوضح مدلول عدم من الناحية الوجودية ، وليس برجسون . وخلاصة رأى

(١) هيدجر : « ما الميتافيزيقا؟ » ، الترجمة الفرنسية المذكورة ، ص ٤٠ —

هيدجر (١) أن الوجود ، لكي ينتقل من حالة الوجود الماهوى إلى الآنية ، لا بد له من العلو ، بالخروج من الإمكان إلى التحقق ؛ وفي هذا سلب لإمكانيات كان في الوسع أن تتحقق ، ولكنها انتزعت من الوجود بتحقيق إمكانية غيرها ، وهذا السلب هو العدم ، وبغيره لن يتم التحقق ، لأن التعيين يقتضى أخذ إمكانية دون أخرى ، أى يقتضى سلب إمكانيات . فالعدم إذن داخل في تكوين الوجود ، ما دام هكذا شرطاً في تحققه . ويقظة التفكير الميتافيزيقي تبدأ بتأثير العدم ، لأنه لما كان في جوهر الوجود ، فإن الموجودات تبدو لنا وعليها طابع الغرابة ، وهذه غرابة شديدة ترهقنا ، وإرهاقها إيانا من شأنه أن يثير فينا الدهشة ؛ والدهشة بدورها تولد فينا التساؤل ، والتساؤل هو الأصل في كل بحث ؛ « فمسألة العدم تضعنا « نحن » موضع التساؤل ، نحن المتساولين . وهذه مسألة ميتافيزيقية . إن الآنية لا تستطيع أن تكون على صلة بالموجود إلا إذا استبقت نفسها في داخل العدم . وعلو الموجود يتأرخ (أى يأخذ طابع التاريخية) في ماهية الآنية . وهذا العلو نفسه هو الميتافيزيقي بعينها ؛ مما يدل على أن الميتافيزيقي تدخل في تكوين طبيعة الإنسان » (ص ٤٢ الترجمة الفرنسية المذكورة) . ولكن ليس معنى هذا أن مسألة العدم هى المسألة الوحيدة في الميتافيزيقي عند هيدجر ، ولا أن فلسفته فلسفة عدم ، إنما هذه مسألة من بين المسائل العديدة التى يمكن أن نبدأ بها البحث الميتافيزيقي ، كما أوضح هو ذلك صراحة في مراسلات له مع كوربان ، المترجم الفرنسى لهذه المحاضرة (ص ٩ من الترجمة المذكورة) ؛ كما أن القلق الذى يكشف عنه هو حال وجودية من بين عدة أحوال عاطفية للوجود .

ولكن هيدجر ، مع ذلك ، قد اقتصر حتى الآن على فكرة العدم هذه ،

(١) البحث السابق بأكمله ص ٢١ - ص ٤٤ من الترجمة المذكورة .
وراجع عرضه التفصيلي في رسالتنا : « مشكلة الموت » ، ص ٩٧ - من ١٠١ (من المخطوطة) . وهذا البحث كان محاضرة ألقاها هيدجر في جامعة فريبورج بريسجاو ، في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٩ . (وراجع له أيضاً الآن : « الدخول إلى الميتافيزيقي » توينجن سنة ١٩٥٣ ص ١ - ص ٤) .

بوصفه التناهى المطلق . وهذا ما لا نستطيع نحن أن نقف عنده . فعلى الرغم من أننا نأخذ بما قاله هنا عن العدم وأن فكرته هى الدافع الأول للبحث الميتافيزيقي - وبرجسون قد قال كما رأينا بشيء من هذا - وأن معناه هو التناهى الضرورى فى طبيعة الوجود ، وأنه بهذا شرط لكل وجود ، وعنصر جوهرى يدخل فى تكوينه ، على الرغم من هذا كله فنحن نريد أن نتجاوز هذا القدر من نعت العدم ، بأن نقول إن التناهى ، الذى مصدره العدم ، تناهى خالتي . وهذا القول ليس فى الواقع مضاداً لما يفضى إليه تفسير هيدجر للعدم ، بل هو النتيجة الضرورية له ، غير أنه لم يستخلصها فيما نعلم عنه ، كما أنه ليس عوداً إلى برجسون فى فكرة الزمان الخالق لديه ، لأن الخلق كما نفهمه هنا غير ما قصد إليه .

ومن الخير لنا أن نبدأ منذ البداية ، فنسأل : ما العدم ؟ حتى إذا ما أجبنا عن هذا السؤال ، حاولنا أن نجيب عن السؤال الآخر الذى يتضمنه وهو : لماذا كان هاهنا وجود ، ولم يكن عدم ؟

أما العدم من حيث ماهيته ، فنظن أن الخطأ فى فهمه قد نشأ حتى الآن عن تصور العدم تصوراً مكانياً ، على أنه الخلاء . وكأن الخلاء إطار أو "جرم" حاوٍ يدخل فيه الوجودُ فيملؤه ، أو مكان خال يشغله الوجود ، أو حال من عدم التعيين والقابلية لكل تعين تأتى إليها الصورة الواهبة إياها تعييناً فتحل فيها . وسواء أكان تصوره هذا أم ذاك - والأول هو تصور النظرة الدينية خصوصاً والشعبية عامة - والثانى تصور النظرة الفلسفية وعند أرسطو على وجه التخصيص - فإن النتيجة واحدة ، وهى تصوّره على نحو مكافئ ، ونحن هنا فى الواقع بازاء نفس الظاهرة التى حدثت بالنسبة إلى الزمان . وفى وسعنا إذن أن نسمى العدم متصوّراً على هذا النحو باسم العدم المكافئ . وتبعاً لهذه النظرة ، أنكرت النظرة الفلسفية وجوده ، كما أنكرت وجود الخلاء .

وهيدجر هو الآخر لم يصلح الحال كثيراً ، وإنما فعل بالنسبة إلى فكرة

العدم ما فعله كُنْتُ تماماً بالنسبة إلى فكرة الزمان : فبدلاً من أن يقول إنه شيء أو موجود بوجه عام ، يلصق بجوار الموجود إن صح هذا التعبير ، أو شيء يأتي لذاته فيضاف إليه ، قال : « إن العدم هو الشرط الذي يجعل ممكناً ظهور الموجود بما هو موجود بالنسبة إلى الآنية » (« ما الميتافيزيقا » ، ص ٣٥) ، كما قال كنت تماماً إن الزمان شرطٌ قبليٌّ يجعل الظواهر المتوالية ممكنة الامتثال . ومن الواضح أن هذا ليس حلاً لمشكلة العدم ، ولا بياناً لماهيته . ولذا لا نستطيع الأخذ به ، على الأقل لأنه تحليل ناقص لدلوله ، خصوصاً إذ لا حفظنا أن هيدجر لم يكتشف العدم في الوجود إلا بواسطة حال القلق ، فقال إن نمت قلقاً أصيلاً يأتينا في لحظات نادرة هو الذي يكشف لنا عنه ، فلشعر حينئذ بأن الموجود قد انزلق وغاص لسنا ندرى أين ، وكأنه قسبي . وصحيح أن هذه الحال تكشف لنا عن العدم ، ولكنه كشف ذاتي إن صح هذا التعبير ، أي أنه يأتي بمجهود عاطفي نقوم به شيئاً فشيئاً ، على الرغم مما يؤكد هيدجر من أن هذا الشعور بالعدم يحدث مرة واحدة ودفعة واحدة . ولكن المهم — كما لاحظنا في نقدنا لبرجسون من قبل — ألا نكشف العدم هكذا شيئاً فشيئاً ، وإلا وقعنا فيما وقع فيه العقليون ؛ بل أن نكشفه دفعة واحدة ، بمعنى أن نجده في الوجود عنصراً مكوناً له . وبعبارة أخرى لا بد ، من أجل إثبات حقيقة العدم ، من أن ندل على وجوده موضوعياً — إن صح هذا التعبير هنا — في الوجود الواقعي . فهل لدينا من الوسائل ما يعيننا على الدلالة عليه في الوجود ؟

أجل ! فإن النظرة التي أدلينا بها فيما يتصل بنسيج الوجود الواقعي تسمح لنا بهذا البيان لوجوده الموضوعي . فقد قلنا إن الحقيقة الواقعية مكونة على هيئة انفصال ، وإن فكرة المتصل يجب استبعادها ، وهو ما انتهت إليه أيضاً الفرياء المعاصرة ، في نظرية الكم بل وفي الميكانيكا التوجيهية ، على النحو الذي بيناه من قبل بالتفصيل . وانتهينا من هذا إلى القول بأن الوجود مكونٌ من وحدات منفصلة بينها « هوات » لا يمكن عبورها إلا بواسطة

الطفرة . فنقول الآن إن هذه «الهوات» هي العدم نفسه في وجوده الموضوعي . ولا يجب أن يفهم من هذه الهوات أنها خلاء ، فنحن لا نعرف شيئاً اسمه الخلاء بالمعنى العادى المفهوم .

وقد يعترض على فكرة الهوات هذه بأن يقال إنها من باب اللامعقول . فليكن ، فإن فكرة اللامعقول لم تعد تخيفنا في شيء . والأمربعد ليس أمر عقل ، ما دمتنا هنا بإزاء واقعة لا شك فيها وهي أن الوجود مكون من وحدات منفصلة بينها هوات مطلقة . فكيف نفسر هذه الواقعة ؟ أما نحن فلا نفسرها إلا على أنها تدل على وجود العدم في نسيج الوجود ، عنصراً جوهرياً مكوناً له .

أما أن هذه الهوات عدم ، فهذا قول لا مناص من الأخذ به ، وإلا فأى شيء هي ؟ لقد ملأناها الفزياء القديمة بالآثير ، وزعمت أن الآثير وجود ، ولكن من نوع خاص يقرب من الخلاء القديم . والحق أن فكرة الآثير فكرة غامضة ، إلى درجة أن في وسعنا أن نقول إنها فكرة كاذبة إن فهمت على أنها نوع من الوجود العادى . أما إذا قصد منها الوجود بمعنى العدم الوجودى على النحو الذى يبناه هنا ، فإن الاتفاق بيننا وبين هذه النظرة تام ، ولا خلاف إلا في الألفاظ . ولا مُشاحَّة في الألفاظ كما يقوَّان . ونظرية النسبية قد أحسنت صنعاً بإلغاء هذه الفكرة ، حتى إننا لا نعود نجدها في نظرية الكم ، ولا في الميكانيكا التمجية .

وينظر هذه الهوات بين الذوات في الوجود الفزيائى ، الهوات بين الذوات في الوجود الذاتى . فالعدم إذن بالنسبة إلى هذا الوجود الأخير هو الهوات الموجودة بين الذوات بعضها وبعض ، مما لا يمكن عبوره إلا بواسطة الطفرة كما بينا من قبل . ولما كانت هذه الهوات بين الذوات هي الأساس في الفردية ، ففي وسعنا أن نقول إن العدم هو الأصل في الفردية . ولما كانت الذاتية أو الفردية تقتضى الحرية نتيجة لها ضرورية ، ففي

وسعنا أيضاً أن نقول إن العدم هو الأصل في الحرية . ومع أن الذين عالجوا مسألة العدم ، خصوصاً برجسون وهيدجر ، قد أشاروا إلى وجود ارتباط بين العدم والحرية ، حتى قال برجسون إن مسألة العدم يجب أن توضح خصوصاً « ما دمنا نجعل المدة والحرية في الاختيار أساساً للأشياء » («التطور الخالق » ص ٢٩٩) . وقال هيدجر : إنه بغير الظهور الأصيل للعدم ، لن يكون ثمت موجود فردى ، ولا حرية (« ما الميتافيزيقا » ، ص ٣٥) ، نقول مع أنهم أشاروا إلى هذا الارتباط فلأنهم حين حاولوا تفسيره ضربوا أحساساً لأسداس ، أو أتوا بتفسيره هو العجب كل العجب خصوصاً عند برجسون . وما هذا إلا لأن الأخير لم يفهم العدم ولم يجعله داخلاً في تركيب الوجود ، كما أن هيدجر قد جعل العدم شرطاً ، ولم يوضح كيف يكون داخلاً في تركيب الوجود ، بل ترك الأمر غامضاً كل الغموض ، بالرغم من أنه أكد دخوله في تركيب الوجود . ولكن التوكيد ليس معناه التفسير . أما على أساس مذهبنا هذا في العدم ، فتفسير الصلة بين العدم والحرية يسير : إذ العدم عندنا هو الهوات الموجودة بين الذوات ، وعلى هذا فهو كما قلنا أصل الفردية ، والفردية تقتضى الحرية ، لأن الحرية معناها استقلال الذات بنفسها ، وهذا هو الفردية ، فالعدم إذن أصل للحرية . وطالما كانت الذات في داخل نفسها ، وحيدة وإياها ، فلأنها تكون في حال من الحرية المطلقة ؛ إنما تنقص هذه الحرية إذا انتقلت الذات من حال العزلة إلى حال الاتصال ، وذلك في الفعل . فهنا يقل قدر الحرية تبعاً لطبيعة هذا الاتصال ومقداره . أما من حيث المقدار ، فإن كثرة الاتصال تسبب نقصان الحرية ، لأن كل ذات في تعارض مع الأخرى ، فإذا حاولت إحداها تحقيق إمكانياتها ، لم يتيسر لها هذا بغير مقاومة من جانب الذوات الأخرى ، فكلما زاد عدد الذوات التي يكون معها الاتصال يزداد قدر المقاومة — مبدئياً — ؛ والعكس بالعكس . وهذه واقعة مشاهدة في الحياة العادية : فأقل الناس حرية أكثرهم ارتباطاً بالناس ، وبالأشياء ؛

وأكبرهم حرية أقلهم ارتباطاً بالغير . ويبلغ هذا النقصان في قدر الحرية أوجه في حال الاتصال التام بالغير ، إلى درجة الفناء فيه ، مما يؤدي إلى سقوط الذات وفقدانها لوجودها الحقيقي ووجودها وجوداً مزيفاً : هنالك لا توجد إلا بالناس ولا تفكر إلا كما يفكر الناس ، إلى آخر ما قلناه عن السقوط في شرحنا له آنفاً . وتفسير هذا من ناحية العدم ، أنني بهذا ألغى العدم الموجود بين ذاتي والذوات الأخرى ؛ وبإلغاء العدم تنتفي الفردية ، وبانتفاء الفردية تزول الحرية . والذات الحقة إذن هي التي تحافظ على هذا العدم . ولعل نيتشه قد لمح من بعيد شيئاً من هذا ، وإن لم يقصد إليه كما نفهمه هنا ، حين جعل مبدأه الرئيسي في الأخلاق : المحافظة على الأبعاد بين الذوات المختلفة . فهذا يُفسّر بسهولة على أساس مذهبنا في العدم .

وفكرة العدم مفهومة على هذا النحو من شأنها أن تحل الإشكالات التي أثّرت حوله دون جدوى حتى الآن ؛ كما أنها فكرة خصبة في وسعنا أن أن نفسر بها سر الوجود كله :

فهي أولاً تتضمن لنا كون العدم عنصراً جوهرياً مكوناً للوجود . إذ العدم هنا ، وعلى هذا التفسير ، داخل في تركيب الوجود ولا سبيل مطلقاً إلى القول بأنه وهم ، إذ ليس الأمر بعُد أمرٍ تصورٍ ذهني أو حالٍ عاطفية كالقلق ، بل أمر تركيب الوجود نفسه ؛ ولما كان من الثابت أن هذا التركيب منفصل ، أي على هيئة وحدات منفصلة بينها هوات لا تجتاز إلا بالطرفة ، ولما كان العدم هو هذه الهوات نفسها ، فهو إذن شيء إيجابي موجود في نسيج الوجود ، وليس شيئاً يغشاه ويضاف إليه إضافة خارجية ، أو كائناً من بين الكائنات الحالة به : فالوجود إذن سدها الوحدات المنفصلة (الذرات بالنسبة إلى الوجود الفزيائي ، والذوات بالنسبة إلى الوجود الذاتي) ، ولحمته العدم ؛ ولا معنى بعُد لاشتقاق الواحد من الآخر أو ادعاء أن العدم سلب لا يفهم إلا بالوجود وكأنه مشتق منه ، إلى آخر هذه الأقوال

العجيبة التي أدلى بها الفلاسفة جميعاً حتى هذه اللحظة . كما أنه لا مجال بعد لتصور العدم وكأنه إناء يحوى الوجود ويمتلىء به ، أو للقول بأن الوجود غزو للعدم ، أو أن العدم بساطٌ يمتد عليه الوجود ، أو أن الوجود قد نشأ عن العدم وكأنه تكونٌ من مادة سابقة . فكل هذه التصورات خطأ ، والإشكالات التي لا حصر لها التي أثّرت بسببها تنحلّ كلها على أساس تصورنا هذا . فإن الوجود والعدم يكونان معاً نسيج الواقع ، وليس منهما ما يسبق الآخر زماناً أو مرتبة أو علبةً ، لأنه لا وجود للواحد إلا مع الآخر ، ووجودهما يتم دفعةً واحدة .


ولا نخسبنا بحاجة إلى الإلحاح كثيراً في توكيد هذه الحقيقة ، وهي أن هذا التفسير للعدم يفتح أمامنا أفقاً شاسعاً نستشرف منه إلى عين الوجود وسره . فإن جميع الأفكار الرئيسية التوجيهية التي قلنا بها في عرضنا لمذهبنا في الوجود ستضفي عليها بواسطته هالةٌ من النور الباهر ، وستبدو مكونة لمذهب محكم الأجزاء ، نقطة الإشعاع فيه فكرة العدم : إذ وجدنا منذ قليل أن فكرة الفردية لا يمكن أن تفهم إلا على أساس تفسيرنا للعدم ، والعدم إذن هو كما قلنا الأصل في الفردية ؛ وفكرة الحرية بدورها أقمنها على أساس الفردية ، وفي النهاية ، على أساس تفسيرنا للعدم كذلك ؛ وفكرة التوتر مصدرها أيضاً فكرة العدم ، لأن التوتر كما أوضحناه لا يتحقق إلا من مزيج الوجود مع اللاوجود أو العدم ، فكأن فكرة التوتر صادرة مباشرةً عن فكرة العدم ؛ وأخيراً فإن فكرة الإمكان مصدرها فكرة العدم ، لأن الإمكان أصل الفعل ، والفعل لا يتم إلا بطفرة الذات في الغير ، وهي طفرة لا تقوم بها الذات إلا لأن ثمت عدماً ، وإلا لكان ثمت اختلاط تام وكمال في التحقق للذات الواحدة منعزلة دون فعل ، أو للذوات كلها متحدة بغير عدم ، وبعبارة أوجز نستطيع أن نقول إن الفعل لا وجود له إلا إذا كان ثمت إمكان ، وإلا فلا معنى له إذ سنكون بازاء كمال ونحقق تام ، وفي التحقق التام لا مجال للفعل والتغير إطلاقاً ، بل المجال مجال الثبات المطلق كما هو مشاهد

بالنسبة إلى الكائن الكامل كمالاً مطلقاً ؛ والفعل لا يتحقق إلا لأن ثمت انقساماً بين الذات الفاعلة والغير الذى فيه تجرى فعلها . وهذا الانقسام النافى للاتصال معناه إذن بالضرورة وجود انفصال فى الوجود الجارى فيه الفعل ؛ والانفصال معناه وجود هوات بين الذوات المختلفة وبين الذات الفاعلة ، وهذه الهوات هى العدم ؛ فالفعل إذن يقتضى العدم ، ولما كان الفعل أساسه الإمكان ، فالعدم إذن أساس الإمكان . وهكذا نرى أن الأفكار الرئيسية الموجهة لنا فى مذهبنا الوجودى ، وهى الفردية والتوتر والإمكان ، ترتبط كلها أوثق ارتباط بالعدم ، وكأنه إذن البؤرة التى يجتمع فيها الضوء ، والمركز الذى يشع منه كل النور المكوّن لمذهبنا فى الوجود . وإذا كانت الأفكار السائدة التوجيهية لهذا المذهب تستمد وجودها من فكرة العدم ، فمن الواضح أن بقية الأفكار التى تنتسب مباشرة أو بطريق غير مباشر تماماً إلى هذه الأفكار السائدة تعود بدورها إلى فكرة العدم . فهى إذن مركز المنظور فى المذهب الوجودى . ولذا نستطيع أن نعكسها على كل ما قلناه حتى الآن ، فنراه يرفل فى نور ساطع .

وفى وسعنا بعد هذا أن نجيب عن السؤال الثانى ، وهو : لماذا كان هاهنا وجود ولم يكن عدم ؟ ، قائلين إنه سؤال لامعنى له بعد ، إذا فهم على أنه يتضمن القول بتناقض بين الوجود والعدم . فنحن قد رأينا أن الوجود لا يمكن أن يقوم إلا بالعدم ، وكذلك العدم لا يقوم إلا بالوجود ، وليس أحدهما شيئاً مضافاً إلى الآخر ويمكن أن يزال عنه ، بل هما معاً ، وهما معاً فقط . يكونان الوجود فى حال الآنية . وإذا كانا كذلك ، فهل يبقى بعد هذا أى معنى لذلك السؤال ؟ لذا نحن نرفضه على أنه سؤال كاذب ، ونحل المشكلة على أساس القول بأن الوجود والعدم يكونان معاً نسيج الوجود المتحقق فى حال الآنية . إنما السؤال الحقيقى الذى يجب أن يوضع بعد هذا هو : ما العلة الفاعلية لهذا الاتحاد بين الوجود والعدم لتكوين الآنية ؟ والجواب القاطع عندنا هو : إنها الزمان .

فبدخول الزمان في الوجود الماهوى اتحاد العدم مع الوجود ، العدم الذى يمثله الزمان بوصفه مصدر التناهى ، والوجود الذى يمثله الوجود الماهوى بوصفه الإمكان المطلق ، فتكون عنهما الوجود على هيئة الآنية ، أى هذا الوجود فى العالم ؛ ولولا الزمان إذن لما كان ثمت تحقق للوجود ؛ ومن هنا نستطيع أن نعتبه بأنه خالق بمعنى أنه العلة فى تحقق الوجود . فأنخلق هنا إذن ليس معناه الجدة المطلقة كما يزعم برجسون ، وليس معناه الإيجاد من العدم كما تدعى النظرة الدينية ، بل معناه اتحاد العدم مع الإمكان بواسطة الزمان .

أما أن نسأل بعد هذا : متى وكيف دخل الزمان فى الوجود الماهوى لتكوين الآنية ؟ فهذا لا معنى له أيضاً ، لأن الزمان ليس شيئاً عالياً على الوجود الماهوى يدخل فيه فى وقت معين وعلى نحو معلوم ، بل هو باطن فيه بطوناً ضرورياً ، ضرورة تصدر عن ماهية كليهما ، فلا محل بعد هذا للسؤال عن البداية والكيفية ، ما دام هذا البطون أو هذه المحايثة ضرورية ، أى سابقة على كل سؤال عن البدء والكيفية . وعلى هذا فإن التساؤل الميتافيزيقى يجب ألا يذهب إلى أبعد من السؤال السابق الذى وضعناه ، ألا وهو الخاص بالعلة الفاعلية فى اتحاد الوجود الماهوى مع العدم لتكوين الآنية .



التاريخية الكيفية

لا تحقق إذن للوجود على هيئة الآنية إلا بالزمان ؛

ولا آنية إذن إلا وهي متزمنة بالزمان ؛

وتلك هي الزمانية : فهي إذن الطابع الأصيل للآنية . لذا لابد أن نجد خواصَّ الآنية في الزمانية ؛ وهي خواص حددناها في آخر الأمر في ثلاث : المنفصل ، والتوتر ، والامكان . فلنحاول الآن أن نبين خصائص الزمانية ، ابتداءً من هاتيك .

أما صفة المنفصل فتدعونا إلى وصف تركيب الزمانية بالانفصال ، ونقضى بهذا على فكرة الاتصال . ومعنى الانفصال في الزمانية أنها مكونة من وحدات منفصلة عن بعضها البعض ، وليس بينها غير هوات مطلقة لا سبيل إلى عبورها مباشرة . وذلك ما أدركه الباحثون في الزمان من قديم الأعصار ، حين جعلوا الزمان ، وهو ما نسميه هنا بالزمانية ، مكوناً من وحدات مستقلة قائمة بذاتها مقفلة على نفسها ، سموها باسم الآنات . وقد رأينا في الفصل الثاني كيف اضطر أفلاطون وأرسطو إلى القول بأن الزمان مركب من آنات ، على الرغم مما يثيره هذا من إشكال كبير ، فيما يتعلق باتصال الزمان ؛ وهو إشكال لم يستطع أرسطو حله إلا بالفرار من المشكلة ، أو على الأقل بالوقوع في تناقض مع أقواله السابقة ، إذ حاول الحل بأن قال إن الآن كالنقطة بالنسبة إلى الخط ، مع أنه قال من قبل إن الزمان لا وجود له إلاّ بالآن (« السماع الطبيعي » ، ١٢١٩ ، ٣٣) ، بينما النقطة شيء متوهم ؛ أما الآن فعنده إذن غير متوهم ، بل هو العنصر المكون للزمان ! ويظهر أنه شعر بما في حله هذا من تناقض ، لذا جمع بين الناحيتين فقال : « إن الزمان متصل بواسطة الآن كما أنه منقسم وفقاً للآن » (١٢٢٠ ، ٤) . والخطأ

الذى نشأ عنه هذا التناقض هو أنه شبه الآن بالنقطة ، وهو خطأ يرجع بدوره إلى الخطأ الأكبر في تصور الزمان ، ألا وهو تصويره على نحو المكان . وفارق هائل بين النقطة والآن : فالنقطة في سكون وتتال أفقى إن صح هذا التعبير ، بينما الآن في حركة بمعنى أنه في توال مستمر رأسي إن جاز هذا التصوير المكاني هنا (أيا ويَلْنَا من المكان ، فقد أفسد علينا اللغة أشد الإفساد !) . والسكون يميل بنا إلى القول بالاتصال ، لأن التمييز معدوم فيه ، بينما الحركة تدعونا إلى القول بالانفصال ، لأننا يجب أن نميز هاهنا بين أحوال للمتحرك ، وإلا فلا معنى للحركة ؛ وهذا قد أدى في نهاية الأمر إلى إفساد فكرة الآن ، بإدخال فكرة الاتصال فيها ، على الرغم مما في هذا من تناقض فاضح لست أدري كيف وقع فيه هؤلاء الفلاسفة — بل كل الفلاسفة الذين عاجلوا مسألة «الآن» حتى هذه اللحظة — ؛ إذ ليس أمام المرء إلا واحد من اثنين لا ثالث بينهما إطلاقاً : فإما أن ينظر إلى الزمان على أنه متصل . وليس له بعد أن يقول مطلقاً بأنه مركب من آتات ؛ وإما أن ينظر إليه على أنه منفصل . وعليه إذن أن يعدّه مكوناً من آتات منفصلة ليس بينها اتصال ؛ أما أن يقول بالآتات والاتصال معاً فهذا غير جائز على الإطلاق .

والسر في هذا الخطأ اعتبارات نفسانية وأخرى فزيائية . أما الفزيائية فهي تصوّر الحركة تصوراً مكانياً على أنها لا تتم إلا بالتماس والاتصال المباشر بين المتحرك والمحرك . فلما كان الزمان مقدار الحركة ، فلا بد أن يصور على غرارها . فما دامت تقتضي التماس والاتصال ، فالزمان بدوره لابد يقتضيها . ومن سخريّة الأقدار أن يعرفوا الزمان بأنه مقدار أو « عدد » الحركة ، والعدد منفصل ، بل هو الانفصال بعينه ، فكيف يقال عنه إذن إنه عدد متصل ؟ أو ليس في هذا تناقض في الحدود فاضح ؟ والأمر في هذا غير مقتصر على القدماء ، بل امتد إلى المحدثين ، إذ اضطروا ، لكي

يفسروا التأثير من بُعد . أن يقولوا بوجود شيء هو التأثير يجرى فيه انتقال هذا التأثير .

ونظن من الواضح الآن ، بعد أن أثبتت نظرية الحكم والميكانيكا التوجيه (كما شرحناها) أن الذرات في انفصال بعضها عن بعض وأنه لا وجود للتأثير كما أثبتت نظرية النسبية ، وأن التأثير ينتقل بنوع من الطفرة بين الذرات بعضها وبعض - ، نقول نظن بعد هذا أن لا محل مطلقاً لهذا الاعتبار الآن . وعلى هذا نستطيع أن نوكد ، على العكس . أن الفزياء المعاصرة تضطرنا إلى القول بأن الزمان مكون من وحدات منفصلة انفصال الذرات ، وأنه غير متصل إطلاقاً ، بالمعنى القديم .

والاعتبارات النفسانية ترجع إلى فكرة الذاكرة . إذ قال هؤلاء ، وأكد أقوالهم أخيراً برجسون إلى أقصى درجة ، إن الذاكرة ملسكة كلية قبلية تربط بين الأفعال في الشعور بطريقة متصلة . وكأنها سجل دقيق يرسم عليه تيار متصل مستمر . وهي بهذا تصل الماضي بالحاضر كما تصل الحاضر بالمستقبل بأن تجعله مستمراً . وهذا الاتصال ليس معناه التكرار ، بل هو كتيار يجرى باستمرار دون أن يعود على نفسه . والزمان تبعاً لهذا قد صُوِّر على أنه تيار متصل يجرى في اتجاه واحد من الأزل إلى الأبد . ولكي يتضح هذا المعنى للذاكرة ، جاء برجسون ففرق بين نوعين منها مختلفين أشد الاختلاف : فإحدهما ليست إلا مجموعة من العادات الآلية التي تفيدنا في تكييف أعمالنا مع الظروف الممكنة المختلفة ، « هي عادة أولى » من أن تكون ذاكرة ، تمثل تجربتنا السابقة ، دون أن تستعيد صورتها . والأخرى هي الذاكرة الحقيقية . وهذه على امتداد متساو مع امتداد الشعور ، ولذا تحفظ وتصف كل أحوالنا الواحدة تلو الأخرى وفقاً لحدوثها ، تاركة لكل واقعة مكانها ، وبالتالي هي تحدد تاريخها ، وتتحرك حقاً في ماضٍ نهائي قاطع ، لا في حاضر يتجدد باستمرار ، مثل ما تفعل الذاكرة الأولى «

« المادة والذاكرة » ، ص ١٦٤) . وهذه الذاكرة الحقيقية ليست عنده وظيفة من وظائف المخ ، « وليست تقهقراً من الحاضر إلى الماضي ، بل بالعكس هي تقدم من الماضي إلى الحاضر : فنحن نضع أنفسنا في الماضي ابتداءً » (ص ٢٦٨) ؛ وفيها يحتفظ عقلنا بكل الأحداث الماضية وإن لم تكن كلها في حال الشعور الصريح ، إذ من بينها ما هو كائن في اللاشعور . ولكن هذا ليس معناه زوال هذه الأحداث . والماضي يبدو تبعاً لهذه الذاكرة الخالصة ، كما يسميها برجسون ، كأنه تيار متصل يكاد أن يفصل عن التغير مكوناً مدةً قائمة بذاتها . ولذا كان من اليسير على برجسون أن يخطو الخطوة الأخيرة فينعت الذكرى الخالصة بأنها الزمان أو المدة نفسها ومن هنا نرى أن الذاكرة قد أدت به وبغيره من السابقين إلى تصور الزمان متصلاً ، ما دامت الذاكرة عندهم تقدم لنا تياراً متصلاً من الشعور .

غير أن هذا التصوير لوظيفة الذاكرة ليس بصحيح . فقد أثبت بيير جانيه (١) أن الذاكرة ترجع إلى « الفعل المؤجل » فقال : « إن الفعل المؤجل هو في رأيي نقطة البدء الحقيقية للذاكرة » (ص ٢٣٢) ؛ ومعنى تأجيل الفعل إحداث انقطاع في تيار الشعور ، لأننا نكون ثمثتد أحراراً في أن نفعل أو لا نفعل ، وفي هذا قطع لتيار الفعل المتواصل ، وإحالة إلى مستقبل أبعد ، فإذا كانت الذاكرة كذلك ، فإنها ليست ملكة كاية ، نجدها في كل إنسان ، بل يقول جانيه رداً على برجسون : « إن برجسون يقول عادة بأن الرجل المنعزل ذو ذاكرة ، وأنا لست من هذا الرأي . فالرجل المتوحد ليست له ذاكرة كلية يخزن فيها كل ما مر به من أحداث وما عاناه من أحساس . وإنما الذاكرة ملكة متأخرة تنشأ مع الحياة الاجتماعية من أجل تكيف العمل وإياها ، والأحداث لا تُسَجَّل فيها على نحو خط مستمر وتيار متصل ، بل على أساس إطارات عقلية أو اجتماعية نعطيها مدلولاً واتجاهاً خاصاً » .

(١) بيير جانيه : « تطور الذاكرة وفكرة الزمان » ، باريس ، سنة ١٩٢٨ .

ذلك نقد جانیه . وهو نقد يتجه إلى إثبات أن الذاكرة لا تعطينا هذه الصورة لتيار متصل للشعور يجرى في الزمان من الماضي إلى الحاضر ، بل على العكس من ذلك تمثل لنا في الزمان انقطاعات وانفصالاً . والواقع أن تصوير برجسون للذاكرة لا يتفق في شيء مع ما تدل عليه كل الظواهر المتعلقة بالذاكرة ، سواء في أحوالها العادية وفي أحوالها المرضية ؛ ولا دلائل مطلقاً على وجود ذكرى خالصة ، أى تذكر عار عن أحداث معينة محدودة ، وبالتالي لا دليل على وجود تيار للشعور بالماضى يسير في خط واحد متصل ، وكأنه تذكر فوق كل التذكرات الجزئية المحددة ، بل كل ما لدينا ذكريات خاصة بأحداث معينة متفرقة ذات اتجاهات عدة . وإن جمعنا بينها مع ذلك حول وحدة : فإن هذا الجمع لا أصل له إلا ردها إلى مصدر واحد تنتسب إليه هو شخص أو ذات معينة ؛ ولا يدل هذا الجمع إطلاقاً على أن ثمت تياراً متصلاً ، على النحو الذى تصور عليه برجسون الذاكرة الخالصة . ولعلنا هنا بازاء تجريد أجوف تخيله برجسون . وفي وسعنا أن نفسر السر في قول برجسون به . بلا عناء . فحقيقة الأمر أن برجسون قد جعل الذاكرة هى الروح ؛ وتصور الروح على أنها المدة أو الزمان المتصل المستمر ؛ ثم صور الذاكرة على أساس هذا التصوير للزمان ، فكان تصويره للذاكرة إذن ليس الأصل في تصويره الزمان ، بل بالعكس . ولذا نرى نظريته في الذاكرة لا تقوم مباشرة على الوقائع النفسية . بل يحاول فيها إخضاع هذه لنظريته في المدة . فواقعة اللاشعور لا تدلنا مطلقاً على أن «كل» الأحداث الماضية تسجل في الذاكرة . بل كل ما تدل عليه هو أن ثمت أحداثاً قد سجلت في الذاكرة ولسبب أو لآخر استبعدناها حاضراً عن الشعور ؛ وليس كل ما في الذاكرة محدد بزمان معين في الماضي . فأغلب ما في الذاكرة من معارف لا ندرى متى وأين حصلناه . خصوصاً اللغة . وهذا يدل على أن مسألة التحديد الزمانى في الذكريات مسألة ثانوية . وإذا كانت كذلك ، فلماضى الذى تصوره الذاكرة ليس محددًا كأنه خط

من الزمان مستمر متعينة أجزاؤه بعضها بالنسبة إلى بعض ؛ والظواهر المرضية التي أهاب بها لا تؤدي إلى القول بهذا النوع من الذاكرة .

والنتيجة لهذا إذن أن الذاكرة لا تسمح لنا بتصوير الزمان على نحو ما فعله هؤلاء الذين ظنوا أنهم قد اعتمدوا عليها في هذا التصوير . فلا الاعتبارات النفسانية إذن ، ولا الاعتبارات الفزيائية مؤدية إلى القول بأن الزمان متصل . ولعل الدافع الخفي لهذا القول هو رغبة الإنسان في انقاذ الماضي ، والتخفيف من قوة الزمان القاضية على كل شيء في زعمهم . ولكننا لا نستطيع أن ننساق في تيار هذه الأمنية ، ولذا نؤكد أنها وهم لا بد من القضاء عليه وليس أمامنا بعد إلا أن نؤكد أن الزمان مكون من وحدات منفصلة ، وأنه لا وجود لتيار مزعوم يسمونه المدة أو المجرى المتصل .

والسؤال الذي يجب علينا أن نضعه بعد هذا هو : إذا كان الزمان على هذا النحو ، فكيف نفرق فيه بين ماض وحاضر ومستقبل ؟ والجواب عنه يرتد بنا إلى نظرية الوجود . فقد قلنا في الفصل الأول ، وكذلك في الثالث إن الأصل هو الوجود الماهوى ؛ وهو ينتقل إلى حال الآنية بواسطة دخول الزمان في الوجود الماهوى : وبعبارة أخرى يصير الممكن واقعاً متحققاً بالفعل في العالم بواسطة دخول الزمان على صورة العدم ، بأن يختار في الوجود الماهوى بين وجه أو أوجه معينة من أوجه الممكن وتتحقق بالفعل . وهذه العملية تتضمن إذن ثلاثة أطوار : الإمكان، والفعل، والتحقيق بالفعل — ، مما يذكرنا بالأطوار الثلاثة التي وضعها أرسطو لبيان التغير وهي : القوة، والفعل في سبيل التحقق ، وهذا يسميه إنرجيا *energeia* ؛ والكمال أى التحقق فعلاً ، ويسميه إنتلخيا *entelecheia* ، ولكن الفارق بين ما نقوله هنا وما يقوله أرسطو هو أننا ننظر إلى الأمر من ناحية الوجود الذاتي ، وهو قد نظر إليه خصوصاً من ناحية الوجود الفزيائى ؛ وهذا يفضى إلى التفرقة : لأن الأول فيه مجال للحرية ، والثانى ليس فيه مجال للحرية ، أو على الأقل

مجال الحرية فيه أضال نسبياً ، إذا ما أخذنا بالنتائج التي قالت بها نظرية السكم في نسب اللاتعيين عند هيزنبرج .

أما الإمكان فعناه أن الوجود الذاتي في حالة إضمار وتصميم لما يمكن أن يكون عليه ، وهو سابق على التحقق بالضرورة . فليس بصحيح إطلاقاً ما زعمه برجسون من أن الممكن هو سراب الحاضر في الماضي . وأن الواقع هو الذي يصير ممكناً ، وليس الممكن هو الذي يصبح واقعاً . أجل ! إن تمت حالة نفسية نشعر فيها بشيء من هذا . وهي حالة الندم . فبعد أن أرتكب فعلاً يتبين لي بعد الفعل خطأؤه . أقول لنفسى : قد كان ممكناً أن أفعل كذا وكذا . ولكن حتى في هذه الحالة . نحن لا نجعل الحاضر ذا سراب هو الماضي . أو الماضي سراب الحاضر . لأننا هنا لا نقول إن هذا الفعل الحاضر الذي أصبح واقعاً قد كان ممكناً . وبالتالي كان في الوسع ألا أفعله . لا نقول هذا فحسب . بل نقول أيضاً في نفس الآن إن تمت إمكانيات أخرى كان في وسعى اختيارها ؛ وعلى هذا فليس الممكن انعكاساً للحاضر ، بل إنماء له وإغناء لمدلوله . إذ الحاضر قد يوهمني بأنه الوجه الممكن الوحيد ؛ لأنه الذي تعين وحده . بينما الممكن هنا يجعلني أقول على العكس من ذلك ، إن تمت أوجهاً أخرى عديدة كان في الوسع أن يتحقق على نحوها الحاضر . وليس هذا الإثبات وحده هو الذي يقنعنا بفساد مذهب برجسون . بل في وسعنا أيضاً أن نبين صحة قولنا بأسبعية الممكن على الواقع بطريقة إيجابية واضحة بأن نقول : الفعل الذي فيه اختيار . على أي شيء يدل ؟ إنه لا يدل إلا على أن تمت ممكنات عدة يختار من بينها الفاعل واحداً أو صفة معلومة وينفذها . ولا معنى للحرية مطلقاً إلا على هذا النحو : فالحرية معناها القدرة على الاختيار . ولا اختيار إلا بين ممكنات ، وإلا فلا معنى له . بل يكون اضطراراً لا اختياراً ، فالحرية إذن تقتضى بالضرورة مقدماً وجود الممكنات . فقد يكون مفهوماً من رجل ينكر الحرية أن يقف هذا الموقف الذي وقفه برجسون من فكرة الممكن ، أما وبرجسون من

القائلين بالحرية ، بل من المتفافرين بهذا كل التفاخر ، فلن عجبى من موقفه هذا يستنفذ كل عجب ، إذ لا أستطيع أن أتصور كيف فاته هنا هذه الظاهرة البسيطة الواضحة ، ظاهرة الفعل الحر ؛ ولعل التفسير الممكن لهذا التناقض الغريب هو نزعه الفعالية (البرجماتية) التى جعلته هنا يقدم الفعل على الإمكان . مزيلاً بهذا دور التصميم والاختيار من عملية الفعل ، أى ملغياً كل حرية . أو ليس من السخرية العابئة أن يقال عنه بعد هذا إنه فيلسوف الحرية ؟ !

من الثابت إذن أن الإمكان سابق على الواقع ، وكل إنكار لهذه الحقيقة صادر عن وهم ، وهم أن الأسبقية هنا فى التحقيق الفعلى ، فنضعهما فى مستوى واحد ، هو الوجود العيى المتحقق بالفعل ؛ ونقول إن أحدهما ، وهو الواقع ، يكون أسبق ، مع أننا يجب أن نلاحظ هنا أننا فى مستويين مختلفين بين الوجود الماهوى ومستوى الوجود العيى الواقعى . ولإيضاح هذا نعود إلى ظاهرة الفعل الحر ؛ فنقول إن الذات قبل الفعل تكون حاوية لإمكانات عدة ، فتختار من بينها إحداها أو بعضها وتحققه ؛ فالإمكانات هنا أشياء مستقبلية قابلة لأن تتحقق ، ولكن لا كدلتها ، والاختيار هو الذى يعين الأوجه الممكنة التى ستحققها الذات بالفعل ، ثم يأتى دور التنفيذ ، حتى إذا ما انتهى صار الوجه المختار متحققاً فعلاً . ودور التنفيذ هذا هو دور فعل يجرى حاضراً ويتم فى آن واحد مع الاختيار ، حتى إننا لا نستطيع أن نفرق بينهما بالفعل ؛ ولذا يجب أن نعدهما فعلاً واحداً لا يتجزأ يجرى فى حال الحضور المباشر . أما بعد التنفيذ مباشرة فلدينا دور جديد ثالث هو دور الفعل وقد تحقق . ومن الواضح هنا أننا لمنا بإزاء شىء سيكون ، ولا بإزاء شىء فى حال كينونة وفعل يجرى ، بل فى حال شىء قد كان . ومن هنا نرى أن هذه العملية ذات أدوار ثلاثة : الفعل بوصفه ممكناً « سيكون » ؛ والفعل بوصفه حادثاً يجرى « كاناً » ؛ والفعل بوصفه شيئاً « قد كان » . و « سيكون » : معناها المستقبل و « قد كان » : معناها الماضى ، و « كان » : معناها

الحاضر : وبهذا المعنى . وهذا المعنى فحسب . نفرق في الزمان بين ماض وحاضر ومستقبل . فآتات الزمان الثلاثة إذن ذواتٌ معانٍ وجودية خالصة ، لأنها لا تتصل إلا بالفعل في أدوارٍ تحققه ، أى الوجود في أحواله إبان التحقق ابتداءً من الماهية مارين بالفعل بمعناه الديناميكي ، حتى نصل إلى التحقق الفعلي للموجود .

ولو رجعنا الآن إلى لوحة المقولات التي وضعناها ، سواء بالنسبة إلى العاطفة وبالنسبة إلى الإرادة ، لوجدنا أن كل ثالوث من الثالوثات الثلاثة في كلتا الحالتين يمثل آناً من هذه الآتات الثلاثة . وهذا ما أشرنا إليه فعلاً من قبل في عرضنا لطبيعة كل منها ، فلا داعي إذن لتكرار ما قلناه . إنما نجترىء بأن نشير إلى الموقف العاطفي والإرادي المرتبط بالآتات الثلاثة حتى نفسر بهذا ما يعزى إلى كل منها عادةً من مواقف نفسانية انفعالية . أما المستقبل فلأنه يدل على الإمكان الذي لم يتحقق بعد ، وهو بهذا لا زال غنياً ، لأن في مجرد التحقق إسقاطاً لبعض الأوجه ، ومن هنا ينفذ العدم كما شرحنا بالتفصيل في الفصل السابق — ، نقول إنه لهذا الغنى بالممكنات يتسم بسمه السرور والبهجة والإقبال . ومن هنا كان الأمل أو الرجاء أو التقي ، وكلها أحوال عاطفية تدل على أن المستقبل ، أعذب ما يشعر به الموجود . ونحن قد رأينا فعلاً أن ثالوثي المقولات المرتبطين به يدلان على هذا : فهو الحب في ميدان العاطفة ، والتعالى في ميدان الإرادة ، وهذان أسمي مشاعر الموجود الحى من حيث السعادة . ولكن ليس معنى هذا أن المثل الأعلى للموجود الحى أن يقتصر عليهما ، لأنهما لا يمكن أن يقوموا بذاتهما ، وإلا انقلبا إلى أوهام جوفاء ، وهذا ما تقتضيه أيضاً طبيعة التوتر في الوجود ، فهي تقضى علينا بالألف نقف عند الإمكان ، بل لا بد لنا من الانتقال إلى الفعل . وهذا الانتقال إبان التحقق يبدأ يفقد شيئاً من بهجة الإمكان ، ولكنه لا يفقدها نهائياً ، لأن الفعل لا زال كائناً ، أى لا زالت تمت إمكانيات لم تتحقق بعدُ كلها ، ومن هنا كانت المقولات المعبرة عن هذا الدور ليس فيها من

البهجة ما في مقولات الدور السابق ؛ ولكنها أيضاً أكثر بهجة من مقولات الدور الثالث . ولما كان التحقيق يجري بالفعل كائناً ، فإن الشعور به يكون إلى أقصى درجة ، أعنى الشعور من جانب الذوات بوجودها ، لأن وجودها في تحققها بالفعل ؛ وهذا في الواقع هو معنى الحضور . ولذا كان هذا الدور دور الحضور أو الآن الحاضر . والشعور بالوجود قد رأيناه فعلاً بالغا أوجه في حالتى ثالث وثالث القلق وثالث الخطر ، وما هذا إلا لأن ثمت حضوراً ، إذ فيها تحضُّر الذات نفسَها . وفعل الخلق بوصفه فعلاً مشعوراً به إنما يتم في هذه الحالة إلى درجة بعيدة ؛ أما بوصفه فعلاً ذا آفاق واسعة فيتم في حال المستقبل .

وهذا الشعور المليء بالوجود في حال الحاضر هو الذى يفسر لنا الميل إلى تصور السرمدية على وفق الآن الحاضر . إذ نتصور في هذه الحالة وجود فعل واحد ، لا نجعله مسبقاً بإمكان ، كما أننا لا نتصوره منتهاً وإن كنا نحسبه مع ذلك كاملاً ، وهو ما يسمى الفعل المحض عند أرسطو . وهذا تصوير ينطوى على إشكال عنيف : إذ فيه من ناحية كمال ، ومن ناحية أخرى حضور دائم ، والناحيتان متعارضتان ، لأن الكمال يدل على أن الفعل قد تم ، وتام الفعل كما قلنا فيه لإخراج له من الحضور ، فهنا إذن مُضَيٌّ وحضورٌ معاً . وهذا الإشكال هو الذى أدى ببعض المذاهب إلى الخروج عن هذه الوحدة المغلقة على نفسها في الآن الحاضر ، بجعل السرمدية في صيرورة لا في ثبات . فالمذاهب القائلة بوحدة الوجود عموماً ، بالمعنى الديناميكي لا السكوني ، خصوصاً مذهب إكهرت ، تقول بأن الله أو السرمدية الإلهية في صيرورة وتحقق مستمر ، وما ذلك إلا لأن تصور السرمدية فعلاً ثابتاً فيه إشكال .

والواقع أن فكرة السرمدية فكرة مليئة بالإشكالات والأغاليط . فإننا إذا فهمناها بمعنى الآن الدائم nunc stans فقد قررنا أن ثمت فعلاً واحداً لا أجزاء فيه ، وهذا الفعل لم يكن له قبل إمكان ، ولن يكون كاملاً في ذاته : وإلا

فرقنا بين أجزاء فيه وخرجنا بهذا عن الحاضر الدائم إلى مستقبل وماض .
ولذا لا نستطيع أن نتصور فعلاً كهذا إلا خارجاً عن كل زمان ، وهذا
ما قالوا به فعلاً ، إذ انتزعوا السرمدية من كل زمانية . واسكن هل هذا
ممكناً ؟

إن الفعل لا بد أن يكون تحقيقاً لممكن ، وإلا فلا معنى لتسميته «فعلاً» .
وهذا التحقيق إما أن يتصور حدوثه دفعة واحدة ، أو بالتدريج . فإن كان
الأول فقد اكتمل في ذاته في هذه الدفعة الواحدة ، وبالتالي يصير شيئاً قد
كان ، أى لا بد أن نضيف إليه فكرة المضي ، وفي هذا إخراج له من
الحضور الدائم إلى الماضي . وبالتالي من السرمدية المزعومة إلى الزمانية .
وفي هذا قضاء على فكرة السرمدية بوصفها في مقابل الزمانية . وهنا قد
يعترض علينا فيقال إننا نقيس السرمدية بزمانيتنا ؛ وهذا يؤدي إلى إفساد
فكرة السرمدية وجعلها متزمنة ، أى نقيض ذاتها . ولكنه اعتراض مردود
لأننا إما أن نعد السرمدية فعلاً ، وإما ألا نعدّها كذلك . فإن قلنا بالأولى ،
فكل فعل معناه التحقق ، وإذا تم فقد أصبح خارجاً عن الحاضر داخلاً في
الماضي ، وبذا يجب أن نضيف إليه طابع الزمانية . وإن قلنا بالثانية ، فإن
يكون للسرمدية معنى . لأنها ستتحل حينئذ إلى اللاشيء ؛ أو ستكون ذات
وجود من نوع آخر غير وجود الفعل . فما عسى هذا الوجود أن يكون ؟
لا شيء غير وجود الإمكان . والإمكان لا يكون إمكاناً حقاً إلا إذا كان
سيصير فعلاً وواقعياً ، كما قررنا ذلك مراراً في الفصل الأول ؛ وإلا كان
كلمة خالية من كل معنى . وصيرورته فعلاً معناها الانتقال من حال الإمكان
إلى حال التحقيق ، والأول هو المستقبل والثاني الحاضر . فكأننا لا بد أن
نرتد إذن مرة أخرى إلى الزمانية .

لم يبق إذن غير الفرض الثاني . وهو أن الفعل يتحقق بالتدريج . وهذا
معناه الانتقال من الإمكان إلى التحقيق إبان الفعل حتى نصل إلى التحقيق
فعلاً ، وهكذا باستمرار . وفي هذا التمييز تقوم الزمانية . ومن هنا فالسرمدية

لا بد أن نتصور على أنها متزمنة بالزمان. وإذا كانت كذلك ، فبم نفرق بينها وبينه ؟ واضحٌ أولاً أنه لم يبق ثمت أدنى مبرر لهذه التفرقة ؛ وهذا فعلاً ما انتهت إليه السرمدية عند المحدثين ، كما أشرنا إلى هذا في الفصل الثاني ولم يبق لها معنى بعد إلا أن ننظر فيها إلى الزمان من حيث أزليته وأبديته . وعلى هذا فالسرمدية هي الزمان الأزلي الأبدى المطبوع مع ذلك ، أو لذلك ، بطابع الزمانية ، بمعنى أننا نميز فيه بين آتات للمستقبل والحاضر والماضي ، وليست إذن حاضراً دائماً كما تصورها النظرة القديمة .

ومن هنا نرى أن وضع السرمدية في مقابل الزمان وهُتم لا مبرر له إطلاقاً ، والقول بأن ثمت سرمديةً خاليةً من آتات الزمان الثلاثة زائف فائل ، وتصوير مشوه لحقيقة الوجود . فلا وجود إلا مع الفعل ، ولا فعل إلا مع الإمكان ، ولا إمكان إلا لفعل ، ولا فعل إلا وينتهي - جزئياً على الأقل - إلى تحقيق شيء فعلاً ؛ وإلإمكان ، والفعل إيان التحقق ، والتحقق فعلاً هي كما رأينا آتات الزمان ، فلا وجود إذن إلا بالزمان . وعلى هذا فكل وجود يُتصور خارج الزمان هو وجودٌ موهوم ، مصدره التجريد الكاذب لعقل واهم يحاول أن يقسر الأشياء الوجودية على الدخول في قوالبه المتحجرة . ومصدر القول به محاولة الإنسان القضاء على الجزع من الزمان .

ذلك أنه ، ولو أن التحقق لا يتم إلا بالزمان ، فإن في مجرد التحقق خيراً من ناحية وشرّاً من ناحية أخرى : الخير من حيث إغناء الوجود الذاتي بما تحقق من إمكانيات ، والشر من جراء عدم إمكان تحقيق الإمكانيات الأخرى . فقد رأينا أن الفعل لا يتم إلا إذا كان ثمت اختيار ، والاختيار معناه ترك إمكانيات غير متحققة وغير قابلة أحياناً للتحقق على وجه الإطلاق . ولما كانت السعادة لا تتم إلا بالتحقيق الكامل لكل الإمكانيات ، إذ بهذا يكتمل الوجود قدر المستطاع ، فإن في مجرد الاختيار نقصاً لقدر السعادة ؛ وكل هذا يؤدي إلى شقاء الذات . ومن هنا يأتي شقاء الضمير من الناحية الوجودية . إذ السعادة لا يمكن أن تتم إلا باحراز الكل . وإحراز الكل

مستحيل : لأن الفعل يقتضى الاختيار ، نظراً إلى أن الفعل يستلزم التعين ، والتعين لا يقوم إلا بأخذ وجه أو بعض وجوه دون البعض الآخر من أوجه الممكن . والاختيار إذن معناه استبعاد إمكانيات ، وفي هذا عدم تحقيق ، مما يؤدى إلى عدم إحراز الكل ، وبالتالي إلى الشقاء . والوجود شقي بطبعه لهذا السبب بعينه . وسيظل شقياً ، لأن الإمكانيات لا متناهية ، واللامتناهى لا يمكن اجتيازَه . فإذا كانت السعادة الكلية لن تتحقق إلا بإحراز الكل ، وإحراز الكل معناه إذن اجتياز اللامتناهى ، واجتياز اللامتناهى مستحيل ، فالسعادة الكلية إذن مستحيلة . وهذا ما يعبر عنه عادة بقولنا إن السعادة نسبية : فهى نسبية إلى الإمكانيات اللامتناهية ، وهى ، بالتالى ، دائماً ومن حيث جوهرها ، نسبية ، ما دام اللامتناهى لا يمكن اجتيازَه .

وهذا الشقاء لا يمكن إذن أن يزول إلا إذا أمكن قطع اللامتناهى ، أو إذا استبعدنا الإمكانيات : والأول مستحيل ، والثانى معناه استبعاد الفعل ، وبالتالي ، أو بهذا عينه ، استبعاد الزمان . ولذا نجد أن الذين حاولوا تصور الكائن الأسعد أو الذى هو السعادة بعينها ، قد اضطروا إلى الأخذ بهذين الوجهين معاً ، أو الواحد دون الآخر : فمنهم من نفى عنه الزمان ، ووضعهُ فى سرمدية خاوية لا معنى لها ، جعلوها فى مقابل الزمان . وقد رأينا ما فى هذا التصوير للسرمدية من زيف وبطلان . ومنهم من جعله لا متناهياً متناهياً فى آن واحد : لا متناهياً من حيث الإمكان ، ومتناهياً من حيث الفعل ، إذ هو كمال جامع لكل كمال ممكن ، ومعنى هذا أنه متناهٍ ولا متناه معاً ، وهذه فكرة متناقضة ، تبعاً لمنطقهم على الأقل . فنحن هنا إذن بإزاء وهم آخر يضاف إلى وهم السرمدية .

وقد آن للإنسان أن يتخلص من كل هذه الأوهام التى تقرر وجوداً غير الوجود المتزمن بالزمان ، فهذا واجب لا بد من أدائه إذا كان لنا أن نعبد للإنسان معناه وقيمتَه . ولهذا فإننا نقرر هنا فى صراحة تامة ، وبلا أدنى مواربة ، أن كل وجود غير الوجود المتزمن بالزمان وجود باطل كل

البطلان ، وأن السرمدية المضادة للزمانية وهم من أشنع الأوهام ، وأن السعادة السكلية اللى تتصور على أساس هاتين الفكرتين الزائفتين كاذبة بالتالى أشنع الكذب ؛ وأن كل إحالة إلى وجود غير زمانى ، هى إحالة إلى اللاشئ .

وجودٌ أو لا وجود ، تلك هى المسألة هنا أيضاً .

فإن كان وجود ، فلا بد من الزمان ؛ أما بغير الزمان ، فتمت لا وجود . ولا واسطة بينهما .

والكلُّ بعدُ أن يكثيف مذهبه وفقاً لهذا الرأى كيف يشاء .

ولهذا فنحن نرفض كل محاولة لاستبعاد الزمان على أى نحو كان هذا الاستبعاد . والزمان هنا هو العلة فى تحقيق الإمكان ، والإمكان لا متناه ، واللامتناهى لا يمكن اجتيازه . فتحقيق كل الإمكان مستحيل ؛ ولما كانت السعادة لا تتم إلا بأن يحقق الوجودُ كلَّ إمكانياته ، فالسعادة السكلية وهم وبهذا نفس السر فى تصوير الزمان على أنه مُدمرٌ قاضٍ على الأشياء ، مما يتمثل بوضوح فى قول القائلين : « وما يهلكنا إلا الدهر » (« القرآن » : ٤٥ : ٢٣) . مما جعل الدهر هدفاً لأشد اللعنات . وهذا أظهر ما يكون فى أدبنا العربى ، على الرغم من تحذير النبى فى الحديث المنسوب إليه ، القائل : لا تسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله . وطابع الإشقاء هذا الذى يعزى إلى الزمان هو ما نعتوه باسم « آفة الزمان » . أى الزمان مصدرراً للشقاء .

فهذه ظاهرة حقيقية أدركها الإنسان من أقدم الزمان ، وتفسيرها من الناحية الوجودية أن الزمان هو الذى فيه وبه يتم الفعل . وتحقيق الفعل فيه سلب لإمكانيات ، وهذا السلب معناه أن التحقق لن يكون كاملاً ، وتقصان التحقق يفضى إلى الشقاء . لأن السعادة لا تتم إلا بتمام التحقيق . فالزمان إذن أصل الشقاء . ولا سبيل كما رأينا إلى القضاء على هذا الشقاء ، ما دام مصدره الزمان ؛ وكل محاولة فى هذا الصدد لا تستطيع أن تقوم فى داخل

الوجود الحقيقي ، لذا تهرب إلى وجود زائف يختصره الخيال اختصاراً .
وقد رفضنا نحن أن نساقي في تيسار هذا الوهم ؛ ولذا نقرر أنه إذا
كان الزمان آفة ، فلا سبيل مطلقاً إلى الشفاء منها ، وإذا كان شراً ، فهو
شر ضرورى ، وبالتالي يكون هو الخير بعينه . أو بالأحرى يجب أن
نجعل الزمان عيبرَ الخير والشر . وليس علينا بعد هذا إلا أن نقبل الوجود
هكذا وكما هو ، أى على أنه متضمن بالزمان ؛ وإذا كان الزمان شراً ،
فالوجود شر علينا أن نأخذ به كما هو وبما فيه من شر كامل ، دون أن نحاول
الفرار إلى أوهام السرمدية أو الحاضر السرمدى أو الوقت الدائم ، ودون
أن نقول بوجود غير متضمن بالزمان . فإفساد الإنسان وأفقده قيمته إلا هذه
الأوهام ، وما يدعو إليها من نزوع نحو الخلاص ، مع أن الخلاص لن
يتحقق إلا بحب الوجود على هذا النحو بكل ما فيه من شقاء . والواجب
الأسمى على الإنسان هو أن يقول للوجود المتضمن : نعم ، بكل ما فيه من
قوة . وهذه مسألة لا نريد أن نطيل فيها ها هنا . لأننا نريد أن ننأى بهجتنا
هذا عن التقويم قدر المستطاع . فهو بحث وجودى . ولذا يجب أن تكون
الأحكام فيه أحكام وجود ، لا أحكام تقويم .

وفى شرحنا لمقولات العاطفة والإرادة توكيد لما نذهب إليه هنا . فقد أخذناها
على أنها المعبرة عن الوجود الحقيقي . وهى مطبوعة بطابع الزمانية فى جوهرها
ولست فيها أية محاولة للفرار من الزمانية على أى نحو كان هذا الفرار .
وهذا هو السر فى أنها قد تبدو مطبوعة بطابع الشقاء والألم والعذاب أكثر
منها بالسعادة والسرور والطمأنينة .

فالوجود بالزمان إذن وجود "أسيان" . ونحن نميل إلى ربط طابع الأنى هذا
بالآن الماضى وهو ميل "يبرّره التفسير الوجودى لهذا الآن . فقد قلنا إن
الماضى يعبر عن الفعل بعد أن تحقق وكان . وفى انتهاء التحقق خاؤ من
حضور الفعل ، أى نقصان فى الشعور الحى بالوجود . هذا من ناحية ، ومن
ناحية أخرى فإن فى هذا الانتهاء تثبيتاً للدلول الاختيار ، والاختيار كما قلنا
مصدر الشقاء لأن فيه سحياً لإمكانات ، لكن قبل تمام الفعل كان تمت

مجال بُعد للإمكان ، أما وقد انتهى التنفيذ فقد صار الاختيار واقعاً عارياً عن كل إمكان ؛ وبهذا يعلو الشعور بالنقصان ويصير شعوراً حقيقياً لا سبيل إلى رده . وهذا يدعو إلى الشقاء أو الهم المتعلق بالإمكان . فالوجود مهموم بتحقيق إمكانياته . فإذا تحقق منها وجه دون بقية الأوجه غزا الهم الذات الوجودية . ولذا يرتبط بالماضي الهم والأسى .

لهذا فإن هيدجر مُصِيبٌ في تفسيره للزمانية على أساس الهم . لكنه يغالى في هذا كثيراً حينما يفسر كل آتات الزمان الثلاثة على هذا الأساس . والأولى أن يضاف الهم إلى الماضي ، دون المستقبل والحاضر . أجل ، إن المستقبل يداخله لونٌ من الهم من حيث كون الوجود مهموماً مقدماً بتحقيق إمكانياته . لكننا نظن أن مصدر الهم هنا يأتي خصوصاً من شعور سابق بالهم اللازم للمضى بعد انتهاء التحقيق ، وليس صادراً مباشرةً عن الزمانية بوصفها مستقبلاً حقيقياً . لأن الغالب على الزمانية في حال المستقبل الحقيقي أن تكون ملونة بالأمل والرجاء . وصحيح أن في هذين نوعاً من الهم السابق ، خوفاً من عدم التحقق ، ولكن هذا الشعور دخيل أولى به أن يضاف إلى القلق في الآن الحاضر ، أو الأسف على الآن الماضي بما تم فيه . لذا نميل نحن إلى التمييز بين الأحوال اللازمة لكل آن من الآتات الثلاثة ، دون أن نردها إلى أحدها وحده . خصوصاً أن في هذا تأكيداً لمعنى الزمانية بكل ما فيها أكثر وأكثر ، لأن في رد بعضها إلى بعض شيئاً من القول بضالة قدر بعضها ، وهذا ما لا نود إدخاله هنا في بحثنا الوجودي ، الخالي من التقويم إلا على أساس الشرف في المرتبة الوجودية .

وهذا يدعونا إلى إثارة مشكلة الأولوية والأولوية بين الآتات الثلاثة . والرأى بازائها قد انقسم ، كما هو طبعي ، إلى ثلاث شعب : ففريق يجعل الأولوية والأولوية معاً للحاضر ، وآخر يجعلهما للماضي ، وثالث للمستقبل . والأولون هم القائلون بفكرة الحاضر السرمدى ، والفريق الثانى ينتسب إليه

المؤرخون وأصحاب النزعة التاريخية بوجه عام : أما الشعبة الثالثة فيمثلها عادة أصحاب النزعة الدينية ثم الوجوديون ، خصوصاً كيركجورد وهيدجر .

أما فكرة الحاضر الأبدى الأزلى فتعود في نهاية الأمر إلى النظرة القديمة إلى السرمدية على أنها الآن الدائم ، خصوصاً في الأفلاطونية الحديثة . وهى فى الواقع محاولة " للجمع بين الزمان والسرمدية ، إذ « الآن » نقطة التقاطع بين الزمان والسرمدية » . كما يقول لوى لافل (١) . « والزمان يلقى الموجود بالآن ، فلولا الآن لما دخل الزمان فى الوجود على الوجه الذى دخله » ، كما يقول أبو البركات البغدادى (٢) . فالآن يشارك إذن فى الوجود المتزامن باعتبار الحضور ، وفى السرمدية باعتبار الدوام وعدم التجزئة . ولذا نجد القائلين بفكرة الحاضر السرمدى هم ممن ينزعون نحو تحقيق السرمدية ، وبالتالي نحو التحقق بوحدانية الألوهية . أى أنهم أصحاب نزعة صوفية . وهم بهذا يريدون إيجاد تجربة صوفية للسرمدية مع الوجود الحاضر : والمتصوفة المسلمون من أهم من عنوا بهذه التجربة . وسموها باسم « الآن الدائم » ، الذى شرحه صاحب كتاب « جامع الأصول فى الأولياء » شرحاً بديعاً فقال : « الآن الدائم : هو امتداد الحضرة الإلهية . الذى يندرج فيه الأزلى فى الأبد ، وكلاهما فى الوقت الحاضر لظهورهما فى الأزلى على أحايين الأبد وكون كل حين منها مجمع الأزلى والأبد . فيتحد به الأزلى والأبد والوقت الحاضر . فلذلك يقال لباطن الزمان وأصل الزمان سمرمد الآن . الآتات الزمانية نقوش عليه وتغييرات لا يظهر بها أحكامه وصُورُهُ : وهو ثابت على حاله دائماً سمرمداً . وقد يضاف للحضرة العِشْدِيَّة لقوله عليه الصلاة والسلام : ليس عند ربك صباح ولا مساء » . (١) فعلى هذه النظرية . وكما هو واضح من

(١) لوى لافل : « الحضرة الكلية » ، ص ١٧٤ ، باريس سنة ١٩٣٤ .

(٢) أبو البركات البغدادى : « المعتبر فى الحكمة » ج ٢ ص ٧٩ ، طبع

الهند ، سنة ١٣٥٨ هـ — سنة ١٩٣٩ .

(٣) أحمد ضياء الدين الكمشخانى : « جامع الأصول فى الأولياء » *

هذا النص البديع ، أصل الزمان هو الآن، والآن يقصد به الآن الدائم أى أبداً . ولا قل يوضح الأمر أكثر بأن يعزو هذا الحاضر السرمدي إلى الموجود الكلى ، والموجود الجزئى يشارك فى هذه الحضرة الكلية بواسطة الفعل ، وكأن الحضرة منتشرة فى الموجودات الجزئية ، انتشاراً كان من شأنه أن استحال التوافق التام بين الفكر والوجود ، وأنا يتلقى من الموجود الكلى الحضرة التى يبدو أنه يعبره إياها ، وعليه أن يسمى للاتصال بهذه الحضرة الكلية التى فصله عنها الزمان ، ولو أنه لا يستطيع الوجود إلا بالزمان.

وواضح أننا لا نستطيع الأخذ بهذه الفكرة ، على الرغم مما يبدو فيها من غمق ، لأن الأسس التى تقوم عليها تخالف الأسس التى بنينا عليها مذهبنا تمام المخالفة : فهى تقوم أولاً على فكرة الكائن الكلى ، ونحن قد رفضناها . وحسبنا الوجود للوحدات المنفصلة وحدها ، ولا يوجد ثمت شىء اسمه الوجود أو الكائن الكلى ؛ وثانياً تقوم على فكرة المشاركة ، وهى فى تناقض تام مع فكرتنا عن الاتصال بين النوات ، لأننا ألغينا الاتصال إلا بالطفرة ، والمشاركة تخالف هذا تماماً ؛ وثالثاً ونتيجة لازمة لما سبق ، نقول بالسرمدية الخالية من الزمانية ، وهى فكرة نقضناها من قبل بالتفصيل . لذا لا نستطيع إذن أن نقول بأن الماضى هو الآن الأصيل للزمانية ، خصوصاً أن هذا يؤدى إلى تحطيم كل نظريتنا فى الزمانية ، لأنه يؤدى إلى القول بالسرمدية الخالية من الآنية .

لكن تحديد موقفنا من الفريق الثالث الذى يجعل الآن الأصيل هو المستقبل ، ليس على هذا النحو من السهولة ، لأن الأسس عندنا وعندهم واحدة تقريباً . وهيدجر من أهم من عنى بتحديد رأيه صراحة على رأس هذا الفريق ، فقال : إن الزمانية الأصيلية الحقيقية تنتر من ابتداء

* ص ٩٣ ، طبع مصر سنة ١٣٢٨ هـ = سنة ١٩١٠ م . وراجع أيضاً ص ٣١٢ ، ص ٣٥٩ ، من هذا الكتاب نفسه .

من المستقبل الحقيقي ، حتى إنها لتوقظ الحاضر بأن تكون هي مستقبلاً قد كان ؛ فالظاهرة الأولية للزمانية الأصلية الحقيقية إذن هي المستقبل (« الوجود والزمان » : ص ٣٢٩) ، وقد حللنا معنى هذه العبارة بالتفصيل في رسالتنا « مشكلة الموت » (ص ١٢٩ - ص ١٣١ من المخطوطة) فلا داعي للعود . بل نجتزئ بأن نقول بإيجاز إن السر في هذا عند هيدجر هو أن الوجود الماهوى ماهيته الإمكانيات ، وهى أشياء لم تتحقق بعد ؛ ولما كان الوجود الماهوى هو « الأصل » فى الآنية أو الوجود المتحقق . ولما كانت الأشياء التى لم تتحقق بعد تشير إلى الاستقبال ، فإن المستقبل إذن هو الآن « الأصل » فى الزمانية .

وهذا التحليل نوافق عليه إلى هذا الحد تمام الموافقة . إذ يجب أن نلاحظ هنا أنه يتحدث عن « الأصل » ، لا عن الأهمية ولا عن رد بقية الآنات إلى آن واحد هو هنا المستقبل . وليس من شك ، كما يبين من تحليلنا نحن ، أن المستقبل هو الأصل ، لأنه الإمكان . والإمكان قد بينا أنه أسبق من الواقع بعكس ما زعم برجسون . ونحن فعلاً فى بياننا للمقولات قد ألححنا فى توكيد المقولات الخاصة بالمستقبل ، وهى الحب والتعالى . كما يجب أن نلاحظ أيضاً أنه ينعت المستقبل بأنه الآن « الحقيقى » فى الزمانية ؛ وتفسير هذا أن الإمكانيات كما رأينا هى المكونة للوجود الماهوى ، فلما كان هذا الوجود هو الوجود « الحقيقى » الأصل ، نظراً إلى أن التحقيق يجر إلى السقوط ، فقد نعت المستقبل بأنه الآن الحقيقى . وهذا أيضاً صحيح إلى حد ما . ونقول " إلى حد " ما ، لأن هذا قد يوهم أن فى هذا إيذاناً بأفضلية مجرد الإمكان على الفعل ، أو هو يؤذن بهذا الفعل . وهذا ليس بصحيح من الناحية الوجودية ، لأننا قلنا مراراً إن التحقيق ضرورى ، وإلا لم يكن للإمكان قيمة ؛ وعندنا أن الفعل الحاطىء خير من كل إمكان معلق ، لذا لا نستطيع أن نساير هيدجر فى هذا التقويم . أجل ! إنه قد نشد حالة البراءة والبراءة التى تغنى

بها كبير كجورد وتمنى الوصول إليها . ولكننا لا نقدر على عدّ هذا التمتي وذلك التشدان أساساً يصح الاعتماد عليه في تفسير حقيقة الوجود . البراءة جميلة . وطهارة الطفولة المليئة بالإمكانات رائعة ؛ لكننا نحسب أفضل وأولى ألف مرة خطيئة الفعل المتحقق . وإلا انتهينا إلى حالة من التعليق للإمكانات هي واللاوجود سيّان . لذا فنحن لا نريد أن ننساق في أحلام البراءة والبراءة ، بل نصيح ملء فينا : افعلوا ، افعلوا ! حتى لو أدى ذلك إلى الخطأ . حقاً ، إن من يفعل بخطيء ؛ ولكن الخطيئة لا تتكافأ مهما كبرت مع قيمة الفعل من حيث أنه تحقيق لإمكانات الوجود .

إن تيار الوجود المتدفق لا يسمح لنا بالتوقف والتعليق ؛ ولن يترق بنا إذا حاولنا تجنب الفعل خوفاً من التلوّث بالخطيئة بل سيقذف بنا حينئذ بعيداً إلى خارج التاريخ . وإذن لن نكون في تلك الحال خالقين للتاريخ ، بل موضوعاً من موضوعاته . وفي هذا إفناء للذاتية ، ونبتذّلها خارج بؤرة الوجود الحى المتغير .

لهذا نقول إن المستقبل ليس الآن الرئيسى الحقيقى للزمانية ، لأننا نوّكد جانب الماضى ؛ وإن كنا لسنا بعدُ في مجال الموازنة والتفضيل بين كلا الآتين . ونحن فعلاً قد (١) أشرنا إلى أن المستقبل عند هيدجر يقارب الماضى المفهوم عادة ؛ لأنه يجعل من المستقبل الأساس فى التناهى . ونحن ننظر إلى الماضى هنا من ناحية أنه مصدر التناهى ، ولهذا يمكن أن نقول إن الفارق ليس كبيراً جداً بين ما رمى إليه وما نذهب إليه نحن ، وإن كان هذا تأويلاً ، أكثر من أن يكون أخذاً لكلامه بحروفه . وعلى كل حال ، فإننا نقرر من ناحيتنا أن المستقبل ليس هو أيضاً الآن الرئيسى الحقيقى للزمانية ، بمعنى أن بقية الآنات ترد إليه على أنه أصل لها . ولكن هل معنى هذا أننا نذهب إلى ما ذهب إليه الفريق الثانى ، صاحب النزعة التاريخية ، وهو القائل بأن الماضى هو الآن الحقيقى الرئيسى فى الزمانية ؟

(١) فى رسالتنا : « مشكلة الموت » ، ص ١٣١ (من المخطوطة) .

ولا هذا أيضاً . فعلى الرغم من توكيدنا لقيمة الفعل بعد أن تحقق ، ولمجرد الفعل أياً كانت نتيجته ، فإننا لا نستطيع أن نعد الآن الماضي هو الآن الحقيقي للزمانية ، وذلك لأنه يدل على الانتهاء ، والانهاء يفضى إلى الوقوف ، والوقوف يعطل الوجود الديالكتيكي . ومن هنا عنيانا في باب المقولات بتوكيد مقولة التعالي ، لأننا لا نستطيع الوقوف عند الطفرة أو عند الألم . وإلا وقف تيار الوجود مرة أخرى ، وصرنا نعيش في مُتَحَف التاريخ ، مما يشل كل فعل . فالخطر هنا كالخطر في حال آن المستقبل : فهنا وهناك إشلال للفعل ، وإن كان الاتجاه مختلفاً : فأحدهما إلى وراء ، والآخر إلى الأمام . ونحن وإن أكدنا فكرة التناهي وجعلناها المركز الحقيقي لمذهبنا في الوجود ، فأننا لانفهمه على نحو ساكن ، بل على نحو متحرك . والنحو المتحرك هو ذلك الذى يدعو إلى الإقبال على فعل تال بمجرد الانتهاء من فعل صار متحققاً منهياً . فثبت إذن تناه ساكن "أوسكوني" ، وتناه متحرك "أوحركي" (ديناميكي ، والأول استاتيكي) : وهذا ما شاهدناه فعلاً وقلنا به بوضوح في فكرة الوحدة المتوترة .

وغرضنا من هذا كله إذن أن نقول إن فكرة تفضيل بعض الآنات الزمانية على الآخر فكرة في نظرنا خطأ ، ولا أصل لها من الواقع الوجودي ولذا نؤكد بكل قوة وحدة الآنات الثلاثة وحدة تامة في تكوينها للزمانية الأصلية ؛ ولا نسمح لأنفسنا مطلقاً بالتفضيل بين بعضها وبعض ، ما دمتنا نتحدث عن الزمانية الحقيقية الأصلية . أما الزمانية الزائفة فهي تلك التى تتعلق بأحد هذه الآنات على حساب الآخرين ، كما فعلت الصوفية في تعلقها بالحاضر ، والوجودية في رفعها مكانة المستقبل ، والتاريخية في انعكافها على الماضي . والحق أن هذه الأزمنة أو الزمانية أو الزمانيات ليست أصلية حقيقية ، إنما هي صور نافعة جزئية يستعين بها كل على تحقيق مآربه .

نحن إذن لا نفضل آناً على آخر بطريقة مطلقة ، بل نوكد أولاً وحدة الثالوث في الزمانية ، لدرجة أننا نستطيع أن نقول : المستقبل والحاضر والماضي الزمان الواحد ، إن جاز لنا هذا التعبير . وبعد هذا نستطيع أن

نتحدث عن سيادة أحدهما على الآخر في أحوال جزئية فحسب ، هي تلك التي بينها بالتفصيل في حال المقولات : فمقولة الألم يسودها آن الماضي ، والحب آن المستقبل . والقلق آن الحاضر الخ ، وإن كنا نجد وحدة الزمانية متحققة في كل منها .

وما هذا إلا لأن فكرة التوتر في الوجود تقضى علينا بهذا : إذ لا تسمح لنا مطلقاً بأن نجعل أحد الآتات أصلاً للآتين الآخرين . وكأنا إذن قد وجدنا الفكرة الرئيسية الثالثة والأخيرة تلعب دورها في الكشف عن طبيعة الزمان . وبهذا نكون قد وجدنا خصائص الوجود الرئيسية هي بعينها خصائص الزمانية الأصلية .

وخلال هذا البيان قد انتهينا إلى الكشف عن حقيقتين رئيسيتين : الأولى أن لا وجود لإامع الزمان وبالزمان ، وأن كل ما ليس بمتزامن بالزمان فلا يمكن أن يعد وجوداً ؛ وتلك هي ما نسميه بتاريخية الوجود . والثانية أن كل آن من آتات الزمان مكيف بطابع وجودي عاطفي إرادي خاص ، وليس الزمان إذن مكوناً من وحدات كمية متشابهة في الكيف ، بل بالعكس . هو مكون من وحدات منفصلة ، ولكنها ليست كمية بل كيفية ؛ فالزمانية إذن كيفية . وهاتان الحقيقتان معاً ما نعبّر عنه بقولنا :

انه الوجود ذو تاريخية كيفية



أسماء المؤلفات الافرنجية الواردة بالكتاب



- 1 — M. Heidegger : *Sein und Zeit*, 4. Aufl. 1935. Halle an. d. S.
: *Einführung in die Metaphysik*, Tübingen, 1953.
- 2 — B. Pascal: *Pensées et Opuscles*. Ed. Brunschvicg, Paris, 1912.
- 3 — I. Kant: *Kritik der reinen Vernunft*.
- 4 — H. Denifle: *M. Eckharts Lateinische Schriften*. Archiv f. Lit. u.
Kirch. Gesch. i. Mit. — A., II, 1886.
- 5 — Hegel: *Theologische Jugendschriften*, hrsg. von Nohl, Tübingen,
1907.
- 6 — Hegel: *Logik (Enzyklopädie d. philos. Wissenschaften)*, hrsg. von
Lasson, Leipzig, Philos. Bibl.
- 7 — Hegel: *Wissenschaft d. Logik*, WW, III.
- 8 — J. Wahl: *Le Malheur de la Conscience dans la philos. de Hegel*.
Paris, 1929.
- 9 — Hegel: *Phänomenologie des Geistes*, WW, II.
- 10 — Hegel: *Enzykl. d. phil. Wiss.* hrsg. von Bolland, Leiden. 1906.
- 11 — B. Heimann: *System u. Methode in. Hegels Philosophie*, 1927.
- 12 — Werner Gent: *Die Raum-Zeit-Philosophie des 19. Jahrhunderts*,
Bonn, 1930.
- 13 — B. Croce: *Saggio sullo Hegel*, Bari, 1927.
- 14 — J. Wahl: *Etudes Kierkegaardiennes*, Paris, 1928.
- 15 — Fr. W. J. Schelling: *Sämt. Werke*, Stuttgart u. Augsburg, 1933.
- 16 — Maine de Biran: *Oeuvres*, publ. par Victor Cousin.
- 17 — Maine de Biran: *Oeuvres inédites*, éd. Naville.
- 18 — S. Kierkegaard: *La Maladie jusqu'à la mort*; tr. fr. par Kn. Ferlov
et J. Gateau sous le tit: *Traité de désespoir*, Paris 1939.
- 19 — Karl. Jaspers: *Philosophie*, 3 Bde, Berlin, 1932.
- 20 — G. Marcel: *Journal Métaphysique*, 2ème éd. 1935, Paris.
: *Etre et Avoir*, Paris, 1938.
: *Du Refus à l'Invocation*, Paris, 1940.
- 21 — Simplicius: *In Aristotelis categorias commentarium*. Edidit Corolus
Kalbfleisch. Berolini. MCMVII.
- 22 — Pierre Duhem: *Le système du Monde*, Paris, 1913.
- 23 — Simplicius : *In Arist. physicorum liberos quattuor priores com-
mentaria*. Edidit Hermannus Diels, Berolini, 1895.
- 24 — Plutarcus: *Placita philosophorum*.
- 25 — P. Kraus: *Jâbir ibn Hâyyam*, t. II, Le Caire, 1942.

- 26 — I. Philoponus: *de Aeternitate Mundi*.
- 27 — B. Censorinus: *de die natali*.
- 28 — B. Jowett: *Dialogues of Plato*.
- 29 — Archer-Hind: *The Timaeus of Plato*, London, 1888.
- 30 — Albert Rivaud: *Timée*, tr. fr. Coll. Guillaume Budé.
- 31 — Fraccaroli: *Il Timeo*.
- 32 — Covotti: «Le teorie dello spazio e del tempo», in *Annali d. Sc. Norm. di Pisa*, v. 12.
- 33 — R. Mondolfo: *L'Infinito nel pensiero dei Greci*, Firenze, 1935.
- 34 — F. Cornford: *Plato's Cosmology*, London, 1937.
- 35 — L. Stefanini: *Platone*, 2 vol., 1932, 1935. Padova.
- 36 — S. Pines: *Beiträge zur islamischen Atomenlehre*, Berlin, 1936.
- 37 — Zeller: *Die Philos. der Griechen*, 3. Aufl., 1879.
- 38 — O. Spengler: *Der Untergang des Abendlands*, München, 1931.
- 39 — M. Heidegger: *Kant und das Problem der Metaphysik*, Frankfurt A.M., 1934.
- 40 — Plotin: *Ennéades*, tr. fr. par Emile Bréhier, Paris. Coll. Budé.
- 41 — Themistius: *In Aristotelis Physica paraphrasis*. Edidit Henricus Schankl. Berolini, 1890.
- 42 — Proclus: *Institutio theologica*, éd. Ambroise Firmin Didot, Paris, 1855.
- 43 — Damascius: *Quaestiones de primis principiis*, edidit J. Kopp, 1826, Frankfurt; ed. von Ruelle, 1889, Paris; éd. par E. Chaignet, Paris, 1898.
- 44 — S. Augustinus: *Confessiones; de civitate Dei*. Ed. Migne.
- 45 — J. Guitton: *Le temps et l'éternité chez Plotin et St. Augustin*, Paris, 1933.
- 46 — Van Biéma: *L'espace et le temps chez Leibniz et Kant*, Paris, 1908.
- 47 — Leibniz: *Examen des principes de Malebranche*, éd. Erdmann.
„ : *Nouveaux Essais*, éd. Erdmann.
- 48 — H. Vaihinger: *Kommentar zu Kants Krit. der reinen Vern.*, Stuttgart, Berlin, Leipzig, 1922.
- 49 — H. J. Paton: *Kant's Metaphysics of Experience*, London, 1936.
- 50 — H. Bergson: *L'évolution créatrice; Durée et simultanéité; Les données immédiates de la conscience; La pensée et le mouvant; Matière et mémoire*. Paris.
- 51 — Kant: *Prolegomena zu einer jeden künftigen Metaphysik...*, hrsg. von Karl Vorländer, Leipzig, 1921.
- 52 — Joh. Volkelt: *Phänomenologie u. Metaphysik der Zeit*, München, 1925.
- 53 — Lenzen: «the schema of time», in *The problem of Time*, California University Publications, California, 1925.

- 54 — C. D. Broad: *Scientific Thought*, London, 1927.
55 — Juvet: *La structure de nouvelles théories physiques*, Paris 1933.
56 — E. Cassirer: *Zur einsteinschen Relativitätstheorie*, Berlin, 1921.
57 — H. Driesch: *Die Relativitätstheorie und die Philosophie*, 1924.
58 — H. Reichenbach: «La signification philos. de la théorie de la relativité», in, *Revue Philosophique*, Juillet-août, 1922.
59 — M. Schlick: *Raum und Zeit in der gegenw. Physik*, Berlin 1922.
60 — Max Scheler: *Le sens de la Souffrance*, Paris, 1936 (t. fr.)
 „ „ *Schriften aus dem Nachlass*, I, Berlin, 1933.
61 — M. Heidegger: *Qu'est-ce-que la Métaphysique ?* tr. fr. Corbin, Paris, 1938.
62 — S. Kierkegaard: *Journals*, engl. trans., London 1938.
63 — Max Scheler: *Moralia*, Berlin, 1923.
64 — F. Nietzsche: *Werke*, klein-octav Ausgabe, 1901-1912.
65 — Em. Meyerson: *Indentité et réalité*, Paris, 1932; *Le cheminement de la pensée*.
66 — Leibniz: *Philosophische Schriften*, hrsg. von Gerhart.
67 — Louis de Broglie: *Matière et lumière*, Paris 1937.
68 — Edm. Husserl: *Ideen zu einer reinen Phänomenologie*, 1912.
69 — Pierre Janet: *L'évolution de la mémoire et la notion de temps*, Paris, 1928.
70 — L. Lavelle: *La Présence Totale*, Paris, 1934.
-

فهرس الاعلام

حرف الألف

الاسكندر الأفروديسي
٦٩ : Alexander Aphrodisiensis

الاسكندر بن فيلبس الرومي

٨٤ : Alexander

اشبنجلر Spengler : ٨٤ ، ٧٢

٩٣ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،

١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٩٣

اشتر ندرج Strindberg : ١٦٠

اشلك (مورتس) Moritz Schlick :

١٤٥

أفلاطون Plato : ٦ ، ٤٨ ، ٤٩

٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ،

٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ،

١٧٤ ، ٢١١ ، ٢٤٠

أفلوطين Plotinus : ٤٦ ، ٧٤ ، ٧٥

٧٩ ، ٨٥ ، ٩٩

أقليدس Euclides : ١٢٠

إكهرت Eckhart : ٦٤ ، ٢٤٩

أوغسطين Augustinus : ٤٦ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨

إيسابليخوس Iamblichus : ٧٩

٨٠ ، ٨٨

أينشتين Einstein : ٤٨ ، ١٣٠

١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٩٥

حرف الباء

بارون الفيشاغوري

٧٩ Paron le phythagoricien

برجسون Bergson : ٤٨ ، ٨٥ ، ٨٦

٩٢ ، ٩٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٥ ،

٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ،

٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ،

آدم : ٩٤

أبرقلس Proclus : ٧٩ ، ٨١

ابن سينا : ١٩٠ ، ٩٠

ابن القفطي : ٥٢

ابن النديم : ٥٢

أبو البركات البغدادي : ٤ ، ٥ ، ٦٤

٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٢٥٦

أبو البقاء صاحب « الكليات » : ١٨٥

أبو الحسين البصري : ٢٢٣

أبو طالب المكي : ١٧٧

أبو الهذيل العلاف : ٢٢٣

أبيقور Epicurus : ١٧٦

أحمد ضياء الدين الكمشخاني

النقشبندی : ١٧٧ ، ٢٥٦

إدورد فون هرتمن Ed. von Hartmann :

١٦٠

أرخيطاس الترنطي الفيشاغوري

Archytas de Tarente :

٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٧ ، ٧٨

إردمن Erdmann : ١٠١ ، ١٠٢

أرسطو Aristoteles : ٣ ، ٦ ، ٢٠ ، ٢١

٢٢ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨

٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣

٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥

٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٧

٨٨ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١٢٧

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٤ ، ٢١١

٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥

أرشين (اسكوت) Scot Erigène : ٦

اسبينوزا Spinoza : ٩

استفاني Stefano : ٥٠

دامسقیوس Damascius : ۸۴ ، ۷۹ ، ۸۶ ، ۸۷

دنفلہ Denifle : ۶

دوستویفسکی Dostoïvsky : ۱۶۰

دوهم (بیئر) P. Duhem : ۶۶ ، ۵۲ ، ۷۶ ، ۷۸ ، ۸۲ ، ۸۶ ، ۲۰۹

دی بروی Louis de Broglie :

۱۹۳ ، ۱۹۴ ، ۱۹۶ ، ۱۹۹

دی بور De Boer : ۶۶

دیدو (فرمان) Firmin Didot : ۸۱

دیکارت Descartes : ۳۳ ، ۳۷ ، ۳۸

دیلز Diels : ۶۹

دیمقريطس Democritus : ۱۹۴

حرف الذال

ذیوجانس Diogenes : ۵۲

حرف الراء

روسو Rousseau : ۱۶۰

رله Ruelle : ۸۷

ریشنباخ Reichenbach : ۱۴۴

ریفو (الیر) Albert Rivaud : ۵۵

حرف الزای

زینون الرواق Zeno : ۱۴۰ ، ۵۰

حرف المسین

سقراط Socrates : ۱۶۲ ، ۲۱۴ ، ۲۱۵ ، ۲۱۶ ، ۲۱۷ ، ۲۱۹

سنبلقیوس Simplicius : ۴۸ ، ۴۹

۷۸ ، ۷۹ ، ۸۶ ، ۸۷ ، ۶۹ ، ۷۸ ، ۷۹ ، ۸۶ ، ۸۷

حرف الشین

شریدنجر Schrödinger : ۱۹۶

شکسیر Shakespeare : ۱۸۰

شلتج Schelling : ۱۴ ، ۳۲

شنکل (هینرش) Schenkel : ۷۸

شوپنهور Schopenhauer : ۳۵

۱۲۰ ، ۱۵۴ ، ۱۶۰ ، ۱۹۱

شینیه Chaignet : ۸۷

برنارد (القديس) St. Bernard

برنشفک Brunschvicg : ۴

برود Broad : ۱۳۶

بسکال Pascal : ۴

بوترو (امیل) Em. Boutroux : ۱۹۲

بودلیر Baudelaire : ۱۶۰ ، ۱۶۲

بول کروس Paul Kraus : ۵۲ ، ۶۶

۹۱

بولاند Bolland : ۱۷

بونکاربه Poincaré : ۲۰۹

پیتون Paton : ۱۱۵

پینس (سلمون) Salomon Pines : ۶۶

پیرجانیه P. Janet : ۲۴۳

حرف التاء

ترندلنبرج Trendelenburg : ۱۱۵

تیرزا الابلية Thérèse d'Avila :

۴۲

تسلر Zeller : ۶۸

التوحیدی : ۱۲۱

تور آندریه Tor Andrae : ۹۵

حرف التاء

ثامسطیوس Themistius : ۷۸

حرف الجیم

جابر بن حیان : ۵۲ ، ۶۶ ، ۹۰

جاتو (جان) J. Gateau : ۹۶

جبریل مارسل G. Marcel : ۴۳

الجرجانی : ۵

جنت (فرنر) Werner Gent : ۱۸

جولد تسیر Goldziher : ۹۴

جووت Jowett : ۵۵

جیتون (جان) J. Guilton : ۳۹

جیته Goethe : ۱۶۶ ، ۱۷۹

چیفیه Juvet : ۱۳۷

حرف الدال

دریش Driesch : ۱۲۸ ، ۱۳۹

دقلطیانوس : ۸۴

- ١٤٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢١٨
کنسورینوس Censorinus : ٥٤
کوب Kopp : ٨٧
کوپرنیکس Copernicus : ٤٦ ،
٨٢ ، ٦٦ ، ٤٨
کوربان Corbin : ٢٣١
کورنفورد Cornford : ٥٠
کوریسکس Coriscus : ٦١
کوزان Cousin : ٣٨
کوفوقی Covotti : ٥٥
کونوفشر Kuno Fischer : ١١٥
کیر کجورد Kierkegaard : ٢٨ ،
٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٩ ،
٤٢ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،
١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٥٦

حرف اللام

- لافل (لوی) L. Lavelle : ٢٥٦
لسون Lasson : ٢٢
لنسن Lenzen : ١٣٠
لوپاتشفسکی Lobachevskij : ١٣٣
لورنتس Lorentz : ١٣١ - ١٣٣
لوروا (إدوار) Ed. Le Roy : ٢٠٩
لوك Locke : ١٠٢
لیبنیتس Leibniz : ٢٠ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١١ ،
١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٩٣ ، ١٩٧

حرف المیم

- ماکس شیلر Max Scheler : ٦٨ ،
١٦١ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠
مالبراناش Malebranche : ١٠٢
مایرسون (إمیل) Meyerson : ١٩١ ،
١٩٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩
المسعودی : ٩٤
المسیح : ١٦٧

حرف الطاء

- طه حسین : ٢١
الطوسی : ٤

حرف الفاء

- فال (جان) J. Wahl : ٢٩
فان بینا van Biéma : ١٠١
فایر شتراس Weierstrass : ١٢٨
فاینجر Vaihinger : ١٠٥ ، ١٠٧ ،
١٠٨ ، ١٠٩
فتزجرلد Fitzgerald : ١٣٣
فخر الدین الرازی : ٢٢٣
فرکرولی Fraccaroli : ٥٥
فرلوف (کنود) Knud Ferlov : ٣٩
فرمی Fermi : ١٩٦
فرینل Fresnel : ١٩٤
فشته Fichte : ٣٢
فلوطرخس Plutarchus : ٥٢
فورفورئوس Porphyrius : ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩
فورلیندر Vorländer : ١٢٦ ، ٢١١
فولف Wolf : ١٠٣ ، ١١١
فولکلت Volkelt : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٨
فیلون Philon : ٨٣
فیلین Philine : ١٦٦
فلهم مایستر : ١٦٦

حرف الکاف

- کارل فورلیندر K. Vorländer : ١٢٦
کارل کلیفلیش K. Kalbfleisch : ٤٨
کاسیر Cassirer : ١٣٨
کروتشه Croce : ٢٧ ، ٢٨
کریسپوس Chrysippus : ٤٩
کلارک Clark : ١٠١
کنت Kant : ١٧ ، ٢٥ ، ٣٥ ،
٤٦ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ١٠١ ،
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧

٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
 ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤١ ،
 ٤٢ ، ٤٦ ، ٥٦ ، ٩٦ ، ١٤٥ ،
 ١٥٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ،
 هايدجر : Heidegger : ١٨ ، ١٩ ،
 ٢٠ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٩٢ ،
 ٩٣ ، ١٢٩ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ،
 ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
 هايزنبرج : Heisenberg : ١٣٦ ، ١٩٣ ،
 ٢٤٦ ،
 هيرقليطس : Heraclitus : ٤٦ ، ٥٢ ،
 هيمن : Heimann : ١٨ ،
 هيوم : Hume : ١٤٥ ،
 حرف الياء
 يزجرد بن شهریار : ٩٤ ،
 يسبرز : Jaspers : ٤٠ ، ٤١ ،
 ١٢٩ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ،
 يوحنا النحوي : Jean Philopon : ٤٤ ،
 يونج : Young : ١٩٤ ،

مندلزون : Mendelssohn : ١٨٧ ،
 منكوفسكي : Minkowski : ١٣٠ ، ١٣٥ ،
 مورلي : Morley : ١٣١ - ١٣٣ ،
 موندولفو : Mondolfo : ٥٥ ،
 ميكلسون : Michelson : ١٣١ - ١٣٣ ،
 مين دي بيران : Maine de Biran : ٣٨ ،

حرف النون

نافي (ارنست) : Naville : ٣٨ ،
 نول : Nohl : ٦ ،
 نيتشه : Nietzsche : ١٢٥ ، ١٥٤ ،
 ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ،
 نيوتن : Newton : ٤٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
 ١١١ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٩٤ ،

حرف الهاء

هاميلتون : Hamilton : ٢٢٠ ،
 هربرت : Herbert : ٧ ،
 هسرل (ادمند) : Husserl : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
 عندية : ١٩ ،
 هويجنس : Huyghens : ١٧١ ،
 هيغل : Hegel : ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ،
 ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
 ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،

فهرس أسماء الكتب

أفلاطون (لاستيفاني) : ٥٥ ،
 أفلاطون (للمؤلف) : ٥٤ ،
 امتحان مبادىء مالبرانش (ليبنيتس) : ١٠٢ ،
 انحلال الغرب (اشبنجلر) : ٧٢ ، ٩٣ ،
 ١٢٥ ، ١٢٧ ،
 «الأهمية الفلسفية لنظرية النسبية»
 (ريشباخ) : ١٤٤ ،
 حرف الباء
 بحث في المعطيات المباشرة للشعور
 (برجسون) : ١٤١ ،

حرف الألف

الآراء الطبيعية (فاوطرخس) : ٥٢ ،
 الأخلاق (ماكس شيلر) : ١٨٠ ،
 الأربعين (فخر الدين الرازي) : ٢٢٣ ،
 أرسطو (للمؤلف) : ٦٨ ، ٦٣ ،
 اشبنجلر (للمؤلف) : ٩٣ ، ١٩٣ ،
 الاعترافات (أوغسطين) : ٩٦ ، ٩٧ ،
 أفكار لتكوين ظاهريات خالصة
 وفلسفة ظاهرياتية (هسرل) : ٢٠٧ ،
 أفكار ورسائل (بسكال) : ٤ ،

حرف السين

السفسطائي (أفلاطون) : ٢٢٤
 السماع الطبيعي لأرسطو : ٥٤ ، ٥٩ ،
 ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
 ٨٧ ، ٩٨ ، ٢٤٠
 سنويات مدرسة المعلمين العليا : ٥٥

حرف الشين

شخصية محمد في مذهب أمته
 واعتقاداتها (تور أندريه) : ٨٤
 شرح الاشارات للطوسي : ٥
 شرح سنبلقيوس على السماع الطبيعي :
 ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٧
 شرح المقولات لأرسطو (سنبلقيوس) : ٤٨
 شرح نقد العقل المجرد (فاينجر) : :
 ١٠٧ ، ١٠٩

شروح كتب الطبيعة لأرسطو : ٥١
 شقاء الضمير في فلسفة هيغل (فال) : ١٣
 شوبنهاور (للمؤلف) : ٣٥ ، ١٥٤ ، ١٩١
 حرف الطاء

طياوس لأفلاطون : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧١

حرف الظاء

ظاهريات الروح (هيغل) : ١٥
 ظاهريات وميتافيزيقا الزمان (فولكلت) :
 ١٢٧ ، ١٣٨

حرف العين

عدم الضرورة في قوانين الطبيعة
 (بوترو) : ١٩٢
 علم المنطق (هيغل) : ١٢٧

حرف الفاء

الفكر العلمي (برود) : ١٣٦
 الفكر والمتحرك (برجسون) : ٢٢٧
 فكرة القلق (كيركجورد) : ١٧٠
 فلسفة (كارل يسبرز) : ٤٠ ، ٢٠٠
 فلسفة الزمان والمكان في القرن التاسع
 عشر (جنت) : ١٨

حرف التاء

التاسوعات (أفلوطين) : ٧٥
 التذكر (أرسطو) : ٤٨
 التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية
 (للمؤلف) : ٩٥
 تركيب النظريات الفزيائية الجديدة
 (جيفية) : ٧٣١
 تسع رسائل في الحكمة والطبيعات
 (ابن سينا) : ٩٠
 التطور الخالق (برجسون) : ١٢٣ ، ٢٢٥ ،
 ٢٢٨ ، ٢٣٥
 تعريفات الجرجاني : ٥
 التنبيه والاشراف للمسعودي : ٩٤

حرف الحيم

جابر بن حيان (كراوس) : ٥٢ ، ٦٦ ، ٩١
 جامع الأصول في الأولياء (ضياء الدين
 النخ) : ١٧٧ ، ٢٥٦
 الجمهورية لأفلاطون : ٥٣

حرف الحاء

الحب والمعرفة (ماكس شيلر) : ١٦٧
 الحضرة الكلية (لافل) : ٢٥٦
 حول نظرية النسبية لأينشتين : ١٣٨

حرف الدال

دائرة العلوم الفلسفية (هيغل) : ١٢ ،
 ١٧ ، ٢٠
 دائرة المعارف الاسلامية : ٦٦
 دراسات كيركجوردية (فال) : ٢٩
 حرف الراء

ربيع الفكر اليوناني (للمؤلف) : ٧٤
 الروبية أو عناصر التأولوجيا (أرسطو-
 أفلوطين) : ٨١ رسالة الحدود لابن سينا : ١٩

حرف الزاي

الزمان والسرمدية عند أفلوطين
 وأوغسطين (جيتون) : ٩٦

(بينس) : ٦٦
المذهب والنهج في فلسفة هيغل (هيمن) :

١٨
المرض حتى الموت (كير كجورد) : ٣٩
مسائل وحلول خاصة بالمبادئ في
« برمنيدس » (دمسقيوس) : ٨٧

مشكلة الزمان : ١٣٠
مشكلة الموت (للمؤلف) : ١٩٠
المعتبر في الحكمة (لأبي البركات) :

٢٥٦ ، ٦٤ ، ٤
معجم الفلسفة (لالاند) : ١٢١
معنى الألم (ماكس شيلر) : ١٦١
مقال في العقل الانساني (لوك) : ١٠٢
المقالات الجديدة (لينتس) : ١٠٢
مقالة عن هيغل (كروتشه) : ٢٧
مقدمة لكل ميتافيزيقا أيا كانت في
في المستقبل يمكن أن تعرض نفسها
علماء (كنت) : ٢١١ ، ١٢٦

المكان والزمان عند لينتس وكنت

(فان بيبيا) : ١٠١
المكان والزمان في الفيزياء المعاصرة

(اشلك) : ١٤٥

الملك والوجود (مرسل) : ٤٣

الممكن والواقع (برجسون) : ٢٢٧

من الاباء إلى النداء (مرسل) : ٤٣

ميتافيزيقا التجربة عند كنت (بيتون) : ١١٥

حرف النون

نظام العالم من أفلاطون إلى كوبرنيك

(دوهم) : ٤٨ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ٨٦

نظرية النسبية والفلسفة (دريش) : ١٣٩

نظريات الزمان والمكان في الفلسفة

اليونانية حتى أرسطو (كوفوق) : ٥٥

النفس (أرسطو) : ٤٨

تقد العقل المجرد لكنت : ١٠٣ ، ٣

٢٢٤ ، ٢١٨ ، ١٢٥

نيتشه (للمؤلف) : ١٨٣

الواو

الوجود والزمان (هيدجر) : ٤٤ ، ٣

٢٠٤ ، ٧٣

فلسفة اليونانيين (تسلر) : ٦٨
الفهرست لابن التديم : ٥٢

حرف القاف

قوت القلوب (المكي) : ١٧٧

قدم العالم (النحوي) : ٥٤

حرف الكاف

كليات أبي البقاء : ١٨٠ ، ٥
كنت ومشكلة ما بعد الطبيعة (هيدجر) :

٧٣
كُونِيَّاتُ أَفْلَاطُون (كوزنفورد) : ٥٥

حرف اللام

اللامتناهى عند اليونان (موندولفو) : ٥٥

حرف الميم

ما الميتافيزيقا (هيدجر) : ٢٣٠ ، ٢٢٤

ما بعد الطبيعة (لأرسطو) : ٥٣ ، ٢٥ ، ٣

المادة والذاتكرة (برجسون) : ٢٢٧

المادة والضوء (دى بروي) : ١٩٤ ،

١٩٦
مؤلفات إكهرت اللاتينية : ٦

مؤلفات الشباب (هيغل) : ٧

مؤلفات لينتس : ١٩٣

مؤلفات ماكس شيلر المتروكة بعد

وفاته : ١٦٨

مؤلفات مين دى بيران (نشرة كوزان)

٣٨
مؤلفات مين دى بيران غير المنشورة :

٣٨
مؤلفات هيغل : ١٦

مباحث في العدد والمكان والزمان

(دمسقيوس) : ٨٧

مجموع مؤلفات شلنج : ٣٢

مجموع مؤلفات نيتشه : ١٨٣

محاضرة منكولسكى : ١٣٥

المحصل لفخر الدين الرازى : ٢٢٣

مختار رسائل جابر بن حيان : ٩١

المدة والمعية (برجسون) : ١٣٩

مدينة الله (أوغسطين) : ٩٦

مذهب الجواهر الفرد في الاسلام

حرف الهاء

الهوية والواقع (مايرسون): ١٩١، ٢٠٩،

حرف الياء

اليوم الميلادي (كنسورينوس): ٥٤

يوسبات كيركجورد: ١٧٠

يوسبات ميتافيزيقية (مرسل): ٤٣

مؤلفات الدكتور عبد الرحمن بدوي

(١) مبتكرات

- | | |
|---------------------------|-------------------------------|
| ١ - الزمان الوجودي | ٤ - الحور والنور |
| ٢ - هموم الشباب | ٥ - هل يمكن قيام أخلاق وجودية |
| ٣ - مرآة نفسي (ديوان شعر) | ٦ - نشيد الغريب |

(٢) دراسات أوروبية

- | | |
|----------------------|-------------------|
| ١ - الموت والعبقريّة | ٢ - دراسات وجودية |
|----------------------|-------------------|

حلاصة الفكر الأوروبي

- | | |
|--------------|-------------------------|
| ١ - نيتشه | ٥ - أرسطو |
| ٢ - اشبنجلر | ٦ - ربيع الفكر اليوناني |
| ٣ - شوبنهاور | ٧ - خريف الفكر اليوناني |
| ٤ - أفلاطون | ٨ - برجسون |

(ج) دراسات إسلامية

- | | |
|--|---|
| ١ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية | ١٢ - فن الشعر لأرسطو وشروحه العربية |
| ٢ - تاريخ الأحاد في الإسلام | ١٣ - الإنسان الكامل في الإسلام |
| ٣ - شخصيات قلقة في الإسلام | ١٤ - روح الحضارة العربية |
| ٤ - أرسطو عند العرب | ١٥ - في النفس لأرسطو (ومعه : الآراء الطبيعية لفلوطرخس والنبات لأرسطو والحسن والحسوس لابن رشد) |
| ٥ - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي | ١٦ - الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام |
| ٦ - المثل العقلية الأفلاطونية | ١٧ - ابن سينا : عيون الحكمة |
| ٧ - منطق أرسطو في ٣ أجزاء | ١٨ - ابن سينا: البرهان (من «الشفاء») |
| ٨ - رابعة العدوية | ١٩ - الأفلاطونية المحدثة عند العرب |
| ٩ - شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامي) | ٢٠ - أفلوطين عند العرب |
| ١٠ - التوحيدى: الإشارات الإلهية | |
| ١١ - مسكويه : الحكمة الخالدة | |

(د) الروائع المائة

- | | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| ١ - ايشندورف : حياة حائر بائر | ٤ - جيته : الأنساب المختارة |
| ٢ - فوكيه : أندين | ٥ - بيرن : أسفار اتشيلد هارولد |
| ٣ - جيته : الديوان الشرقى | ٦ - شرفاننكس : دون كخيخوته |

فهرس الكتاب

الوجود بالزمان

الواقع والإمكان ٤٦-١

الوجود : المطلق والمعين (١ - ٦) ؛ الوجود عند هيجل (٦ - ١٦) ؛ الزمان عند هيجل (١٦ - ٢٢) ؛ الروح المطلقة (٢٢ - ٢٣) ؛ المسائل الرئيسية للوجود عند هيجل (٢٣ - ٢٤) ؛ نقد هذه المسائل : الأولى (٢٤ - ٢٥) ؛ نقد الديالكتيك الهيجلي (٢٥ - ٣١) ؛ الثانية (٣١ وما يليها) ؛ الفكر والوجود وأيهما الذى يضع الآخر (٣٢ - ٣٤) ؛ معنى الوجود وأقسامه (٣٤ - ٣٦) ؛ الموضوع والذات (٣٦ - ٣٧) ؛ الذات والإرادة (٣٧ - ٣٩) ؛ معنى الذات وأحوالها (٣٩ - ٤٥) ؛ الوجود لا يمكن أن يفسر إلا على أساس الزمان (٤٥ - ٤٦) .

الزمان اللاوجودى ١٤٩-٤٧

المذاهب الرئيسية الثلاثة فى الزمان (٤٧ - ٤٩) ؛ أصول مذهب أرسطو عند أرخوطاس الترتى (٤٩ - ٥٢) ؛ الزمان عند أفلاطون (٥٣ - ٥٨) ؛ نظرية أرسطو (٥٨ - ٦٣) ؛ الآن (٦٣ - ٦٨) ؛ الزمان والنفس (٦٨ - ٦٩) ؛ الوجود فى الزمان (٦٩ - ٧٠) ؛ عود إلى الآن (٧٠ - ٧٣) ؛ السرميدية (٧٣ - ٧٦) ؛ الأفلاطونية المحدثة ونظريتها فى الزمان (٧٦ - ٧٨) ؛ بين أرسطو وبين الأفلاطونية المحدثة (٧٨ - ٧٩) ؛ نظرية إيامبليخوس (٧٩ - ٨٠) ؛ نظرية أبرقلس (٨٠ - ٨٢) ؛ السرميدية عند اليونان (٨٢ - ٨٣) ؛ نظرية الزمان بين اليونان والمحدثين (٨٣ - ٨٤) ؛ نظرية دمسقيوس (٨٤ - ٨٦) ؛ الخصائص العامة لنظرية الزمان عند اليونان (٨٧ - ٨٨) ؛ نظرية المحدثين (٩١ - ٩٣) ؛ نظرة الروح العربية (٩٤ - ٩٧) ، نظرة أوغسطين (٩٧ - ١٠٠) ؛

نظرية المحدثين فى الزمان : رأى نيوتن (١٠٠ - ١٠١) ؛ رأى لينتس (١٠١ - ١٠٢) ؛ مذهب كنت فى الزمان (١٠٣ وما يليها) ؛ العرض الميتافيزيقى (١٠٤ - ١٠٦) ؛ العرض المتعالى (١٠٦ - ١١٠) ؛ خصائص الزمان عند كنت (١١٠ - ١١٥) ؛ نقدنا لهذه النظرية (١١٥ - ١٢٠) ؛ نقد برجسون له (١٢١ - ١٢٣) ؛ نقد اشبنجلر له (١٢٣ - ١٢٨) ؛ الزمان والرياضة (١٢٩ - ١٣١) ؛ النظرية النسبية فى الزمان : خاصتها (١٣٠ - ١٣١) ؛ أصولها (١٣١ - ١٣٣) ؛ نظرية أينشتين (١٣٣ - ١٣٤) ؛ النتائج العامة لنظرية النسبية المحدودة والعامة (١٣٤ - ١٣٧) ؛ نتائجها فى صلتها بالفلسفة (١٣٧ - ١٣٨) ؛ نقد هذه النظرية : عند كاسيرر ودريش (١٣٨ - ١٣٩) ، عند برجسون (١٣٩ - ١٤٢) ؛ رأينا فى هذه النظرية (١٤٢ - ١٤٨) . نتائج هذا العرض التاريخى (١٤٨ - ١٤٩) .

الوجود الناقص

التناهي الخالق ٢٣٩ — ١٥٣

الفردية (١٥٥-١٥٣) ، لوحة مقولات جديدة (١٥٧-١٥٥) ، لوحة المقولات : مقولات العاطفة : مقولة الالم (١٦٤-١٥٨) ، مقولة الحب (١٦٩-١٦٤) ، الثالث الأول والثاني (١٦٩-١٧٠) ، القلق (١٧٥-١٧٠) ، صلة المقولات بالزمان (١٧٧-١٧٣) ، نتائج بيان مقولات العاطفة (١٧٩-١٧٨) ، الفكر والعاطفة (١٨١-١٧٩) .

مقولات الإرادة : مقولة الخطر (١٨٧-١٨٢) ، مقولة الطفرة (١٩٠-١٨٧) ، الوجود منفصل (١٩٢-١٩١) ، اللامعقول (١٩٣-١٩٢) ، اللاعلية (١٩٣-١٩٢) ، مقولة تعالى (١٩٩-٢٠٦) ، ملكة الإدراك الحقيقية عندنا هي الوجدان (٢٠٦-٢٠٨) ، منطق الوجدان منطق التوتر (٢٠٨-٢٠٦) ،

إقامة منطق جديد على أساس فكرة التوتر : إدخال فكرة الزمانية في تقسيم الأحكام (٢١١-٢١٠) ، التوتر هو مبدأ المنطق الجديد بدلا من مبدأ الهوية (٢١١) ، معنى الحمل (٢١٣-٢١١) ، الجدة في الحكم والقياس (٢١٤-٢١٣) ، الأحكام الوجودية وأحكام الهوية (٢١٦-٢١٤) ؛ الحكم من حيث الكم والكيف (٢١٨-٢١٦) ، معنى السلب (٢١٨-٢١٩) ؛ الجدة في القياس (٢٢٠) ؛ نتائج المنطق الجديد (٢٢٢-٢٢١) .

الزمان والخلق : الصلة بين الزمان وبين العدم (٢٢٣-٢٢٢) ، مشكلة العدم (٢٢٤ وما يليها) ، نقد رأي برجسون في العدم (٢٢٥-٢٢٣) ، معنى العدم عند هيدجر (٢٣٠-٢٣٣) ، نقد هذا المعنى (٢٣٣-٢٣٤) ، نظريتنا في العدم (٢٣٦-٢٣٤) ، نتائج هذه النظرية (٢٣٦-٢٣٨) ، الزمان هو علة الاتحاد بين العدم والوجود (٢٣٨-٢٣٩) .

التاريخية الكيفية ٢٦١ — ٢٤٠

الزمان والنفس (٢٤٠ وما يليها) ، الذاكرة والزمان (٢٤٢-٢٤٥) ، التفرقة بين آتات الزمان (٢٤٦-٢٤٥) ، الإمكان أسبق من الواقع (٢٤٧-٢٤٨) ، المقولات تعبر عن الآتات الزمانية (٢٤٨-٢٤٩) . ، الاشكالات والأغاليط في فكرة السرمدية (٢٤٩-٢٥١) ، السرمدية وهم (٢٥١-٢٥٢) لا وجود إلا وهو متزامن بالزمان (٢٥٢-٢٥٣) ، الدهر (٢٥٣) ؛ الزمانية أسيانة بطبيعتها (٢٥٤-٢٥٥) ، الأولوية بين الآتات (٢٥٥-٢٦٠) ؛ وحدة الآتات (٢٦٠-٢٦١) ؛ الوجود تاريخي ، وتاريخيته كيفية (٢٦١) .